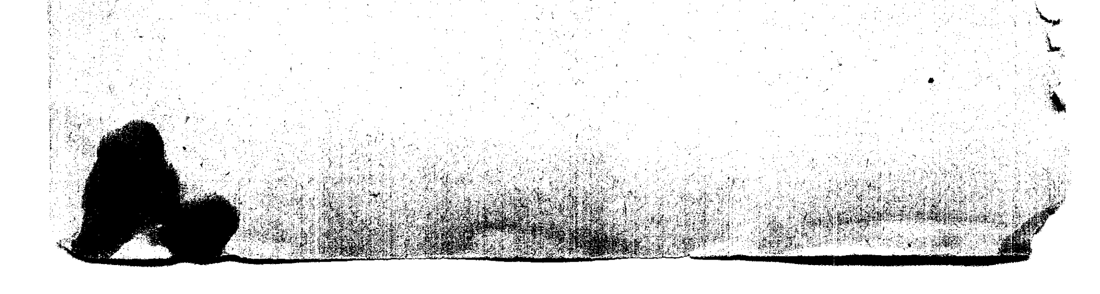
محمد محمد المدني

المجتمع الإسلامي

كما تنظمه سورة النساء



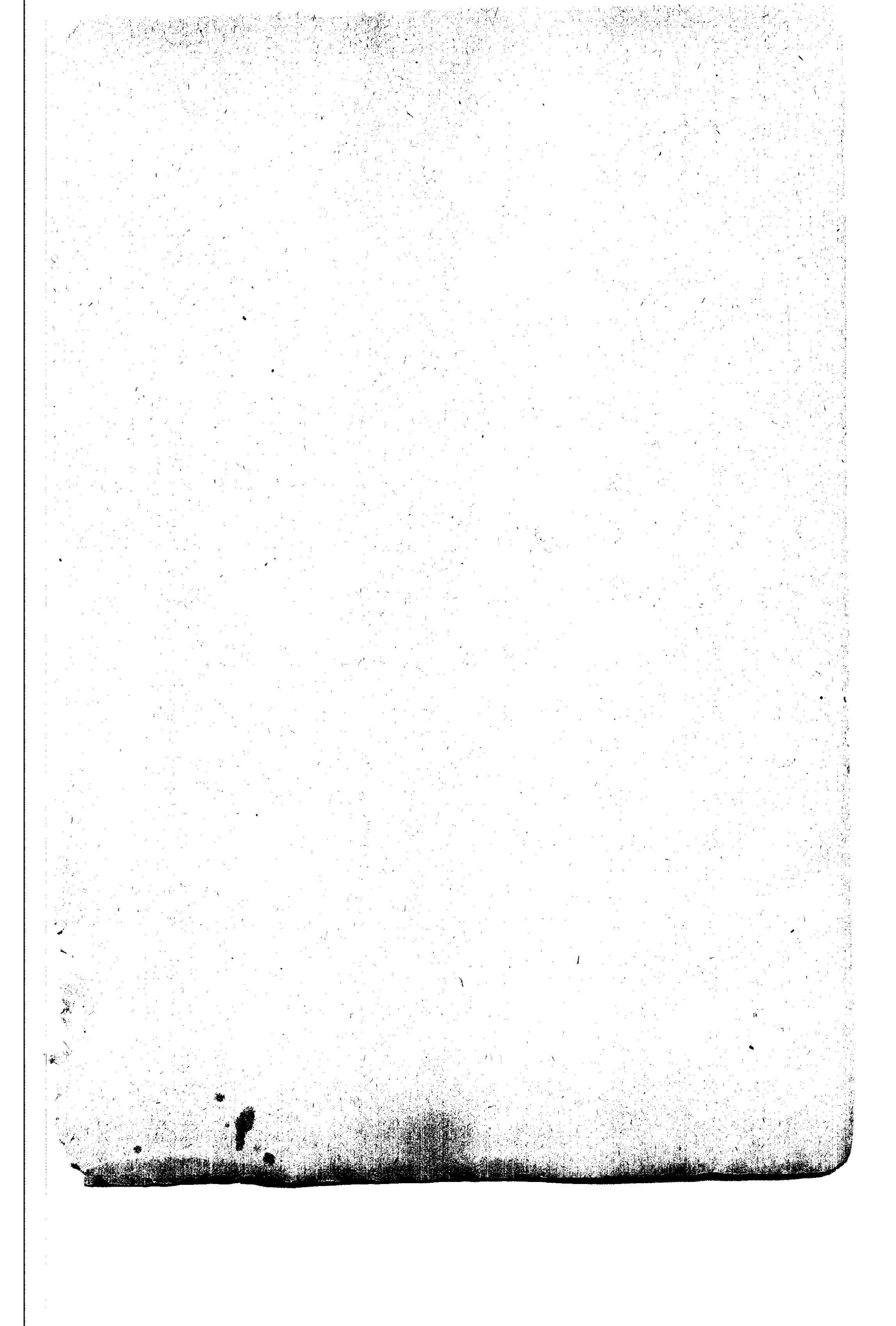
مَطبَعَة مُخيمَرُ
٢٦ شارع الجيش ت ٤٧١٩٣

يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيم .

وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً .

يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا .

الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة النساء



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمدُك اللهمَّ حمداً يُوافي نِعَمك ، ويكافىءُ مَزيدَك ، ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائك ، وصفوة خلقك ، سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الهداة الراشدين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

اللهم إنا نبرأ إليك من الحوْل والطَّوْل ، ونسألك التوفيق لما ترضاه من العمل والقول ، ونعوذ بك أن نتكلف مالا نحسن ، أو نقولَ مالا نعلم ، أو نُماريَ فى الحق ، أو نُجادلَ عن الباطل ، أو نتخذ العلم صناعة ، أو الدين بضاعة ، « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا [1] » ، « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » [2] .

* * *

١ — إن فى كل سورة من سور القرآن الكريم روحا يسرى فى آياتها ، ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها .

ومن المعروف : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمر بوضع الآيات التى تنزل عليه مُنَجَّمَةً فى مواضعها من السوَر ، وأن ذلك كان عن وحى يتلقاه عن جبريل ، عن الله رب العالمين ، فهل كان ذلك

---

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٠ من سورة الحشر .

إلا لمعنى ، وهل يأمر الله تعالى بوضع هذه الآيات هنا ، وهذه الآيات هناك إلا لحكمة ؟

وقد عُنِيَ المفسرون بكثير من الجوانب المتصلة بدراسة القرآن الكريم ، وقلَّ فيهم من عنى بهذا الجانب الذى هو دراسة الرّوح العام لكل سورة ، والغرض التى تهدف إليه .

ومن الواضح أن سور القرآن مع كون كل واحدة منها ذاتَ طابع خاص ، ورُوح يسرى فى نواحيها ـ لا يمكن أن تعد فصولا أو أبوابا مقسمة منسقة على نمط التآليف التى يؤلفها الناس ، ومن أراد أن يفهمها على ذلك ، أو أن يَقسرها على ذلك ، فإنه يكون متكلفا مُشتطا محاولا أن يخرج بالقرآن عن أسلوبه الخاص الذى هو التنقل والمراوحة والتحوّل ، وبث العظة فى تضاعيف القول ، والوقوف عند العبرة لتجليتها ، والتوجيه إلى مغزاها ، وانتهاز الفرصة أينما واتَتْ لدعْم العقيدة السليمة ، والمبادىء القويمة .

إن هناك فرقا واضحا بين من يحاول أن يفعل ذلك ، ومن يحاول أن يجعل القارىء يلمح الرّوح السّارىَ ، والبيئةَ المعنوية الخاصة التى تجول فيها السورة ، دون أن يُخرِج التنزيلَ الحكيمَ عن سُنّته وأسلوبه الذى انفرد به ، وكان من أهم نواحى الإعجاز فيه .

وهذه الطريقة فى الدراسة القرآنية أجدى على الناس من تتبع الآيات آيةً بعد آية بحسب ورودها فى السورة ، ومِنْ تتبع جملِ كلِّ آية ، وكلماتِ كل آية . وأحياناً حروف كل آية أيضاً ، ليُدْرس كلُّ ذلك على نحوٍ من التفصيل أو الإجمال ، أو على نحو من التطويل أو الإيجاز ، فإن ذلك لا يعطى المنظر العام ، ولا يساعد على تصوُّر عظمة السورة مجتمعةَ الملامح ، مُنْضَمّة

التقاسيم ، كاملة الوضع ، ومَثَلُ مَن يكتفى بأن ينظر إلى سورة من سور القرآن هذه النظرة التفصيلية على هذا النحو ، كمثل من يأتى إلى بناء شامخ عظيم فيشتغل بالتأمل فى مادة بنائه ، وفى نوع أحجاره ولَبِناتِه التى كُوِّن منها ، وفى أخشابه ، وحديده ، ومعادنه ، ومقابض أبوابه ، ومفاتحه ، ونحو ذلك ، فيشغله هذا عن مرآه العام ، وعظمته التى تجتليها العين حين تنظر إلى جملته كبيت أو كصرح عظيم .

نعم إن هذا لا يغنى عن ذاك ، فالجملة لا تُغنى عن التفصيل ، والتفصيل لا يغنى عن الجملة ، ولكن القصر أو الصرح إنما كان قصراً أو صرحاً بجملته ، أما كونُ خَشَبِه كذا ، أو حديده كذا ، أو مادَّته كذا ، فذلك درس للخشب أو للحديد أو للأحجار . . . الخ ، وليس درساً للقصر أو الصرح من حيث إنه قصر وصرح .

فالقرآن الكريم يجب أن يُدرس من كل ناحية . وهو قد دُرِس فعلا من عشرات النواحى المختلفة ، ولكنه ـ ككتاب هداية ذاتِ طابع خاص ، له هيمنته على القلوب ، وتأثيره فى الأرواح ـ لا يمكن أن تُجتَلى هذه الناحية فيه بتطبيق كلماته وألفاظه على قواعد النَّحْو حيناً ، وعلى مَرْوِىّ القراءات حيناً ، وعلى تفاصيل التقديم والتأخير ، والحذف والذِّكر ، والوصل والفصل ، فى حدود ما عرفه السكاكى والجرجانى والخطيب ومن إليهم ، من علماء الصناعة اللفظية أو المعنوية ، نحويةً أو بلاغيةً أو روائية .

إن هذا أشبه بخدمة غرض النحويين والبلاغيين وأهل القراءات منه بخدمة غرض القرآن نفسه ، والغاية المقصودة منه ككتاب هداية للتى هى أقوم . فهذه الطريقة تجعل من آياته موضوعات لتمرينات مختلفة ، وتطبيقات متنوعة ، وإن تخلّلها فى كثير من الأحيان بيانٌ للأحكام ، أو توجيه إلى الجمال

الفنّى ، أو إظهارٌ لأسلوب الهداية والإرشاد ، أو تعريفٌ بما تتضمنه الآيات من إيحاء ، أو إشارة ، أو تنبيه ، إلى غير ذلك مما لا يخلو منه تفسير فى العادة .

* * *

٢ — وهناك ناحية أخرى ، هى أن قليلا من المفسّرين هم الذين عُنُوا بإيراد الآيات المشابهة ليستعينوا ببعض القرآن على فهم بعض، كما أن قليلا منهم هم الذين عُنُوا بدراسة الأحكام القرآنية من واقع القرآن نفسه ، فترى أكثرهم يلتمس المناسبة القرآنية ليفيض فى تفصيل أحكام أو معارف جاء بها الفقهاء ، أو أرباب المذاهب الكلامية ، ولا يهمه إلا أن يورد تلك الأحكام ، وينهض بتفصيل تلك المعارف ، سواء دَلَّ عليها القرآن دلالة واضحة ، أو لم يدل عليها ، فحسْبُه أن لفظا قرآنيا جاء فى آية من الآيات ، فيتخذ من هذا اللفظ فرصة لتسجيل ما يعرف وما يجمع من المعلومات الفقهية أو الكلامية ، وبذلك يصبح تفسيره للقرآن كتابَ فقه ، أو كتاب فلسفة ، أو كتاب خلاف .. الخ .

وهذه الطريقة أيضاً ليست من الطرق المثلى فى التفسير ، فإن القرآن كتاب مستقل ، له طابَعه الخاص ، وله حدودُه وأقطاره الفكرية والتشريعية، يجب أن يفهم بدون تكلف، ولا ليّ ، ولا تَمَحُّلٍ ، ولا تخريج، ولا تأويل، ولا رغبة فى نصرةِ مذهبٍ ، أوهدم مذهب، وإن هدايته لاتحتاج إلى أن يستعان على فهمها وإدراك مراميها بغيرها ، ولا يمكن أن يكون وهو الحاكم محكوما عليه ، ولا أن يكون وهو الأصـــل فرعا لغيره من الآراء والأفكار .

* * *

٣ — وشيء ثالث هو أن كثيراً ممن تناولوا الدراسات القرآنية قد تناولوها بروح تطويع القرآن للمُثُل الحديثة ، والمقاييس الحضارية التى أخذ بها الناس ، أو تطلعوا إلى الأخذ بها ، ولذلك نرى من يحاول أن يحمل آياتِ القرآن على أن تفيد مثلا ، أن تعدد الزوجات محرم فى الإسلام ، لأن القرآن يقول « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، وهى سُوقِيَّةٌ فى التفكير والاستدلال ، سببها الولوع بتطويع القرآن لما يأخذ به أهل الحضارة والمدنية فى عصرنا الحديث - وإن كان أخذُهم به صورياً نظرياً فقط - من إنكار مبدأ تعدد الزوجات ، بينما هم يبيحون تعدد الخليلات .

وقل مثل ذلك عن الذين يقبلون على الدراسات القرآنية ليلتقطوا - فى غير إخلاص للحق ولا لقداسة العلم - ألفاظا أو جملا لها ظاهر لا يمكن أن يكون مقصوداً ، ولا يمكن أن ينسجم مع غير هذا الموضع من مواضع القرآن الكريم ، ولكنهم يلتقطونه ويتمسكون به ، ويحرصون على أن يقدموه للناس على أنه مطابق للإصلاح الحضارىّ أو التقدم المدنىّ ، وقد نسُوا أنهم بذلك يَجرُون القرآنَ فى المضمار الذى أجراه فيه أرباب التعصب من أتباع المذاهب الفقهية أو الفلسفية ، ولعلّ مجازفة هؤلاء أشدّ من مجازفة أولئك ، فما كان كتابُ الله بتابع لفكرة ، ولا لمذهب ، ولا لاتجاه معين فى أى شأن من شئون الحياة ، وإنما هو قائد متبوع له أحكامه المستقلة الثابتة ، سواء أوافقت هذه الحضارة أو تلك ، أم لم توافق لا هذه ولا تلك .

إن على الذين يدرسون القرآن أن يقرروا أحكامه هوَ ، ومُثُله هوَ ، ومبادئه هوَ ، وأن يقولوا : هذا هو القرآن ، أما أن يتصوروا مُثل أوربا أو أمريكا ، أو ما عظم فى أعينهم من المثُل أيا كانت ، ثم يحملوا القرآن

عليها ، ويطوّعوه لها ، ويظهروا ذلك أحيانا فى صورة التجديد ،وأحيانا فى صورة التحبيب فى القرآن بتقريبه لغير أهله ، وإشعارهم بأنه معهم : يمضى فى طريق حضارتهم ، ولا يقاوم أساليبهم فى المدنية والحرية . . وما إلى ذلك مما يخدعون به أنفسهم ، وإن ظنوا أنهم يخادعون الله والذين آمنوا ـ فذلك هو الشطط والتزوير .

ويقابل هؤلاء المجددين فى الطرف الآخر قوم آخرون يفعلون فعلهم ، ويسلكون طريقهم ، مع فارق واحد ، هو أنهم لا يحملون القرآن إلا على قديم ألفوه واستقر فى نفوسهم وورثوه عن سلفهم ، فكلما دخلوا فى دراسات قرآنية تمثلوا قديمهم هذا وأفكارهم تلك الرجعيةَ الباليةَ ، فكانت لهم روحا يستلهمونها ويرجعون إليها ، ويلوون القرآن ليطابقها ويؤيدها ، فهؤلاء من أولئك ، وفعلهم من فعلهم ، وحكمُهم على القرآن من حكمهم ، وإن كان لكل وجهةٌ هو مُوَلّيها : ، هذا لما جمد عليه من قديم ، وذاك لما اغتر به من جديد .

والخلاصة أن القرآن رأسٌ بذاته ، له مقاييسه ومثله ومبادئه ، وبهذه المثل والمبادئ جعل الله المسلمين أمة وسطا ، وجعلهم شهداء على الناس ، أى أن أحكامهم وطابعهم ومُثلهم هى الشهيدة على العالم ، وهى المقاييس الصحيحة التى يَرْجع إليها الناس جميعاً ، ويستشهد بها الناس جميعا ، وتُعدَّل بها الأذواقُ والأحكامُ والمناهج ، لا أن تكون هى المعدَّلةَ والملوَّنةَ بأذواق الآخرين ، وأحكام الآخرين ، ومناهج الآخرين .

٤ ــ ولا ينبغى لأحد أن يعترض علينا فى هذا المقام بالسنة النبوية ومنزلتها من الكتاب ، فيفهم مما قلناه أن القرآن يجب أن ينظر إليه وحده حين يُراد تفسير معانيه ، وحين يراد معرفة أحكامه ومراميه ، وألا يكون

للسنة مَدْخل فى ذلك - لا ينبغى أن يقال هذا ، فإن القرآن نفسه قد أعطى السنة الصحيحة حقَّ البيان ، وجعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، شهيدا على المسلمين .

فالله تعالى يقول مخاطبا رسوله الكريم «وأنزلنا إليك الذكر لتُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم»[1] ويقول مخاطبا أمته : «وكذلك جعلناكم أمة وَسَطا لتكونوا شهداءَ على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»[2] .

فبيان الرسول للقرآن هو حكم من أحكام القرآن نفسه ، وكونُ الرسولِ شهيدا على الأمة حكم من أحكام القرآن كذلك ، أى أن بيانه يجب أن يُقبل وشهادته يجب أن تعتبر هى الفصل فيما فيه يختلفون ، وهى التعديل والميزان المعتمد الذى يَرْجع إليه المتعرِّفون للحق ، ولكن يجب أن يوثق بأن كذا هو بيان الرسول ، وأن كذا هو شهادة الرسول ، وذلك بالفحص عن صحة الرواية سندا ، والاطمئنان إلى أن معناها مما لا يأباه القرآن ، أو ينافر رُوحَ القرآن ، فقد يُردُّ المرويُّ لقادح يقدح فى معناه ، أو فى سنده .

٥ — ثُمّ إننا نجد بعض كتب التفسير تورد كثيراً من الأقوال المروية المسندة إلى الصحابة أو التابعين، ويسمون ذلك: «التفسير - بالمأثور» وأحيانا نجد هذا المأثور متعارضا أو متضاربا، فيقف القارئ الوَسَط أمامَه مضطربا، لا يدرى ماذا يأخذ وماذا يدع ، ويحتار العالم، ويجد كثيرا من الصعوبات، إذا حاول أن يزيف هذه الرواية ويرجح تلك ، أو يجمع بين هذه الروايات التى تبدو متعارضة ، وبذلك ينصرف الجهد إلى خدمة هذه الروايات نفسها وإلى التفكير فى نطاقها ، والفرض أن التفكير كان يجب أن يسير فى نطاق التفسير ، وأن الجهد يجب أن يُوَفَّر لفهم كلام الله تعالى ، لا لفهم كلام الناس فى تفسيره .

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل .

(٢) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

نعم إن مفسّر القرآن لابد أن يمُـرّ به ذلك ، وأن يزاحمه على القرآن ، وأن يحمله على المناقشة والمجادلة وتقليب الآراء ، لكننا جرّبنا كثيرا أن الانسياق فى ذلك يخرج بالمفسر المعاصر عن أسلوب عصره ، ويرده إلى الوراء فيصبح واحداً من الذين تقدم بهم الزمان فى القرون الأولى ؛ وهؤلاء من غير شك فطاحل العلم وأئمته ورُوّاده الأوّلون ، والناسُ من بعدهم عالةٌ عليهم ، ولكنّ حكم الزمان واختلاف الأحوال ، وتلون المعارف والأفكار ؛ يجب أن يكون له حساب ، ولم يحفظ الله كتابه الكريم أبدَ الدهر ، إلا لتتنافس فيه العقول أبداً ، وتتلاقى عليه أفكار المتأخرين، كما تلاقت عليه أفكار المتقدمين .

وقد وقف بعضُ العلوم عند الحدود التى تركها عليها المتقدمون ، فترى مثلا علما كعلم البلاغة ما زال واقفاً عند المقاييس التى تعتمدها شروح التلخيص ، ولا نجد محاولات لتغيير الطريقة أو الأسلوب أو الأمثلة إلا قليلا . .

وقد نجد هذا نفسه فى كتب التفسير ، فربما فتحنا عدة كتب لنقف على تفسير جملة أو آية أو تجلية معنى من المعانى ، فنجد جميع المفسرين فى هذه الكتب متفقين ـ أو يكادون ـ على كلام واحد ، وأسلوب واحد ، وسببُ هذا أن كثيرا منهم كان يُلزِمُ نفسه بكتاب قبلَه من المطوّلات ، فهذا يخرجه وسيطا ، وهذا يخرجه وجيزا ، وهذا يعنى بتلخيص بحوثه البلاغية ، وهذا يلخص أحكامه الفقهية . . . وهكذا فجاء كثير منها متشابهَ العبارات والأفكار ، وكأنها نسخ مكررة مصغرة بمقاييس مختلفة لكتاب واحد .

والواقع أن ميدان التفكير فى القرآن واسع ، وهو كميدان التصوف

والتفكير فى الله، فيجب أن يسلكه كل كفء له ، ولكن على وتيرته الخاصة، وبطابعه الخاص ، كما أن لكل متصوف طريقته وأسلوبه فى معرفة الله ، وفى التفكير فى عظمته ، واجتلاء صفات جلاله وجماله ، فقد ينكشف للمتأخر مالم ينكشف للمتقدم ، وقد يؤثر فى المعاصرين أسلوبٌ جديد فى العرض أضعافَ ما يؤثر فيهم أسلوبٌ قديم ، ومن عاش فى زمان لا بد أن يتعامل بأسلوب هذا الزمان ، وأن يحسب حساب أفكاره وأحواله ومقاصده ومراميه وآماله وآلامه ولغته وطريقة عرضه ، وما فيه من نقط ضعف ونقط قوة،وماله من نواحى استقامة ونواحى اعوجاج ، كل ذلك يجب أن يَدخل فى حساب منْ يتناولُ القلمَ ليكتب ، ومن يجلس مجلس المؤلف والموَجِّه ، ولا سيما إذا كان تأليفه وتوجيهُه عن طريق التفسير وخدمة الذكر الحكيم ، وأما الذين لا عمل لهم إلا أن يستعيدوا ما كان ، ويردِّدوا ما قيل دون تصرف فيه ، ولا تحوّل حتى عن أسلوبه وألفاظه، وجدله ونقاشه ، فليس لهم فى معترك الأقلام والأفكار الآن مجال .

* * *

٦ — وفى عصرنا الحاضر تيارات إلحــادية ، ونزعات مشككة ، ومحاولات عنيفة للتخلص من سيطرة الدين عامة ، ومن استمرار المجتمع الشرقىّ ، متّسما بطابع الإسلام خاصة ، فلذلك نرى هجوما عنيفا على أحكام الإسلام ، وتشكيكا للناس فى صلاحيتها وملاءمتها لرُوح العصر ،

ونرى من يتساءل : لماذا نرتبط بعقيدة من العقائد الدينية ، فنصيب تفكيرنا بالشَّلل ، ونُثْقل عقولنا ، ونعيش مختارين فى نطاق مضروب لا نفكر إلا فى حدوده ، ولا ندور إلا فى فلكه ؟ لماذا لا نطلق أحرارا فى هذا الكون كما خلقنا الله لا تصحبنا هذه المقررات الدينية التى لا ندرى كيف فُرِضَتْ علينا ، وكيف كُبِّلتْ بها عقولنا ، وإذا كانت دائرة العلم

والتفكير العقلى فى عهد الإنسان الأول قد ضاقت فالتمس للناس نطاق أوسع فنُقِلوا إلى الدائرة الدينية ، فإن العصر الذى أزدهر فيه العلم إلى حد تفجير الذرة ، ومحاولة الوصول إلى الكواكب الأخرى ، جدير به أن يعنى الإنسان الحاضر من مقررات الماضى ، ويطلقه من قيوده .

أصبحنا نسمع هذا ، فى الجانب الدينى ، وأصبحنا نسمع فى الجانب الخلقى من يتساءل عن مقاييس الفضيلة ، ومَنْ وَضَعَهَا ، وكيف يتحكم جيلٌ سابق فى جميع الأجيال اللاحقة له ، فيقولون لهم هذا حسن فيرونه حسنا ، وهذا قبيح فيرونه قبيحاً ، وهذا خير وهذا شر ، فيكون حكمهم هو الحكم ، وتكون مقاييسهم هى المقاييس ؟ وهل جعل الله ذلك الجيل خاصة وصيًّا على جميع الأجيال ، وحكم عليها كلها بالقصور عن مرتبته وقبول وصايته ؟ ولِمَ إذنْ بقى للإنسان عقلُه فلم ينقرضْ لعدم الحاجة إليه ؟ ولم بقى له ذوقه وشعوره وإحساسه ما دام مفروضاً عليه أن يتذوق بذوق الذين سبقوه ، ويشعر بشعورهم ، وكيف يُفترض على الناس أن يظلوا أبدا يرون تعليم المرأة خطرا ، وحجابها صوناً ، وضربها من حق الرجل ، وحرمانها من مزاولة حقوقها فى المجتمع صيانة لهذا المجتمع ، وهكذا . . . ولماذا نرى المرأة دائما بالعين المنكِرة الشاكة ، فنمنعها أن تراقص الرجل أو تخالطه أو تزامله ؟ ولماذا نعتبر ضحكها خلاعة ، وتَجَمُّلها تهتكا ، وحريتها خروجا ، وجرأتها تبجحاً وتَطَيُّر يتهَا الحديث بحكم أنوثتها إغراءً وميوعة ؟ لماذ لا ننظر إلى الأنثى كما هى وكما خلقها الله ؟ ولماذا لا نعطيها الحقَ كل الحق فى مقتضيات أنوثتها كما نعطى الرجل الحق كل الحق فى مقتضيات رجولته ؟

وأصبحنا نسمع أيضاً من يشكك فى الأسباب الطبيعية للسعادة ، ويدعو إلى التحلل والأخذ بكل الوسائل المستطاعة فى تمتيع الجسم والنفس دون

تقيد بأى قيد فما دمت قادرا على أن تأكل وتسعد بما تأكل فكل ، وما دامت سعادتك فى أن تشرب فاشرب ، وإن كان يصلحك أن تضطرب فاطرب ، وأطلق لنفسك عنانها فى الشهوات وإلا أصبتها « بالكبت » فضعف نتاجك ، وقلّ غناؤك ، وكثر عناؤك .

هذه هى الموضوعات التى يشتغل بها كثير من شبابنا المثقف فى الجامعات وفى الأندية وعلى صفحات الجرائد ، يُظهرها بعضهم غير مكترث ، ويخفيها بعضهم على استحياء ، ومنهم من يعرضها فى معرض الاستفهام وإرادة الحقيقة ، وتطبيق الأسلوب العلمى ، فيقول : أنا شاك متحير أريد أن أجد من يدلنى ويهدينى ، وفيهم من يقول : إنها حقائق جديدة تناهض الحقائق القديمة ، وإنها دعوة آمنا بها ، وندعو إليها .

ولهذا المنزع الهجومى أسرارُه وبواعثه الخفية ، وله روافده من الانخداع بالثقافات الأجنبية ، والانسياق وراء التيارات الحديثة التى تصدر عن الأوربيين بعد أن خبُّوا فى الفساد وَوضعوا ، وبعد أن أشرفت سفينتهم على الغرق ، وأصبحت مُثُلهم وقواعد سلوكهم ، وأساليب حكمهم، وبالا عليهم ، وشرا مستطيرا يحاولون الخلاصَ منه فلا يعرفون السبيل ـ فى هذا الوقت الذى تزلزلت فيه المجتمعات الغربية عن مثلها ، وأصبح فيها من ينادى بتغيير هذه المثل ، وتقويم هذه الأحكام المعوجَّة ؛ نرى من يَدْعُون بيننا لتغريب الشرق ، ويريدوننا على أن نشارك أهل السفينة الغارقة اليوم أو غدا فى ركوب سفينتهم والغرق معهم !

لذلك يجمل بمن يهتمون بالدراسات الإسلامية ـ والقرآنية منها على وجه خاصّ ـ أن يحسنوا عرض بضاعتهم ، وأن يُجلّوها للناس فى صورة تلائم عظمتها الحقيقية ، وألا يفسدوا هذه الصورة بالأصباغ الملوّنة ، والمساحيق

المجتلبة ، فإن جمالها ربّانى ، وإن الأصباغ تشوّهها ، وتوهم بأنها تدارى قبحا ، وتخفى دَمامة ، وتعالج نقصا .

إن الإسلام هو القانون الطبيعى للحياة ، وإن مناهجه النظرية والعملية هى التى تحل مشكلات المجتمع ، وتصون أفراده من الوقوع فى حمأة الرذيلة ، وفى ظلمات الشك والحيرة ، ولكنْ على شريطة أن يُجَلى للناس صافيا كما أنزله الله ، بريئاً من التزمت والتحلل كليهما كما أراده الله .

* * *

٧ ــ أما بعدُ ، فهأنذا أقدم لعشاق الصور الطبيعية الصادقة الذين لايحبون الخداع ، ولا يُؤْخذون عن الجمال بالتجميل - أقدم لهم هذه الصورة الطبيعية للمجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء .

« وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلتُ . وإليه أنيب » .

القاهرة فى { ربيع الأول سنة ١٣٧٧ هـ
اكتوبر سنة ١٩٥٧ م }

محمد محمود حجازى

تمهيد

١
سورة النساء وترتيب القرآن

١ — « سورة النساء » هى السورة الرابعة فى ترتيب المصحف ، أما فى ترتيب النزول فأصح ما ذكر أنها سادسة السور التى نزلت بالمدينة .

فأول ما نزل بالمدينة : سورة « البقرة » ، ثم سورة « الأنفال » ، ثم سورة « آل عمران » ، ثم سورة « الأحزاب » ، ثم سورة « الممتحنة » ، ثم سورة « النساء » هذه .

وهناك روايات أخرى فى ترتيب النزول غير ذلك .

وقد يقال : لمَ قُدِّمَتْ « البقرةُ » ، و « آل عمران » ، وغيرهما فى ترتيب المصحف وقد نزل قبلهما سور كثيرة مكيّة ؟ أو بعبارة أخرى : لمَ لمْ يُرَتَّب القرآن بحسب نزوله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ .

والواقع أن الصحابة رضى الله عنهم لم يتفقوا على قول واحد فى ترتيب سور القرآن ، والذين كتبوا مصاحف خاصة قبل توحيد عثمان رضى الله عنه للمصحف ، كانت مصاحفهم على اختلاف شديد فى ذلك .

والسبب فى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يُرْوَ عنه أنه اتجه إلى تنظيم القرآن بترتيب نزوله ، وإنما روى عنه خلاف ذلك ، فكانت السورة تنزل فى أمر يحدث ، والآية تنزل جوابا لمستخبر يَسْأل ، ويوقف جبريل رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم على موضع السورة والآية ، فكان يقول : ضعوا هذه الآية فى موضع كذا من السورة التى يُذكر فيها كذا ، وضعوا هذه السورة موضع كذا من القرآن ، وقد صح أن جبريل كان يراجعه بالقرآن فى شهر رمضان من كل عام ، وأنه فى آخر عام راجعه به مرتين .

فالذى كان من الصحابة من كتابة مصاحفهم المختلفة فى الترتيب عن المصحف العثمانى ، إنما كان قبل العرض الأخير ، أما مصحف عثمان رضى الله عنه فقد كتب بعد المراجعة على ما كتب فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وكانت صحفه عند حفصة ، والذى كتب فى عهد أبى بكر كان مراجَعا على ما حُفظ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكتوبا ، وما حفظ فى صدور القراء من الصحابة رضوان الله عليهم .

٢ — وقد انعقد الإجماع على هذا الترتيب العثمانى المتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى ذلك يقول القرطبى :

« فاتّساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام ، عن رب العالمين ، فمن أخر سورةً مقدَّمة ، أو قدم أخرى مؤخرةً ، فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغيَّر الحروف والكلمات » (١)

ولعل الحكمة فى العدول عن كتابة القرآن على ترتيب نزوله إلى كتابته على هذا الترتيب المعروف : أن القرآن فى عهد الرسول كان ينزل منجماً

---

(١) ص ٦٠ من الجزء الأول من تفسير القرطبى طبع دار الكتب المصرية .

على حسب الحوادث التى كانت تقع ، ولغرض بينه الله تعالى وهو مؤازرة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيت فؤاده : « وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » [1] أما وقد كمل القرآن ، وانقضى الغرض الذى كان يُقصد إليه من تنجيمه وملاحظة الحوادث والأسئلة ونحوها فيما كان ينزل منه ، فلو أنه جمع على حسب ترتيب نزوله لفهم بعض الناس أن آياته خاصة بحوادثها ، أو أنه حلول وقتيه للمشكلات التى كانت على عهد الرسول فحسب . والله تعالى يريد كتابه عاما خالدا ، لا يختص بعصر دون عصر ، ولا بقوم دون قوم . لذلك قضت الحكمة بأن يرتب ترتيباً يحقق هذا العموم ، وهذا الخلود ، ويبتعد عن الترتيب الزمنى الذى نزل به لحكمة كانت مناسبة حين نزوله .

ثم إن القرآن كله من أمر الله تعالى نزولا وتفصيلا وترتيباً ، وقد بلّغه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أمره الله تعالى ، ولو كان لله تعالى أمر يخالف ذلك ، لبلّغه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولما فات أصحابه أو أجمعوا على كتمانه ، فيكفينا أن نعلم ذلك ، وأن نلتزم هذا التوقيف من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن نحتفظ بقدسية المصحف فلا نحاول أن نبدّل فى ترتيبه ، تلبية للذين يدعون إلى ذلك دون إدراك لما فيه من الخطورة ، ومن الخروج على أمر بينه الرسول ، وأجمع عليه أصحابه ، وتواتر فى المسلمين بعد ذلك جيلا عن جيل ، تحقيقاً لوعد الله جل شأنه حيث يقول « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » .

---

(١) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة الفرقان .

٣ ـ ولكن هذا لا يمنع الباحثين من أن يسترشدوا بتاريخ النزول، وأسباب النزول، توصلا إلى ما يفيد الحقيقة فى مختلف بحوثهم، فإن فى معرفة هذا علماً كثيراً، وفوائدَ جمة، وكشفاً عن كثير من الأسرار التشريعية والاجتماعية والتاريخية، وتوجيها إلى الربط بين ذلك وما يستمد من القرآن الكريم من عبر، ولذلك عُنى العلماء بتسجيل ما يُروى من أسباب النزول وترتيبه عناية فائقة، لا ليحاول المسلمون تغيير الترتيب المصحفى، أو الوقوف بالأحكام والمعانى عند الحوادث التى نزلت فيها الآيات، ولكنْ ليستعينوا بذلك ويعينوا على فهم الكتاب الكريم، وتيسير هدايته للآخرين الذين لم يسمعوه إلا نقلاً، كما تيسرت للأولين الذين سمعوه عن مشافهة. وشهدوا حوادث نزوله عن عيان.

٤ ـ وعلى هذا المبدأ وجدنا مما يفيدنا فى بحثنا عن سورة النساء أن نعرف البيئة المعنوية التى نزلت فيها ـ ونـعْنى بالبيئة المعنوية ما كان يشغل القرآنَ والمسلمين فى وقت نزولها من المسائل والأحكام ـ حتى ندرك الرابطة بين موضوعاتها وموضوعات البيئة التى نزلت فيها، أو بين مشكلات المجتمع الإسلامى، وما كانت تَطِبُّه له (١) بأحكامها ومبادئها وتوجيهاتها.

وهذه البيئة المعنوية يدلنا عليها مانزل من القرآن بين يدى هذه السورة، لذلك قلنا فى أول هذه المقدمة: إن سورة النساء سادسةُ السور التى نزلتْ بالمدينة، وذكرنا السور السابقة عليها فى أصح الروايات.

٥ ـ فاذا نظرنا إلى سورة «الممتحنة» التى نزلت قبلها مباشرة

---

(١) طب الرجل طباً ـ بفتح الطاء: تأتى الأمور وتلطف، ومنه المثل «من حب طب» ويقال «اصنعه صنعة من طب لمن حب» أى صنعة حاذق لإنسان يحبه.

على حسب هذه الرواية ؛ وجدنا آياتها الثلاث عشرة تدور حول موضوعين بخصوصهما ، وهما : نهى المؤمنين عن أن يتخذوا أولياء من أعداء الله يلقون إليهم بالمودة ، ثم الأمر بامتحان المؤمنات إذا جئن إلى المدينة مهاجرات ليُعْلم هل خرجن حباً لله ورسوله أو خرجن من بغض على زوج ، أو كراهية فى أرض دون أرض ، وليُرتَّب على هذا العلم بعد الامتحان والاختبار البَتُّ فى قبولهن بالمدينة مهاجرات ، أو ردهن إلى أزواجهن ، وفى حالة الرد كيف يكون نظام هذا الرد وما شروطه ، وهل يُرْبَط بين هؤلاء اللواتى جئن إلى المدينة مهاجرات ، واللواتى خرجن منها إلى مكة من زوجات المسلمين هاربات .

هذان الموضوعان ـ مع بعض المعانى المتصلة بهما ، والتى تتخلل آيات السورة على سنة القرآن وأسلوبه — هما الموضوعان اللذان اهتمت بهما سورة « الممتحنة » ، وإذن : كان المجتمع الإسلامى مهتما قبيل نزول سورة « النساء » بهذين الموضوعين فيما كان يهتم به .

وقد اهتمت سورة « النساء » فيما اهتمت به من الشئون الاجتماعية ، بقضية اتخاذ الكافرين أولياء ، وبفروعها التى تمُتُّ إليها بصلة ، وهى بيان أوصاف المنافقين واليهود — الذين كانت تجمعهم والمؤمنين جامعةُ التوطن فى المدينة — والتحذيرُ منهم .

ثم هى قد اهتمت أيضاً بناحية أخرى من شئون النساء ، وإن لم تكن هى الناحية التى اهتمت بها سورة الممتحنة ، فبينت كثيراً من أحكام الزوجية وحقوق الزوجات على أزواجهن ، والأزواج على زوجاتهم .

وبذلك يبدو التناسق المعنوى بين سورة « النساء » وسورة « الممتحنة » فى هذين الجانبين .

٦ — وإذا طبقنا هذه النظرة على سورة « الأحزاب » أيضاً ، وهى السورة السابقة على سورة « الممتحنة » مباشرة فى النزول ؛ وجدنا آياتها الثلاث والسبعين كلها تدور فى دائرة أكثر الموضوعات التى عرضت لها سورة النساء .

فهى تتحدث عن بعض نواحى الأسرة وأولى الأرحام ، وتبطل حكم التبنى الذى كان معروفا فى الجاهلية ، وتتحدث عن زوجات الرسول وما ينبغى أن يكنّ عليه من الأدب الرفيع ليكنّ أسوة حسنة للمؤمنات ، وعن تساوى المسلمين والمسلمات فيما أعده الله من مغفرة وأجر عظيم ، إيحاءً بأن الجميع على حد سواء فى نظر الإسلام ، وتتحدث فى ذلك أيضاً عن تساوى المؤمن والمؤمنة فى وجوب الخضوع لما يقضى به الله ورسوله ، ثم تتحدث عن حادثة من الحوادث الخاصة بالرسول وهى زواجه من مطلقه متبناه ، تشريعاً للحكم الإسلامى فى ذلك ، وعما لابس هذا الأمر من تصرف للنبى صلى الله عليه وسلم ، أخذ فيه بما يعد من اللوم والتثريب ، كما أخذ بمثل ذلك فى « حادثة اليهودى وطعمة » التى سنذكرها فى سورة النســاء .

وتتحدث عن غير ذلك من الشئون الخاصة ، والعامة وفيها كثير من أحكام النساء والأسر والبيوت .

وتتحدث عن القتال وما كان يوم الأحزاب ، وعن المنافقين وأرجافهم فى المدينة . . الخ .

وهذا كله ينبىء عن البيئة المعنوية التى كان عليها المجتمع الإسلامى فى المدينة قبيل نزول سورة النساء ، ويجعلنا نلمح الشبه الكبير بين ما تناولته سورتا « النساء » و « الأحزاب » من موضوعات .

وهكذا نستطيع أن نسير بالموازنة على هذا النحو فيما نزل قبل ذلك من السور الخمس السابقة على سورة النساء ، فنجد كثيراً من ألوان المشابهة فى الدائرة العامة ، وإن اختصت كل سورة من هذه السور بناحية أو نواح خاصة بدت عنايتها بها أكثر من غيرها .

بل إننا لنجد عناصر هذه الموازنة قائمة أيضاً فيما نزل بعد سورة « النساء » كما هى قائمة فيما نزل قبلها ، فذلك هو الطابع العـــام لما نزل من القرآن بعد الهجرة .

٢
تحقيق أن هذه السورة مدنية

١ — قلنا فى المقدمة السابقة إن سورة النساء مدنية ، أى نزلت بعد هجرة النبى صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين من مكة إلى المدينة .

ومما يدل على ذلك :

أولا : ما رواه البخارى فى صحيحه عن عائشة أنها قالت : ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن المعروف أن رسول الله بنى بعائشة فى المدينة .

ثانياً : أنها تتضمن أحكاما تفصيلية كثيرة منها أحكام النساء ، واليتامى ، والأموال ، والمواريث ، والقتال ، وتتحدث عن أهل الكتاب ، وعن المنافقين ، وعن الهجرة ، وغير ذلك مما هو من شئون المسلمين فى المدينة ، ومما هو تفصيل للأحكام الشخصية والمدنية ، لا مجرد تقرير لكليات الدين وأهدافه الأولى من التوحيد والبعث والمحاجة فى الرسالة والوحى ، ونحو ذلك من الشئون التى كان القرآن ينزل فيها غالباً فى مكة .

٢ — هذا بعض ما يستدل به على أن السورة مدنية ، ومع هذا وجد من الروايات ما يخالف ذلك :

* فقيل إن هذه السورة كلها مكية .

* وقيل إنها كلها مدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح وهى قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا » (١)

ولكن التحقيق أن هذا وذاك وهم واشتباه ، والسبب فيهما ماجاء فى بعض الروايات من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال « لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دعا عثمان بن طلحة — وكان هو الذى يحمل مفتاح الكعبة ويقوم بخدمتها — فلما أتاه قال : أرنى المفتاح — أى مفتاح الكعبة — فلما بسط يده إليه قام العباس فقال : يارسول الله بأبى أنت وأمى ، اجمعه لى مع السقاية — والسقاية أى الإشراف على سَقى الحجاج كانت أيضا وظيفة من الوظائف عندهم ، وكانت مسندة إلى العباس بن عبد المطلب، فأراد العباس أن يجمع له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وظيفة « القيام على خدمة الكعبة » مع وظيفة « السقاية » — فكفّ عثمان يده — أى تراجع عن تسليمه صلى الله عليه وآله وسلم المفتاح لما رأى تطلع العباس إلى أخذه — فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هات المفتاح ياعثمان ، فقال : هاك أمانة الله . فقام ففتح الكعبة ، ثم قال « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » حتى فرغ من الآية » .

وأخرج شعبة فى تفسيره عن حجاج عن ابن جريج قال « نزلت هذه الآية فى عثمان ابن طلحة ، أخذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة ، فدخل به البيت يوم الفتح ، فخرج وهو يتلو هذه الآية ، فدعا

---

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء .

عثمانَ فناوله المفتاح ، قال وقال عمر بن الخطاب : ما سمعته يتلوها قبل ذلك ، قلت : ظاهر هذا أنها نزلت فى جوف الكعبة ،

وفى تفسير القرطبى : قال ابن جريج وغيره : ذلك خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة فى أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان ابن طلحة بن أبى طلحة الحَجَبى العَبْدَرِىّ — من بنى عبد الدار — ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ، وكانا كافرين وقت فتح مكة ، فطلبه العباس بن عبد المطلب لتنضاف له السّدَانة — وظيفة القائم على خدمة الكعبة — إلى السقاية ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان ، وأخرج مقام إبراهيم ، ونزل عليه جبريل بهذه الآية ، قال عمر بن الخطاب : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية ، وما كنت سمعتها قبلُ منه ، فدعا عثمان وشيبة فقال : « خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم » وحكى مكىّ . أن شيبة أراد ألا يدفع المفتاح ، ثم دفعهُ وقال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم : خذه بأمانة الله »[1] .

* * *

٣ — هذه هى القصة التى سببت الاشتباه فى أن هذه الآية دون آيات السورة كلها مكية ، كما يقول بعضهم ، والتى أوهمت أن السورة كلها مكية ، كما يقول آخرون .

والمشتغلون بعلوم القرآن يعرفون :

١ً — أن المكىّ من القرآن هو مانزل قبل الهجرة ، والمدنى مانزل بعد الهجرة سواء نزل فى المدينة نفسها او فى موضع من المواضع التى كان فيها النبى صلى الله عليه وآله وسلم غازيا أومسافراً بعد الهجرة ، حتى الذى نزل

---

(١) تفسير القرطبى ص ٢٥٦ ج٥ .

من القرآن بمكة يوم الفتح أو بعده يعد مدنيا بهذا الاصطلاح ، وإذن فلو سلمنا صحة الروايات التي ذكرت هذه القصة لما منعنا ذلك من أن نقرر أن هذه الآية « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » مدنية ،

٢ً — أن بعض الرواة أحيانا يتوهمون من تلاوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لآية أو آيات في حادثة يشاهدونها أن هذه الآية أو الآيات نزلت في ذلك الوقت ، وفي هذه الحادثة بالذات ، بينما يكون غرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تلاوتها الاستشهاد بها على حكمه في هذه الحادثة .

وإذن فمن الجائز أن تكون هذه الآية نزلت من قبل ، وأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تلاها ليشعر العباس الذي تطلع إلى أخذ المفتاح ، وعثمان الذي توجس خيفة من ذلك ، بأنه سيرد الأمانة إلى صاحبها وهو عثمان بن طلحة نزولا على المبدأ العام المقرر في قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »

٣ً — وما ورد في هذه الروايات من أن عمر رضي الله عنه قال : ما سمعته يتلوها قبل ذلك ، لا يصرفنا عن ذلك ، فإن عمر وغير عمر من الصحابة قد يتصادف أنهم لم يسمعوا آية من قبل ، وقد يحدث أنهم ينسون آية أو يذهلون عنها بعد سماعها ، وقد حدث لعمر نفسه مثل ذلك ، فقد ذهل يوم موت النبي صلى الله عليه وسلم عما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » حتى قرأها أبو بكر فقال عمر بعد أن ثاب إلى رشده : كأني والله لم أسمعها قبل اليوم .

٤ً — على أن هناك بحثاً في صحة هذه القصة ، من جهة الرواية

ومن جهة المعنى لا نريد الإطالة بذكره ، ومن أراد أن يستقصى أمره فليطلبه من كتب التفسير المطلوبة [١] .

والخلاصة : أن هذه السورة كلها مدنية ، وأنه لا عبرة بما يخالف ذلك من الروايات ، وأنها لذلك جاءت على نسق ما نزل من القرآن بالمدينة من تناول الأحكام التفصيلية التى تتعلق بشئون المجتمع الإسلامى بعد أن تكوّن بالمدينة ، وبعد أن صار للمسلمين دولة تحتاج إلى أن توضع لها نظم داخلية وخارجية ، وسنبين ذلك فيما يأتى إن شاء الله .

٣
اسم السورة وعناية القرآن بالنساء

سميت هذه السورة بسورة « النساء » وقد يطلق عليها « سورة النساء الكبرى » أو « سورة النساء الطُّولَى » تمييزاً لهـا عن سورة أخرى من سور القرآن الكريم هى سورة « الطلاق » التى يروى أنها تسمى أيضاً « سورة النساء القُصْرى » ، وكذلك سماها ابن سعود ، أخرجه البخارى وغيره [٢] .

وفى القرآن الكريم سور أخرى عرضت لشئون النساء كما عرضت لها هاتان السورتان ، منها : سورة البقرة ، وسورة المائدة ، وسورة النور ، وسورة الأحزاب ، وسورة المجادلة ، وسورة الممتحنة ، وسورة التحريم ، ولكل من هذه السور جانب أو جوانب عالجتها .

وتلك عناية واضحة من القرآن الكريم بشأن المرأة ، واهتمام

---

(١) مثل تفسير المنار ج ٥ ص ١٦٩ وتفسير القرطبى ج ٥ ص ١ فى أول كلامه عن هذه السورة .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن ص ٦٩ ج ١ طبع المطبعة الموسوية المصرية فى سنة ١٢٧٨ هـ

باستقصاء أعظم أحوالها فى مختلف أطوارها ، وفى جوانب حياتها ، وحرص على حمايتها وبيان حقوقها على الرجل ، وحقوق الرجل عليها ، ويزيد فى أمر هذه العناية وهذا الاهتمام أن حكمة الله تعالى قضت بأن تسجّل هذه الأحكام على وجه فيه كثير من التفصيل والبيان فى القرآن الكريم ، وألا يُكتفى بتقريرها وتفصيلها فى السنة ، فإن القرآن عادة هو الذى يتكفل بما هو من قبيل الأصول الكلية وما يلتحق بها من الشئون التى يجب أن تكون حاضرة فى الناس متلوّة يذكرونها دائماً ولا ينسَونها ولا يتفاوتون فى درجة ثبوتها ، فتبقى لديهم جميعاً متواترة قاطعـــة .

على أن السنة المطهرة لم تدَعْ شئون النساء دون أن تبرز اهتمامها العظيم أيضاً بها ، فهناك عشرات ، بل مئات ، من الأحاديث الصحيحة التى تفصّل هذه الشئون ، وتبين حكم الله فيها ، وحسبنا فى معرفة هذه العناية النبوية ، بجانب العناية الإلهية ، أن نذكر أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، نوّه بشأن النساء فى خطبته المشهورة التى عرفت « بخطبة الوداع » لأنها كانت فى العام الذى انتقل بعده إلى الرفيق الأعلى ، ولم يعشْ بعدها إلا إحدى وثمانين ليلة ، كما هو معروف فى السيرة المطهرة .

إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يتناول فى خطبته هذه إلا المبادىء العليا ، والأحكام الكبرى ، على نحو من الإجمال ، وفى صورة التوصية والتبليغ والإشهاد ، كما يفعل كل من يحس بدنوّ أجله ، فإنه حينئذ يهتم بالتوصية بأعز ما يحبه ، وبأجل ما يجله ، وفى هذه الخطبة يقول صلوات الله وسلامه عليه : « أيها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقا ، وإن لكم عليهن حقا : لكم عليهن ألا يُوطئن فُرُشكم غيركم ،

ولا يُدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضُلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غيرَ مبرّح ، فإن انتهين وأطعنكم . فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عَوَانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، « واستحللتموهن » بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا . . . . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد » .

٤
عرض إجمالى لما تضمنته السورة

عرفنا أن سورة « النساء » مدنية ، وأن من الأدلة التى استدل بها العلماء على ذلك ، أن هذه السورة تحدثت عن شئون كانت فى المدينة لا فى مكة .

والواقع أن هذه السورة الكريمة تتجلى فيها كل الخصائص التى اختصت بها السور المدنية ، ويهمنا الآن من هذه الخصائص أنها تضمنت كثيراً مما يتعلق بتنظيم جماعة المسلمين فى داخل بلادهم ، وفى علاقاتهم الاجتماعية بعضهم مع بعض ، وفى وضع أسس الحكم الصالح الذى يجب أن تقوم عليه دولتهم ، وفى وجوب الحذر من الذين يريدون أن يزلزلوا عليهم هذه الدولة إما عن طريق تشكيكهم فى مبادئ الدين ومثله وتشريعاته ، وإما عن طريق القوة المادية وإثارة الحرب بنوعيها اللذين عرفناهما فى زماننا الحاضر بالحرب الحامية ، والحرب الباردة .

ويمكننا هنا أن نعرض ما تضمنته السورة عرضا عاما ، ثم نعود فنتبع هذه العرض بذكر النقط الإجمالية التى تتركز حولها أهداف السورة .

وسيظهر من هذا وذاك أن السورة تتناول المجتمع الإسلامى وترسم له

الخطوط المكونة لصورته ، والمميزة لملامحه وقسماته على الوجه الذى يسعده ويدرأ عنه غوائل الشر ، وعوامل الفساد :

١ — تبدأ السورة بتقرير المبدأ الأول الذى يجب أن تقوم عليه المجتمعات أيا كانت ، وهو أن الناس جميعا متساوون فى الخلق من نفس واحدة خلقها الله تعالى ، وخلق منها زوجها ، وأنهم انبثوا جميعا من هذين الزوجين ، لا فرق بين رجل وامرأة فى هذه النسبة وفى هذه الأصالة ، ولا فرق بين مُشرِّق ومُغرِّب ، ولا بين أبيض وأسود وأحمر ، وكلهم على البعد والقرب يشتركون بالنسبة إلى الله تعالى فى أنه خالقهم وربهم ، وبالنسبة إلى أصلهم الأول فى أنهم أولو أرحام .

ذلك هو المبدأ الأول الذى تقرره الآية الأولى فى السورة :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » .

ولا يمكن أن يسعد مجتمع إلا إذا تقرر فيه هذا المبدأ ، واعتنقه أهله كعقيدة مقدسة لا يمكن التنازل عنها ، أو التفريط فيها ، وكل مجتمع يقوم على العنصرية الجنسية ، أو القبلية ، أو الطائفية ، أو على اعتبار اللون ، أو الصنف ؛ لا بد أن يشقى وأن يضطرب عليه أمره ، وأن يُعوَّق عن بلوغ غاياته ، وإصابة أهدافه .

٢ — وبعد أن قررت السورة هذا المبدأ الأول ، ونادت به الناس جميعاً فى أول آية منها ، أخذت تتحدث عن العناصر واللبنات المكوِّنة لبناء المجتمع ، وبدأت فى ذلك بأضعف هذه العناصر ، وأحوج هذه اللبنات إلى الرعاية والتقوية ، وهم : اليتامى ، والسفهاء ، والنساء ، فقد جرت عادة

المجتمعات على أن تخيفها مظاهر القوة ، فتؤثر فيها تأثيرا يعتمد المحاذرة والخوف ، فلا يكاد يوجد فيها من يجترىء على قوى فيهضمه أو يظلمه أو يتنكر لحقه ، وعلى العكس من ذلك يكون موقفها من الضعفاء فنجد كثيراً من الناس يغريه ضعف الضعيف على اقتحام حماه ، واهتضام حقه ، فلما كانت هذه سُنَّةَ البشر ، وما جرت به عادتهم فى مجتمعاتهم بحسب طبائعهم ، وكان أضعف من فى المجتمع هم هؤلاء الثلاثة : اليتيم لصغره وفقده مَنْ يدافع عنه ويحميه ، والسفيه لضعف عقله واختلال تصرفه وكثرة الفرص التى تتهيأ لمن يريد انتهابه واغتصابه ، والمرأة التى تكون عادة تحت ولاية أبيها أو قوامة زوجها ، والتى لم تخلق على هيئة تجعلها مهيبة الجانب ، مَخْشِيَّة البأس ؛ لما كان الأمر كذلك فى سنة المجتمع البشرى ، وفى شأن هؤلاء الأعضاء الضعفاء فيه ؛ كان من الحكمة أن تهتم السورة بعد تقرير مبدأ المساواة بين الناس بوضع الأحكام التى فيها حماية لهؤلاء الضعفاء باعتبارهم لبنات فى بناء المجتمع ، وعناصر منها ومن غيرها يتكون ، وعلى صلاحها وصلاح غيرها تقوم أسس الصلاح والاستقامة فيه ، وذلك هو ما أخذت السورة فى تقريره من أول آيتها الثانية :

« وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حُوباً كبيراً » إلى آخر الآية العاشرة : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

٣ — بعد ذلك اهتمت السورة بتشريع واضح مفصل فى شأن هام من شئون المجتمع هو « نظام المواريث » ، ولا يخفى أن هذا الشأن له دخل كبير فى استقرار الأمور واستقامة العلائق بين أفراد الأسر على نحو يقطع النزاع ، ويحسم أسباب الخلاف فى أمر طبيعى متكرر كهذا ، فإنه لا بد أن يكون هناك من يموت ، ويترك مالا ، ويكون له أقارب يرثونه

على درجات مختلفة من الصلة به : هذه صلة أبوة أو أمومة ، وهذه صلة أخوة أو قرابة ، وهذه صلة صهر ، فلو تُرك هذا الأمر فوضى لكان مثاراً لنزاع كبير يتكرر فى الأسرة الواحدة بين الحين والحين ، وإذا اضطرب نظام الأسر اضطرب المجتمع كله لاضطرابه ، فكان من الحكمة إذن أن تهتم السورة التى عنيت بدراسة شئون المجتمع والتشريع له ، بوضع نظام تفصيلى كامل للمواريث ، يتبيّن فيه نصيب كل وارث ، وينحسم به النزاع والشر ، وفى ذلك جاءت الآيات الكريمة من أول قوله تعالى « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » إلى قوله تعالى « ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » [1] .

٤ — عرضت السورة بعد ذلك لجريمتين من الجرائم الخلقية من شأنهما أن تفسدا المجتمع إفساداً شديداً ، وأن تسلبا من أعضائه رجالا ونساء ما لكل منهما من خصائص ، وذلك ما جاء فى قوله تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، إن الله كان تواباً رحيما » [2] .

وفى هاتين الآيتين كلام طويل ، واختلاف فى وجوه النظر لدى المفسرين من جهة المقصود من « الفاحشة » ، ومن « اللاتى يأتين » ومن « اللذان يأتيانها » ومن جهة العقوبة المقررة فى هذا الشأن ، وهل نسخ

---

(١) الآيات من ١١ إلى ١٤ من سورة النساء .
(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة النساء .

حكم ذلك أو لم ينسخ ، وليس هذا العرض الإجمالى هو الظرفَ المناسبَ لبيان ذلك كله .

٥ — ثم بين بعد ذلك شأنٌ عظيم له اتصال بالمجتمع نفسى توجيهى إصلاحى ، ذلك هو « التوبة » : ممن تقبل ، ومتى تقبل .

وأمر التوبة ، وإن كان يبدو أنه أمر روحى خاص بين العبد وربه ، لكنه ذو تأثير معنوى فى الأفراد يتأثر به المجتمع ، فالفرد لا يخلو من أن يقع فى بعض الذنوب ، ومن أن يساوره اليأس حيناً من الغفران ، والطمع حيناً فى جانب العفو ، وليس هذا وذاك مما تستقر عليه النفوس ، وتهدأ به الحياة ، وإذا استولى القلق النفسى على الأفراد فى مجتمع ما ، فاستولى عليهم الخوف المسرف واليأس المسرف أو الطمع المسرف ، فإن المجتمع يصيبه من ذلك نوع من الشلل أو الخلل ، لذلك كان من الحكمة أن يُبَيَّن هذا الشأن الاجتماعى ، ويُحدَّد موقفُ الإسلام منه ، ليعرف كل فرد من أفراد المجتمع أين موضعه من حساب الضمير ، ومن التماس العفو والحصول على التطهير ، ولهذا جاء البيان عن ذلك فى آيتين تاليتين لآيتى الفاحشة السابقتين ، وهما قوله تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليمـاً »[1] .

٦ — بعد هذا عرضت السورة لبعض أحكام الأسرة ، ونظمت بعض العلائق بين الأزواج والزوجات فيها ، كما بينت المحرمات فى النكاح

(١) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة النساء .

من جهات : النسب ، والصهر ، والرضاعة ، والجمع ، وبثت فى أثناء ذلك بعض المبادىء والوصايا وما يكون أصولا فى باب التشريع الاجتماعى . وجاء ذلك كله على نوع من البسط والتفصيل فى الآيات من ١٩ إلى ٣٥ أى من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » إلى قوله عز وجل « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إنّ الله كان عليما خبيراً » .

٧ — ثم عرضت السورة فى ربع كامل إلى الأسس التى أقامت عليها أول مجتمع إسلامى تحت ظلال الدولة الإسلامية ، فوضعت له أسس الإيمان والخلق والتعاون الجماعى ، وحذرته من مفسدات الأمم وما يطيح بها ، ويفضى إلى هلاكها - من أخلاق الشُّح والكبر والرياء والنزول على مشورة دعاة السوء والكفر - كما حذرته من الذين يعيشون فى ظلاله من اليهود الذين جرت عادة بعضهم أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويلووا ألسنتهم طعناً فى الدين ، وأشارت إلى بعض أخلاقهم وإلى بعض الحوادث فى تاريخهم ، ثم انتهت إلى الموازنة بين جزائهم فى الآخرة ، حين يَصْلَوْن النار ، كلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، وجزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات فى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار .

جاء ذلك كله فى اثنتين وعشرين آية تبدأ من قوله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنْب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » [١] وتنتهى عند

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النساء

قوله جل شأنه « والذين امنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » [١] .

وسنعود إن شاء الله تعالى بعد هذا العرض السريع فنقف عند كثير من هذه المواضع لاستجلاء عظمتها التشريعية ، وإدراك مدى إصلاحها فى جوانب المجتمع .

٨ — ثم وضعت السورة أساس الحكم الإسلامى ، فبينت أن ذلك يقوم على أمرين عظيمين هما أداء الأمانات إلى أهلها ، والعدل بين الناس .

وسنعرف فيما بعد كيف يستغرق هذان الأصلان جميع العناصر التى يتكون منها حكم سليم يسعد المجتمع فى ظلاله .

وبينت طريق الوصول إلى معرفة ما هو خير وصلاح وعدل وأمانة ، فأجملت ذلك فى :

* طاعة الله ، التى هى الرجوع إليه جل شأنه ، والخضوع لحكمه .

* وطاعة الرسول التى هى تقبل حكمه واتباع سنته والتسليم له دون إحساس بأى حرج فى الصدور ، أو تكلف فى الاتباع والقبول .

* وطاعة أولى الأمر ، وهم أصحاب الحل والعقد فى الأمة الذين يجتهدون فى تعرف مصالحها ، واستنباط أحكام الله فى مختلف شئونها وأحوالها .

كما بينت أن الإيمان بالله. يتنافى مع الإيمان بالطاغوت وهو كل ما سوى الله ممن يأمر ، أو مما يأمر ، بما نهى الله عنه ، أو ينهى عما أمر الله

---

(١) الآية ٥٧ من سورة النساء

به ، وأن الرسول ما أرسل إلا ليطاع بإذن الله ، وأن ذلك أساس من أسس الإيمان من خرج عنه لم يُقبَلْ إيمانه ، ومن تمسك به « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

وقد جاء ذلك فى الآيات من ٥٨ إلى ٧٠ — أى من قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » إلى قوله عز شأنه « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

٩ — ثم بدأت السورة بعد ذلك تتجه إلى جانب المحافظة على هذا المجتمع الإسلامى وتحذيره من كيد أعدائه المتربصين به ، والذين لا يفتأون يدبرون له الفتن ، ويحيكون له الدسائس والمؤامرات ، فأمرت المؤمنين بأن يأخذوا حِذرهم من أعدائهم الخارجيين ومن أذناب هؤلاء الأعداء فى الداخل ، وأمرت بالقتال فى سبيل الله ، وبينت أسبابه ودوافعه عند المؤمنين ، وعند الكافرين ، وعرضت ـ فى أثناء التشجيع على القتال ، والتثبيت أمام الدواعى النفسية للنكوص عنه ، ورد شبه المرجفين ـ إلى الحديث عن القضاء والقدر وما لا بد منه من نهاية محتومة للإنسان ، واستمرت فى بيان هذه الأحكام وما يتصل بها على نحو من التفصيل والبيان والتحذير والتعليم والإرشاد والتوجيه ، واستغرق ذلك كله أربعاً وثلاثين آية تبدأ من قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثُبات أو انفروا جميعاً » — وهى الآية الحادية والسبعون — إلى قوله تعالى « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » — وهى الآية الرابعة بعد المائة .

١٠ — وجاءت بعد ذلك إحدى عشرة آية بمناسبة حادث كان بين خصمين أحدهما مسلم ، والآخر يهودى ، وقد عُرضت قضيته على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصُوِّر له الأمرُ فيها تصويراً مخالفاً للحقيقة ، فحسَّن ظنه بالذين صوّروه له ، اعتداداً بإسلامهم ومظهرهم ، وكانوا فى الحقيقة من المنافقين الخائنين وإن تظاهروا بالإسلام ، فمال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى تصديقهم ، والحكم على اليهودى ، ثم أطلعه الله على حقيقة الأمر ، ورسم له ولكل حاكم وقاض خطة العدل والحياد والتخلص من العاطفة حين القضاء والفصل ، واتخذ من هذه الحادثة عبرة وجه إليها رسوله والمؤمنين توجيها قويا ، فيه تأديب وفيه ما يشبه التأنيب ، ثم بين للمجتمع بهذه المناسبة أن التناجى والتآمر لا خير فى كثير منه ، إذ هو إنما يحدث عادة فى السر والخفاء ، وما يحدث فى السر والخفاء كثيراً ما يكون شرا وفسادا وضررا ، وإلا لما أخفاه أصحابه وأسروا أمرهم فيه ، وقد استثنى من هذا مَنْ أمرَ بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، وجاء فى ختام ذلك بيان أن مشاقة الرسول وعدم الرضى بحكمه بعد تبين الحق ، أمر سيء العواقب فى الدنيا والآخرة ، وهو خروج عن سبيل المؤمنين .

وهذا كله فى الآيات التى تبدأ من قوله تعالى « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » إلى قوله عز وجل « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولى ونُصْلِه جهنمَ وساءت مصيرا »[1] .

١١ — ثم عرضت السورة للشرك وأوهام المشركين وإضلال الشيطان لهم ، وعاقبتهم من الخسران المبين ، وعذاب الجحيم ، ووازنت فى هذا

(١) الآيات من ١٠٥ إلى ١١٥ من سورة النساء

الجزاء ، وتلك العاقبة ، بينهم وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات .

وذلك لأنها تريد أن تقطع من هذا المجتمع الجديد كل عرق يمت إلى الشرك بسبب أو نسب ، وتريد أن تنزع منه كل هاجس من هواجس الإضلال فيه ، وكل وهم من الأوهام الموروثة التى كان لهذا المجتمع أو لأفراد هذا المجتمع عهد بها من قريب ، حتى تتطهر النفوس تطهراً كاملا ، وتخلو من رواسب الماضى خلواً تاماً .

وأتبعت ذلك بالأساس الذى ينظر الله إليه ، وأنه ليس هو التمنى ، وإنما هو العمل وإسلام الوجه لله الذى له مافى السموات وما فى الأرض .

جاء ذلك كله فى إحدى عشرة آية تبدأ من قوله تعالى ، « إن الله لايغفر أن يُشْرَك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً » إلى قوله عز وجل « ولله مافى السموات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطا »[1] .

١٢ — بعد هذا عادت السورة إلى شأن النساء فى ثلاث آيات تبدأ بقوله تعالى « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن » إلى قوله تعالى : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً عليما » .

وسنعرض عند التفصيل لهذا الموضع بين أحكام النساء إن شاء الله .

١٣ — ثم تحدثت عن تقوى الله وأنها من الوصايا التى أجمعت عليها جميع الكتب السماوية ، وأنها مما يقضى به المنطق وفهم الأمر على وجهه الصحيح ، إذ كل شىء لله ملكا ، وكل شىء تحت إرادة الله قدرة وفعلا ، فكيف لايتقيه من يخافه ويرتجيه .

---

(١) الآيات من ١١٦ الى ١٢٦ من سورة النساء .

وفى ذلك أمرت المؤمنين بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، وبأن يؤمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، وعرضت لبعض صفات المنافقين ، وحذرت المؤمنين منهم ومن اتخاذ الكافرين أولياء من دون أهل الإيمان ، ومضت فى هذا وما يتصل به من أول قوله تعالى : « ولله مافى السموات وما فى الأرض ، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، وإن تكفروا فإن لله مافى السموات ومافى الأرض ، وكان الله غنياً حميداً ، ولله مافى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا »[1] ـ وتأمل كيف ذكرت جملة « لله مافى السموات وما فى الأرض » مرة فى أول الآية الأولى ، ومرة فى آخرها ، ومرة فى الآية الثانية ، وجاء بين ذلك التوصية بالتقوى ، والتحذير من الكفر .

وكان آخر هذه الآيات هو قوله تعالى « والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما »[2] .

١٤ ــ بعد هذا أخذت السورة فى حديث عن أهل الكتاب ـ والمراد بهم هنا اليهود لأنهم هم الذين كانوا بالمدينة وهم الذين ينطبق عليهم حديث السورة ـ فذكرت حمقهم فى مطالبتهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، وأن لهم فى هذا الحق ماضيا ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، ثم ذكرت ماضيهم فى اتخاذهم العجل وموقفهم حين أمرهم بالسجود ونهيهم عن العدوان فى السبت ، وفى نقضهم

---

(١) الآيتان ١٣١ ، ١٣٢ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٥٢ من سورة النساء .

المواثيق ، وقتلهم الأنبياء ، وموقفهم من مريم وعيسى وزعمهم قتل المسيح . . إلى غير ذلك من مخازى تاريخهم ،

وجاء ذلك كله فى الآيات من قوله تعالى « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » إلى قوله عز وجل « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما » [1] .

١٥ — ثم جاءت بعد ذلك بحديث عن الوحى والرسالات فبينت أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليست بدعا من الرسالات ، فقد أوحى الله إليه كما أوحى إلى غيره من نوح وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم من الرسل الذين قصهم الله عليه . ومن الرسل الذين لم يقصصهم عليه .

كما بينت أن الحكمة من إرسال الرسل هى إقامة الحجة على الناس ، وأن الكفر بالرسالات والصد عنها لابد أن يوصل أصحابه إلى جهنم ، فليس الكفر هاديا إلا إلى هذا الطريق ، ثم توجهت إلى الناس جميعاً بنداء تأمرهم فيه باتبـاع الرسول الذى بعثه الله بالحق منه ، وإلى أهل الكتاب — والمراد بهم هنا النصارى الذين يزعمون فى شأن عيسى مايزعمون — فبينت لهم أنهم غالون فى شأن عيسى ، وما عيسى إلا رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فعليهم أن يؤمنوا بالله إلها واحدا ، وينتهوا عن عقيدة التثليث . واستمرت فى هذا النداء تؤيده وتتبعه بما يقويه ، ثم نادت الناس مرة أخرى بنداء عام تلفتهم فيه إلى برهان الله ونوره المبين فى رسالة الإسلام ، وأن الاعتصام بهذه الرسالة هو السبيل إلى رحمة الله وفضله وصراطه المستقيم .

(١) الآيات من ١٥٣ الى ١٦٢ من سورة النساء .

وقد جاء ذلك كله فى الآيات من أول قوله تعالى « إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيِّينَ من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وآتينا داود زبوراً ، ورسلاقد قصصناهم عليك من قبل، ورسلا لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليما »[١] إلى قوله عز وجل « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ، فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما »[٢].

١٦ — ثم ختمت السورة بآية فى شأن الميراث أفردتها عن الموضع الذى ذكرت فيه أحكام المواريث لحكمه مقصودة ، تلك الآية هى قوله تعالى · « يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى الكلالة ، إن أمرؤٌ هلك ليس له ولد ، وله أخت ، فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم »[٣] .

* * *

هذا عرض إجمالى لما تضمنته سورة النساء من الأحكام والمبادىء والوصايا ، وكلها ذات صلة وثيقة بشأن المجتمع ، ووضع الأسس التى يجب أن يقوم عليها .

ويمكننا أن نرد ذلك — إذا أردنا إيجازاً أكبر — إلى الأمور الآتية :

---

(١) الآيتان ١٦٣ ، ١٦٤ من سورة النساء .
(٢) الآية ١٧٥ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٧٦ وهى الآية الأخيرة من سورة النساء .

(١) إعلان مبدأ المساواة بين الناس تمهيداً لإقامة المجتمع على أساسه .

(٢) حقوق النساء ، وَاليتامى ، والسفهاء .

(٣) أحكام المواريث .

(٤) أحكام الزوجية وما يتصل بها .

(٥) التضامن الاجتماعى فى ظل التوحيد والخلق الكريم .

(٦) أساس الحكومة الإسلامية .

(٧) التحذير من أهل النفاق والكفر ومن الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين ، ويحاربونهم حروبا مادية ومعنوية .

(٨) إرسال الرسل شأن إلهى ، وليس محمد بدعا من الرسل .

(٩) إقامة الحجة على من يزعمون التثليث ، وإثبات أن الله واحد ، وأن المسيح ماهو إلا عبدٌ لله .

(١٠) الرسالة المحمدية رسالة عامة موجهة إلى الناس أجمعين .

٥

أقسام البحث

هذا البحث يتألف من قسمين :

القسم الأول :

المبادئ والتوجيهات التى أقامت عليها السورة نظام المجتمع .

وهى نوعان :

(أ) ما يرجع إلى تقرير الأصول العامة والتوجيهات التى يدور المجتمع فى نطاقها ، وتكون له روحا يستلهمه فى وجوه حياته .

(ب) وما يرجع إلى تركيز روح التفاؤل والأمل فى المجتمع ، حتى لا تخيّم على أفراده عوامل اليأس والقنوط ، فيضعف - تبعاً لذلك - جهده ، وتقل ثمراته .

القسم الثانى :

الأحكام التى شرعتها السورة لهذا المجتمع ، وبيان ملاءمة كل منها لحكم الفطرة ، ومقتضيات الطبيعة التى ليست إلا سنن الله فى الكون ، ونواميسه للحياة ، والموازنة بينها وبين غيرها من النظم المقابلة لها فى الشرائع الأخرى ، مليّة كانت أو وضعية ، كلما احتاج المقام إلى ذلك ، وبمقدار ما يتسع له المجال .

وهذه الأحكام - كما يتبين من عرضنا السابق للسورة - ترجع إلى : المحافظة على حقوق الضعفاء من أعضاء المجتمع ، وتنظيم شئون الأسرة فى الزوجية والميراث . وبيان حقوق النساء على الرجال ، وحقوق الرجال على النساء ، وتنظيم أسلوب التعامل بين الزوجين فى حالتى الوفاق والخلاف ، ووضع الأساس الذى يقوم عليه التعامل التجارى والكسب المشروع ، وتقرير عصمة النفس المؤمنة ، وتشريع عقوبة بعض الجرائم الخلقية التى من شأنها أن تهدد كيان المجتمع ، وبيان أركان الإيمان والعقيدة الصحيحة ، ومصادر التشريع ، وأصول الحكم فى الإسلام ، وتشريع ما يحفظ الصلاة ويبين عظيم منزلتها ، من أنها لا تؤدَّى إلا والمرءُ فى حالة طهارة حسية ومعنوية ، ولا تُترك حتى فى حالة الخوف من العدوّ فى ميدان القتال، وبيان الغاية من الحرب وتشريع أحكامها ، وتحريم اتخاذ الكافرين أولياء التماساً للمصالح الخاصة ، إلى غير ذلك مما قد يجر إليه القول ، أو يدعو إلى تفصيله المقام .

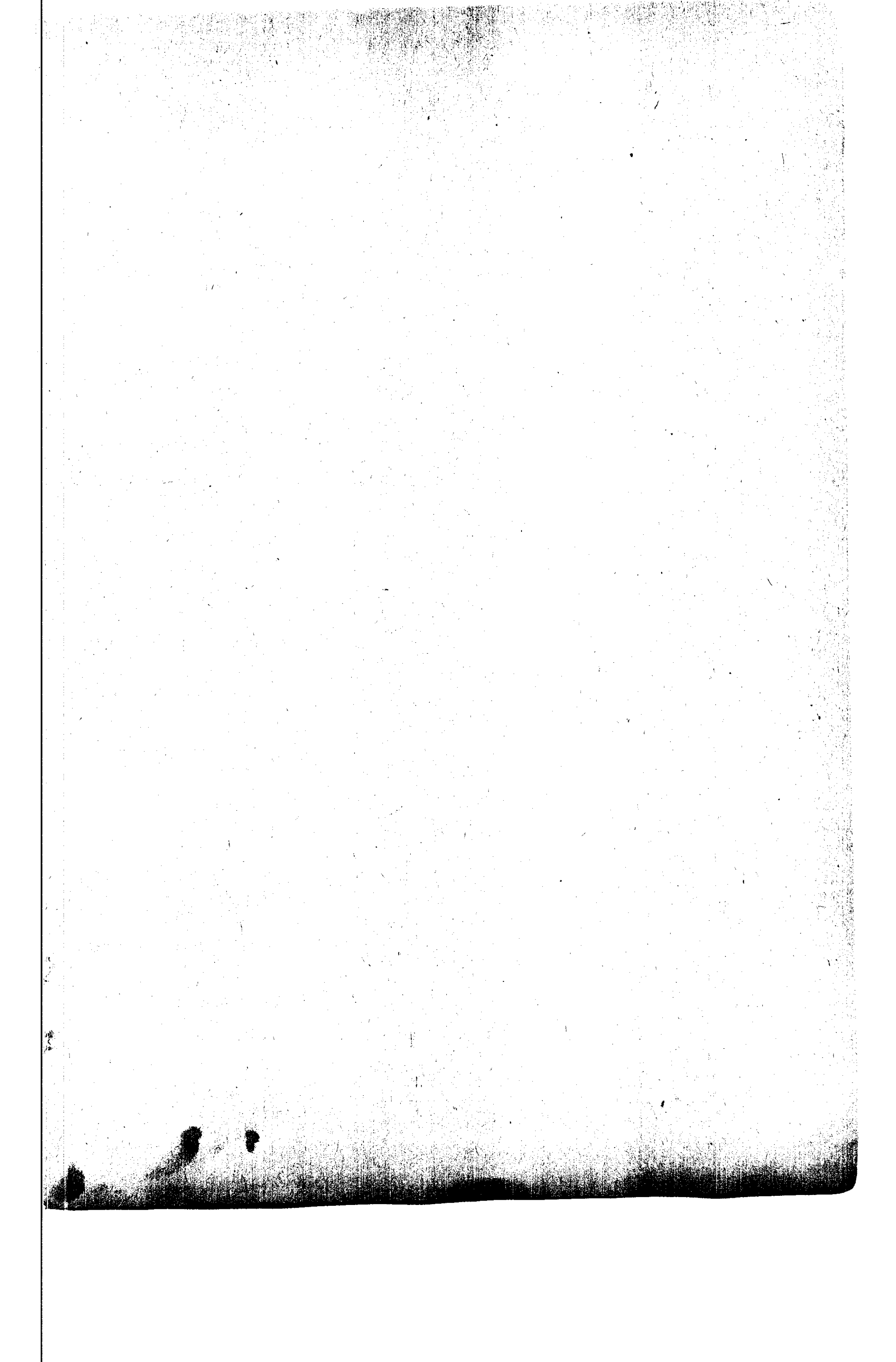
وإذا كان أساس بحثنا وما نعقده من الموازنة ، هو ما جاء فى « سورة النساء » ، فإن ذلك لا يمنعنا أن نستعين فى إيضاح ذلك وتكميله بما جاء فى القرآن الكريم عامة ، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، ويتلاقى بعضه مع بعض ، ولا يختلف شيء منه عن شيء ، وهذا سر من أسرار إعجازه : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

كما أننا سنستعين ـ كلما اقتضى المقام ـ بما نراه فى السنة المطهرة متصلا بذلك إن شاء الله تعالى ، فإن السنة بيان الكتاب ومفتاحه ، والنور المبين الذى يكشف عن أسراره .

القسم الأول

المبادئ والتوجيهات

التي أقامت عليها السورة نظام المجتمع



الأصول العامة والتوجيهات

المجتمع الإسلامى مجتمع طبيعى

المجتمع الطبيعى هو الذى يقوم على أساس من الطبيعة ، ويدرك أحكامها ومقتضياتها ، وينزل عليها فى غير تمرد ولا منافرة ولا مقاومة .

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن المجتمع الطبيعى هو الذى يطلق لنفسه العنان ، فلا يتقيد بقيد ، ولا يحاول أن يهذب جموح الطبيعة ، ويرد ما عسى أن يكون لها من شطط ـ لا ينبغى أن يفهم هذا ، لأن من أحكام الطبيعة نفسها أن الاسترسال فى وضع من الأوضاع الفطرية دون أى كبح لابد أن يعكس هذا الوضع فى النهاية ، فالطبيعة تأذن بتهذيبها والحد من صور اندفاعها ، وإن كانت تأبى أن تقاوَم وتُنْكَر ، ويُفرَض عليها مالا يلائمها ، وما مَن شأنه أن يعوِّق مسيرها .

وإذا قام مجتمع ما على أساس إنكار طبائع الأشياء ومقتضيات تكوينها ، أو وُجد فيه من أحكام التعامل والسلوك ما ينافرها ويغالبها ، فذلك هو المجتمع الصناعى ، ومن شأن الطبيعة أن تحس بأنه مفروض عليها ، مقاوم لها ، فهى تأباه وتمقته وتأخذ فى محاربته ومطاردته حتى تزيله أو تحيله .

ومن مزايا التشريع الإسلامى ـ بل لعل ذلك أكبر مزاياه ـ أنه يدرك هذا الأمر حق الإدراك ، وأنه يجرى على مقتضاه جريانا كليا ، لا يختلف

أسلوبه فيه مهما تعددت الأحكام ، وتنوعت التشريعات والقوانين ، واختلفت الموضوعات ، وتغيرت الأزمنة والأمكنة ، وليس ذلك بعجيب وهو تنزيل الحكيم الحميد الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، والذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، ولذلك توصف الشريعة الإسلامية بأنها « شريعة الفطرة » ، و « الدين القيم » و « الصراط المستقيم » ، وتوصف أمة الإسلام بأنها « أمة وسط » و « شُهَداءُ على الناس » .

* * *

وسورة النساء تتكفل بتنظيم « المجتمع الإسلامى » على نحو طبيعى كما يبدو واضحاً من المبادىء والتوجيهات التى أقامته على أساسها ، ومن الأمل الذى بعثته فيه ، ومن الأحكام التى أخذته بها .

* * *

أقامت السورة نظام المجتمع الإسلامى على مبادىء وأصول ، وزودته فى الوقت نفسه بكثير من التوجيهات العملية التى تتلاقى مع هذه المبادىء والأصول .

وأهمّ المبادى والأصول التى سنعرض لها بالبحث فى هذا القسم ، يرجع إلى :

(١) المساواة بين الناس

(٢) الإيمان بالله وحده إلهاً معبودا ، ومشرعا رحيما ، عليما ، حكيما .

(٣) العدل فى الحكم والقضاء والشهادة .

(٤) التضامن الاجتماعى .

وأهمّ التوجيهات العملية التى سنعرض لها أيضاً فى هذا القسم يرجع إلى ما يأتى :

(٥) الآيات المحذِّرة .
(٦) الآيات الموجِّهة .
(٧) الآيات المبَشِّرة .

* * *

هذه هى أهم المبادىء والأصول والتوجيهات العملية ، التى أقامت عليها سورة النساء نظام المجتمع الإسلامى ، والتى سنعرض لها بالبحث فى هذا القسم ، وقد يجر الحديث إلى نقط متصلة بها ، فنسير معه تكميلا للفائدة .

والمقصود من أن السورة أقامت المجتمع الإسلامى على هذه المبادىء والأسس ، هو أنها قررتها فيه أصولا يرجع إليها كل تشريع ، وكل معاملة ، وكل تصرف ، وأن جميع ما جاء من أحكام تفصيلية ، بالتحليل أو التحريم أو الإيجاب أو الإرشاد ؛ إنما يستهدف واحدا أو أكثر من تلك المبادىء والتوجيهات ويجرى فى دائرته ، ويتقرر تطبيقاً عليه .

* * *

والآن فلننظر إلى كل واحد من تلك المبادىء والتوجيهات حسب ما رسمنا لهذا البحث ، والله المستعان :

١ — المساواة بين الناس

العالم والنظام الطبقي :

١ — مما هو ثابت فى تاريخ الأمم والشعوب قبل الإسلام أن الأحبار والرهبان — وساعدهم الملوك وأصحاب السلطة المادية — قسّموا الناس طبقات ، وخيّلوا لهم أن الدماء الآدمية تختلف ، وأن حقوقها تبعاً لذلك تتفاوت ، فلهذه الطبقة من الحقوق ما ليس لتلك ، ولهذا الدم أن يحكم وأن يورّث الحكم فى أعقابه بأمر الله ، وليس لأحد من العامة أن يعترض وإلا كان جزاؤه الطرد على يد الحكام من الحياة الدنيا بالموت ، والطرد على يد رجال الكهنوت فى الحياة الآخرة من رضـــوان الله ، وبهذا فترت الهمم ، وانحلت العزائم ، وصار الناس يدورون فى فلك ضيق : إن كانوا من الخاصة لم يكدّوا ولم يكدحوا ولم يكلفوا أنفسهم أن يسلكوا فى الحياة سبيلا قويماً ، لأنهم لايخافون أن يضيع مجدهم ، أو ينزلوا إلى مرتبة العامة ، وإن كانوا من العامة لم تسمُ نفوسهم إلى حياة أرفع لأن هذه الحياة مستحيلة عليهم فى ظل هذا التقسيم الجائر الذى فرض على المجتمع ، ومن ثمّ استرخى هؤلاء وهؤلاء ، وصار العز والرفعة ميراثا يصل إلى الأبناء عن آبائهم وأجدادهم ، كما صار الفقر والشقاء ميراثا لقوم آخرين لا يعدوهم .

هذا النظام الطبقي هو النظام الذى كان يعرفه العالم ويرضخ له كارها ، وكانت الشعوب تسير على مقتضاه مسخرة ، ولا تعرف الأكثرية فى ظلاله حقاً ، ولا تستطيع - من طول ما أصابها من الذلة - أن تفكر فى التخلص منه ، وكان يستوى فى ذلك اهل المدنيات والحضارات ، وأهل البداوة والتوحش ، فالأمر فى ظلال الدولتين الرومانية والفارسية هو الأمر

فى جزيرة العرب على عهد الجاهلية ، كلهم يعيشون فى مجتمعات تفرق بين الناس ، وتقرر أن بعضهم شريف وبعضهم وضيع ، حتى الطبقة الواحدة كانت تتفاوت وتنقسم إلى طبقات ، ومن قرأ تاريخ هاتين الدولتين اللتين كانتا تقتسمان العالم نفوذاً وقيادة ونظما وقوانين وتقاليد ، يرى هذه الطبقية فى أبشع صورها متمثلة فى المناصب ومن تسند إليهم ، وفى الأرض ومن يمتلكها ، وفى العقوبات واختلافها بحسب المذنبين أو المجرمين نوعا وكما وكيفا ، وفى التجاوز عن العقوبات كذلك ، فليس كل أحد يعاقَب ، وليس كل أحد يُتجاوَز عنه ، فربما سرق الشريف فتركوه ، بينما نراهم إذا سرق الوضيع أو اشتبهوا فى أنه سرق أصروا على توقيع العقوبة عليه ، وكانت العقوبة تزداد فى جانب الشدة والقسوة كلما ازداد المذنب فى جانب الذلة والضعف .

والعرب لم يكونوا مختلفين حالا فى ذلك عن غيرهم ، فهذا تاريخهم يشهد بأنهم كانوا أمة متفاخرة بالآباء والأجداد ، متكاثرة حتى بعظام الموتى فى المقابر ، وأنهم كانوا قبائل متفاوتة : فمنهم الشرفاء العالون ، ومنهم الأدنياء النازلون ، وبين ذلك مراتب ، وفى شعرهم وأخبار منافراتهم الكثير الذى يدل على ذلك ، وينبىء عن شدة الاعتداد به ، والتعويل عليه فى مجتمعهم ، وعلى هذه النزعة كان الفرزدق يفاخر جريراً فيقول له :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وعلى أساس من هذه التفرقة كان التفضيل بين نُمَير من جانب ، وكعب وكلاب من جانب آخر فى قول جرير يهجو الراعىَ النُّمَيْرىّ :

فغض الطرف إنك من نُمَيْرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

وعلى أساس هذه التفرقة أيضاً هُجى بنو باهلة فقيل فيهم :

ولو قيل للكلب يا باهلـــى عوى الكلب من قبح هذا النسب

وكان من عقائدهم الخرافية أن دماء الأشراف دواء شاف من مرض الكَلَب ، وعلى هذا يقول الشاعر فى مدح قوم ووصفهم بأنهم « شرفاء » :

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دِماؤُكم تَشفِى من الكَلَبِ

* * *

وقد استمر هذا النظام الطبقى فى أوربا ، وكانت فرنسا قبل ثورتها مظهراً من أشنع مظاهرة ، إذ كان فيها طائفة النبلاء ، وطائفة الأجَراء ، وإذ كان مجتمعها يعتبر الغنى مبرراً لفعل السوء ، وارتكاب الموبقات ، والاستعلاء على القانون ، بينما يعتبر الفقر كأنه جلباب عبودية ورق أو حيوانية ، فلا يكاد يجد الفقير من ينصفه أو يحترمه أو يدفع عنه غوائل القوىّ أو الغنى .

بل إننا ما زلنا إلى الآن نرى أمة كبرى كالولايات المتحدة ، وشعباً كبيراً فى جنوب أفريقيا يجرى فى هذا القرن على التفرقة بالألوان ، فللأبيض من الحقوق ما ليس للأسود ، حتى فى دور العلم والجامعات الكبرى التى من شأنها أن تمثل الرقى الفكرى ، والسمو العقلى ؛ نرى لديهم هذه التفرقة ، ونسمع فى الإذاعات ، ونقرأ فى الصحف أنباءها التى تثير الحزن ، وتبعث على منتهى الاشمئزاز ، وحسبنا أن نقرأ أن فتاة زنجية تطرد من إحدى الجامعات ، وتتظاهر عليها جموع الشعب هاتفة بقتلها ، ويُصنَع لها تمثال رمزى ثم يُحطَّم هذا التمثال لا لشىء إلا لأنها — وهى زنجية — دخلت الجامعة تطلب العلم ، وتأخذ قسطها كإنسان من نوره ، ومن العجيب أن هذا الأمر يتطور فى دولة كالولايات المتحدة الأمريكية ، حتى يصبح مشكلة يجتمع لها وزراؤها ، ويتفرغ لها رئيسها .

أضف إلى ذلك نظرة الأوربيين إلى غير الأوربيين فقد كانت وما زالت إلى اليوم نظرة ازدراء وتعصب ، فعندهم أن الأوربي صنف ممتاز خُلِق ليسود غيره ويَصْعد به مدارج الرقى ، وأن غير الأوربي صنف أدنى منه ، عليه أن يسمع له ويطيع ، وقد جرّ أهم هذا المبدأ على استعمار بلادنا ، واستنزاف مواردنا ، والتسلط علينا ، واستخدامنا فى مصالحهم ، وفى تصريف تجارتهم ، مع تحطيم روحنا المعنوى حتى صرنا لهم مناطق نفوذ ، وصاروا يتعاركون علينا ، ويتسابقون على استلابنا وامتلاكنا ، وقد طال علينا الأمد حتى سلمنا لهم بهذا المبدأ فعلا وقبولا ورضوخا ، وإن ظل فينا يومئذ من ينكره قولا وكتابة ، ولكن الله تعالى قد بعث فينا الآن روحا جديدا ، فاستطعنا أن نهدم هذا البناء العتيق على رءوس الذين أقاموه ، وأن نعلمهم كيف يعاملوننا على قدم المساواة كما يتعاملون بعضهم مع بعض .

وكان من آثار هذا المبدأ الذى هو التفرقة بين الناس أنهم كانوا يحاربون الشرق بأسلحة دنيئة لا يحاربون بها فى الغرب ، كالغازات الخانقة ، والميكروبات ونحو ذلك ، وأنهم كانوا يبيعون الشرقيين من الدواء أصنافا غير التى يبيعونها الأوربيين ، وهكذا ـ حتى الدول المنهزمة إذا كانت دولا أوربية عوملت معاملة فيها كثير من الرقة واللطف واحترام الشعور والمحافظة على الكرامة ، أما إذا كانت شرقية أسيوية أو أفريقية أو غير ذلك فإن للمغلوب منها الويل كل الويل ، والذل كل الذل ، ولذلك نرى المغلوبين من دول أوربا إلا يكاد يمر عليهم سنوات معدودة حتى ينالوا استقلالهم ، ويعودوا إلى تبوىء مكانتهم بين الشعوب كما كانوا ، لا لمجرد أنهم أصلح للحياة ، أو أقدر على التخلص من أزماتها ، ولكن لأن غالبيهم يرون لهم ذلك لأنهم من جنسهم وعصبيتهم .

المرأة فى العالم القديم :

٢ — وفى جانب آخر من جوانب هذه الطبقية أو هذه العصبية نرى موقف هذه المدنيات والحضارات المخالفة للإسلام من المرأة يصور لونا من ألوان الظلم والإساءة من الإنسان إلى أخيه الإنسان .

كانت المرأة فى الشعوب المتوحشة لا تعدو أن تكون فى حياتها مخلوقاً تابعاً للرجل ، ليس له فى نفسه قيمة ، ولكن قيمته جاءت من أن الرجل يريده انتفاعا ومتاعا ، فمثلها فى ذلك مثل الحيوان الأعجم . أرأيت إلى الحيوان كيف يعيش حياته مسخرا فى أغراض مالكه ، لا يأكل إلا ما يطعمه ، ولا يعمل إلا فيما إليه يوجهه ، أرأيت إليه كيف يُذَل ويُحرَم كل حق إلا الحق الذى يحفظه لمالكه بوصفه بعض ماله ، وكيف يعتدى عليه المعتدى فلا يكون مسيئا ولا معتدياً إلا بمقدار ما فوّت على مالكه من منفعة ، أو إصابه من مضرة ، فليس للحيوان نفسه حق فى ألا يُعتَدى عليه ، ولكنَّ الحقَّ كل الحق فى ذلك إنما هو لمالكه وصاحبه .

كذلك كانت المرأة فى الشعوب المتوحشة قديماً ، وكذلك كانت تعامل فى البيوت والأسر والمجتمعات : حياتها تابعة لحياة الرجل ، يطعمها ويكسوها ليتمتع بها ويستخدمها ، ويأخذ ما شاء من أموالها ، وكانوا أحياناً يحتزّون شعور النساء ليبيعوها كما تُجتَزُّ أصوافُ الأغنام ، وأوبار الأنعام ، وكان الرجل يجمع من النساء ما شاء ، ويطلق منهن من شاء ، وكانت المرأة تعتبر أمَة لزوجها لا يَرَى لها حقاً معه ، ولا ترى هى لنفسها حقاً ، وكان الزوج إذا مات تترمل زوجته حتى تموت ، فلا يسوغ لها أن تتزوج ، ولا أن تتزين ، أما إذا ماتت الزوجة فللرجل أن يتزوج ، وقد بقيت آثارٌ فى كثير من مجتمعاتنا الشرقية على الرغم من الإصلاح الإسلامى ، رسَبَتْ فيها

من أحكام المجتمعات الأولى ، فما زال أهل الريف المصرى ينظرون إلى المرأة التى تتزوج بعد موت زوجها نظرة فيها شىء من اللوم والازدراء ، بينما يرون زواج الرجل بعد موت زوجته أمرا طبيعياً ولا يرون فيه شيئاً يخالف المألوف ، أو يحيد عن السنَن الطبيعى .

بل لقد كان بعض الشعوب يستحسن من المرأة التى مات زوجها أن تقتل نفسها بعده ، فكانت الزوجة المسكينة تلقى بنفسها من مكان عال فيندق عنقها ، أو تتحطم ضلوعها ، وكانت ربما أحرقت نفسها فى النيران التى تُحرق بها جثة زوجها الميت ، وما زال هذا الحكم القاسى مطبقاً فى بعض الشعوب . وإن كانت المرأة قد تخففت من الموت المادىّ إلى نوع من أنواع الموت المعنوى فارتضت أن تعيش بعد زوجها ، ورضى المجتمع لها ذلك ، ولكن على شريطة أن تحلق شعرها ، أو تجدع أنفها ، أو تصلم أذنيها ، أو تشوه وجهها ، لكى تضمن ألا ينظر الرجال بعد زوجها إليها ، ولكى تحقق هذا اللون من الوفاء لذلك الشريك الراحل الذى يُلزمها المجتمع به وإن لم يُلزم به زوجها لو وقف موقفها ، فهو إلزام لجانب واحد ، ومبالغة ظالمة فى استضعاف أضعف الطرفين ، وهو المرأة .

ويحدثنا التاريخ أن المرأة كانت تلاقى من العنت وألوان الشقاء حتى فى المجتمعات المتمدينة ، والبلاد المتحضرة مالا يلاقى الرجل بعضه ، فكان يحكم عليها بالموت مثلا إذا خالفت زوجها أو أسرفت فى ماله ، وكانت تعد روحا شريرة فى بعض المجتمعات ، بل عدّها مجتمع من مجامع روما مخلوقا لانفس له ، وزعم أنه لا حق لها فى الحياة الآخرة ، أى أنها لا تبعث كما يبعث الناس وانما تنتهى حياتها بالموت ، كالحيوان فى رأى من يقول إن الحيوان لا يبعث ، فهى فى هذا نظير للحيوان الأعجم فى نظرهم ، هذا

فضلا عن حرمانها التصرف فى أموالها بالبيع أو الشراء أو الهبة أو غير ذلك من ألوان التصرف إلا بإذن زوجها ، وما زالت بقايا هذا الحكم راسية فى أعماق بعض الشعوب إلى يومنا هذا ، وما زال من شعوب أوربا من يحرّم على المرأة أن تتصرف فى خالص مالها إلا بموافقة زوجها .

التفرقة بالجنس أو بالنوع

مخالفة للنواميس الكونية :

٣ — ويتبين من هذا كله أن العالم قبل الإسلام ، وفى ظلال النظم البشرية المتفاوته كان يعانى معاناة شديدة من مبدأ « اللامساواة » ، وأن آثار هذا المبدأ ما زالت تبدو فى كثير من الأحكام والعادات والنظم حتى فى عصرنا الحاضر .

هذا من غير شك مبدأ منافر للطبيعة ، مخالف لمقتضى أصل الخلق ، فالناس من حيث هم ، مربوبون لرب واحد ، ناشئون من أصل واحد ، وإذن فإنسانيتهم واحدة ، لا يمكن أن يمتاز فرد من أفرادهم ، أو طبقة من طبقاتهم ، أو جنس من أجناسهم ، أو لون من ألوانهم ، أو سكان إقليم من أقاليمهم ، أو سلالة شعب من شعوبهم ، إلا إذا كان هذا الامتياز مستنداً إلى معان ووجوه من كسبهم وسعيهم وعملهم الصالح .

ولهذا كان الإسلام طبيعياً فطرياً حين قرر مبدأ المساواة بين الناس ، وإهدار الجنس ، وإلغاء الطبقات ، وعدم الاعتراف بالسلطان الذى يُستمد من « الدم » أو « السلالة » أو « الكهنوت » ، وعدم الاعتراف بالتفرقة الظالمة بين « الذكورة » و « الأنوثة » فى معنى الإنسانية المشترك ، وفى حق كل نوع منهما فى التمتع بمقتضيات حياته النوعية ، وخصائصه الطبيعية فى ظل من المساواة واحترام الكرامة المشتركة ، وكان طبيعياً فطرياً حين توجه بدعوة الحق ، التى هى رسالة الإسلام ، إلى الناس جميعا من كل جنس ،

وفى كل زمان ومكان ، واعتبر جميع الذين يلبون هذه الدعوة إخوة لا فرق أبيضهم وأسودهم وأحمرهم ، فكان بلال وهو العبد الحبشى زميلا وأخا لعلى وهو الحرّ القرشى ، وكان سلمان الفارسى نظيراً وأخا لعمر ابن الخطاب ، وكان أسامة بن زيد المولى العتيق قائداً على آخر جيش كوّنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » .

أية النساء الأولى تقرر المساواة الكاملة :

٤ — وقد صدرت سورة النساء بتقرير هذا المبدأ واضحا جليا ، وإقامة إصلاحها الاجتماعى على أساسه ، فافتُتحت بهذا المطلع القوى ، حيث تقول .

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » .

تحليل علمى للآية :

وجهت الآية الخطاب فى هذا إلى الناس جميعاً ، لأنه شأن عالمى إنسانى عام ، وليس خاصاً بمجتمع إقليمى أو زمانى .

ثم بدأت بأمرهم بتقوى ربهم الذى خلقهم ، فهو الذى يملك ما خلق ، ومن واجب مخلوقيه أن يتجهوا إليه لأنهم ناشئون عن فضله ، ومربوبون له ، ومحتاجون إليه ، فهم فى ذلك جميعاً سواء ، ولا يوجد فيهم من يشذ عن هذا الحكم ، أى عن كونه مخلوقاً لله ، مربوباً له حتى يستحق أن يمتاز من دونهم ، ويُتقى من دونهم ، وإنما الذى يُتقى وحده هو الرب الخالق .

وإذن فقد وُضع الناس كلهم وضعهم الطبيعى بالنسبة للرب الذى خلق ، والذى يستحق أن يُتَّقى ، فكانوا فى هذا الوضع متساوين لا يمتاز أحد منهم عن أحد ، ولا شعب منهم عن شعب ، ولا صنف منهم عن صنف ، ولا سلالة منهم عن سلالة .

فهذا أول ركن من أركان المساواة .

ثم هم جميعا فوق كونهم مخلوقين لرب واحد ، مخلوقون من نفس واحدة ، فالعنصر واحد كما أن الخالق واحد .

ثم هذا العنصر ليس هو « الذكر » فقط ، أو « الأنثى » فقط ، فإن جميع الرجال وجميع النساء الذين انبثوا فى العالم ، واقتسموا بلاده وأقاليمه وخيراته ، إنما انبثوا « منهما » أى من النفس الواحدة ، ومن زوجها المخلوق منها ، فليست المرأة إذن مجرد وعاء للولد كما كانوا يعتقدون ، وكما قال الشاعر العربى : « وإنما أمهات الناس أوعية »

وفى آية أخرى تصريح بذلك حيث يقول الله جل جلاله .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1] .

ثم عادت الآية لأمر الناس مرة أخرى بتقوى الله ، ولكن على أسلوب آخر عجيب فيما له من دلالة وإيحاء : ذلك أنها تقول « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .

وقد قرئت كلمة « الأرحام » على وجهين ، فالجمهور قرءوها بالنصب عطفاً على لفظ الجلالة ، فالمعنى على هـذا : واتقوا الله ، واتقوا الأرحام ـ اتقوا الله أن تخرجوا على أمره ونهيه ، واتقوا الأرحام

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

أن تقطعوها وتنسوا حقوقها أو تنكروها ، وحمزةُ قرأها بالجر عطفاً للأرحام على الضمير المجرور فى « به »[1] فالمعنى : واتقوا الله الذى تساءلون به وبالأرحام وذلك أن العرب كانو يتناقشون بالله وبالأرحام حين يستعطف بعضهم بعضا ، فيقول أحدهم للآخر : أسألك بالله ، وأسألك بما بيننا من رحم أن تفعل كذا[2] ، وسواء أكان المعنى هو هذا أو ذاك فإن الأرحام قد أبرزت فى هذه الآية إبرازا يوحى بعظم شأنها ، وكمال العناية بها حيث عُطفت على لفظ الجلالة أو على الضمير العائد عليه ، إيذانا بأن حقها مستمد منه جل جلاله ، وفى الحديث القدسى الشريف « قال الله عز وجل : أنا الله ، وأنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلتُه ، ومن قطعها قطعته ـ أو قال : « بَتَتُّه »[3] .

ثم تختم الآية عبارتها فى تقرير هذا المبدأ بقوله تعالى : « إن الله كان عليكم رقيبا » ولم يرد فى القرآن الكريم وصف الله تعالى بأنه « رقيب » إلا فى ثلاثة مواضع أحدها هذا الموضع فى أول سورة النساء ، والثانى فيما أنبأ الله تعالى أن عيسى يقوله حين يسأله ربه عما قال للناس فيقول « ماقلتُ لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربَّكم وكنت عليهم شهيدا مادمتُ فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد »[4] . والموضع الثالث فى سورة الأحزاب حيث يقول الله تعالى مخاطباً نبيه صلوات الله وسلامه عليه « لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تَبَدَّلَ بهن من أزواج ولو

(١) والنحاة يشترطون فى عطف الظاهر على الضمير أن يكرر حرف الجر ، تطبيقاً على قواعدهم وشواهدهم ، والقرآن خير شاهد لو كانو ينصفون .

(٢) وهذه المناشدة أمر طبيعى فى الناس ، وليس خاصا بالعرب .

(٣) رواه أبو داود وغيره عن عبد الرحمن بن عوف ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح ــ الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٣ ص ٢٢٥ .

(٤) الآية ١١٧ من سورة المائدة .

أعجبك حسنهن ، إلا ما ملكت يمينك ، وكان الله على كل شيء رقيباً ، [١] .

فآية المائدة تقرر رقابة الله تعالى فى شأن يتصل بالألوهية والوحدانية ، وآية الأحزاب تقرر هذه الرقابة على النبى فى شأن يتصل بالنساء ، وآيتنا هذه تقرر هذه الرقابة الإلهية على المجتمع فى مبدأ المساواة بين الناس الذى يرجع إلى استوائهم فى المخلوقية والمربوبية والنفس الأولى .

النتائج التى أسفر عنها هذا التحليل :

ومن هذا يتبين أن فاتحة سورة النساء تقرر المبدأ الأول الذى لا بد من قيام أى مجتمع صالح على أساسه ، وهو مبدأ المساواة أمام الله ، وفى ظل تقوى الله ورقابة الله ، وفى كون جميع الأفراد من رجال ونساء منبثين من زوجين « ذكر وأنثى » .

وفى هـذا :

* إلغاء للفوارق الطبيعية .
* وإلغاء للفوارق الدينية والعنصرية .
* وإلغاء للتفاوت فى الوزن الاجتماعى بين الرجل والمرأة .
* وغرس للوازع النفسى فى المجتمع ، وهو المعبر عنه بتقوى الله .
* وإحياء لعاطفة الرحم الإنسانية ، وهو المعبر عنه بتقوى الأرحام .

التفاوت الطبيعى بين الرجل والمرأة:

٥ — ولا ينبغى أن يفهم من هـذا أن المرأة والرجل قد أصبحا بهذا مستويين حتى فيما تفرض الطبيعة اختلافهما فيه بحسب التكوين والوظائف

(١) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب .

المقصودة من كل منهما - لا ينبغى أن يفهم ذلك ، فإن هذه السورة الكريمة قد قطعت الطريق على من يتوهمونه أو يريدونه ، حيث تقول : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما » (١) أى أن الفطرة قد أكسبت كلا من الجنسين أوضاعا خاصة ، ويسرت لكل منهما سبيله بحسب المقصود منه ، وسلحته فيه بما يحتاج إليه من سلاح ، وحدودُ الطبيعة لا يصح أن تُقتحم ، وخَلقُ الله لا يمكن أن يغير ؛ فمن أراد ذلك كان مريدا المحال ، ومتمنياً ما لا يكون .

وإذن فالمساواة لا تقتضى إنكار حكم الطبيعة ، ونسيان الفوارق الخلقية وما يتبعها من الاختصاص فى الأعمال ، وإنما هى مبدأ اجتماعى يقتضى ألا يكون بعض المتماثلين فى الإنسانية محابى مكرماً ، وبعضهم مضطهداً مهاناً .

ومثل ذلك أيضاً يقال فى المساواة بين الأفراد والشعوب ، فلكلٍّ نصيبٌ مما اكتسب ، أى مما طبع عليه ، ومنح أدواته وأسلحته ، وإن كانوا جميعاً سواءً فى الوزن والاعتبار الإنسانى العام .

ولهذا اتصال فى المعنى بقوله تعالى : « قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢) وقوله جل شأنه : « سَبِّح اسمَ ربِّك الأعلى ، الذى خلق فسوَّى ، والذى قدر فهدى » (٣) وبما ورد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له » (٤) .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النساء . (٢) الآية ٥٠ من سورة طه .

(٣) الآيات من ١ إلى ٣ من سورة الأعلى . (٤) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد فى مسنده عن عمران بن حصين . راجع الجامع الصغير (باب الكاف) .

مبدأ المساواة فى غير آية
النساء من القرآن عامة :

٦ — ومبدأ المساواة بين الناس مبدأ مقرر فى غير هذا الموضع أيضا من القرآن الكريم .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الحجرات : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »[١] .

ولكن سورة الحجرات نزلت بعد سورة النساء ، وبينهما عدد كبير من السور ، وإذن فسورة النساء سابقة فى تقرير هذا المبدأ ، أى أنها بكرت بتقريره فى أوائل عهد المسلمين بالمدينة لتقيم مجتمعهم على أساسه . .

ومما يشير إلى هذا المبدأ قوله تعالى فى سورة الأحزاب : « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً »[٢].

ووجه ذلك أنه تعالى ينعى على الكافرين أنهم اعتمدوا على سادتهم ورؤسائهم حتى أضلوهم السبيل ، وكان عليهم أن يعلموا أنه لا سلطة لأحد على أحد فى عقيدة ولا توجيه ، وإن كل إنسان مسئول عن عمله ، والناس جميعاً متساوون فى ذلك فلا ينفع التابعين الاحتجاج بالسير وراء المتبوعين ، ويدل على أن هذا الدفاع منهم غير مقبول قوله تعالى قبل هاتين الآيتين عنهم « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .
(٢) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة الأحزاب

ولا نصيراً ، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا »(١) .

وفى سورة البقرة إشارة مثل هذه إلى مبدأ المساواة حيث يقول الله عز وجل : « إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا ورأَوُا العذابَ وتقطعتْ بهمُ الأسبابُ ، وقال الذين اتبَعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار »(٢) .

وكلٌّ من سورتى الأحزاب والبقرة قد سبقتا فى النزول سورة النساء ، وهما مدنيتان ولكنهما قد أفادتا هذا المبدأ بطريق الإشارة ، كما أفادته بعض السور المكية كذلك ، أى فى حدود هذه الإشارة ، ومنها سورة الأعراف حيث يقول الله جل جلاله : « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكلٍّ ضِعفٌ ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون »(٣) .

ومنها كذلك سورة (ص) حيث يقول الله تعالى فيما أنبأ به من تخاصم أهل النار : « هذا فوجٌ مقتحم معكم لا مرحباً بهم ، إنهم صالو النار ، قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربنا من قدَّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار »(٤) .

---

(١) الآيات من ٦٤ إلى ٦٦ من سورة الأحزاب .
(٢) الآيتان ١٦٦ ، ١٦٧ من سورة البقرة .
(٣) ٣٨ ـ ٣٩ / الأعراف .
(٤) ٥٩ ـ ٦١ / ص .

ومنها كذلك سورة الصافات حيث يقول جل شأنه « وقفوهم إنهم إنهم مسئولون ، مالكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون »[1] .

وسورة الزخرف حيث تقول : « ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعدَ المشرقين فبئس القرين ، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون »[2] .

ونريد من إيراد هذه الآيات فى هذه السور المكية بيان أن هذا المعنى جاء فى القرآن المكى ، وأنه يدل أصالة على أن التابعين لا ينجيهم من العذاب أن يعتذروا بأنهم كانوا تابعين ، وذلك يستلزم أن كل إنسان مسئول عما فعل ، لأنه متساو مع الآخرين ، ولا مبرر لانسياقه فى الكفر والطغيان تبعا لهم ، وخضوعا لسيادتهم وسيطرتهم ، وقد جرت سورة البقرة وسورة الأحزاب المدنيتان على هذا الأسلوب الذى يفيد مبدأ المساواة بالاستلزام ، أما سورة النساء فقد صرحت به لأول مرة ، وجعلته منطوق العبارة فى أول آية منها ، ثم جاءت بعد ذلك سورة الحجرات فقررته هى أيضاً صريحاً واضحا ، وسورة الحجرات من أهم السور المدنية التى عُنيت بتنظيم بعض شئون المجتمع ، وهى تهتم بقواعد السلوك الاجتماعى ، والأدب الذى يجب أن يقوم بين المواطنين .

---

(١) ٢٤ ـ ٣٣ / الصافات .

(٢) ٣٦ ـ ٣٩ الزخرف .

٧ — ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتتبع كل ما ورد فى القرآن الكريم صراحة أو إشارة إلى هذا المبدأ العظيم الذى أقام الله عليه صرح الإصلاح الاجتماعى ، وهو مبدأ المساواة الذى ما كان العالم يعرفه من قبل نظرياً ولا عملياً ، والذى ظل من مفاخر الإسلام إلى يومنا هذا .

ولكننا نكتفى بإضافة ما جاء تقريرا لهذا المبدأ فى السنة المطهرة ، وما كان من احترام المسلمين له ، وقيام مجتمعهم عليه فى العصر الأول ، وهو عهد الصحابة والراشدين :

السنة المطهرة ومبدأ المساواة :

فما ورد فى السنة المطهرة قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى خطبته الكبرى بحجة الوداع : « أيها الناس . إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم . قال فليبلغ الشاهد منكم الغائب »[1]

والمعنى فى هذه العبارات الواضحة مستمد من نصوص الكتاب الكريم ، حيث ذكرت الرب الواحد ، والأب الواحد ، وانتفاء الفضل والامتياز إلا بالتقوى، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله باستشهاده بسامعيه حتى أقروا بتبليغه ، ثم بأمره إياهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب فكان ذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم عناية بالغة بهذا الشأن الخطير من شئون الاجتماع السليم .

وقد بلغ من حرص النبى صلى الله عليه وآله وسلم طول حياته على تقرير هذا

(١) راجع خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المعروفة بخطبة الوداع ، وكانت فى السنة التاسعة من الهجرة بمنى يوم النحر ، وتواترت بها الأحاديث ، وسجلت فى كتب السنة والتاريخ والأدب .

المبدأ وتثبيته فى نفوس المسلمين ، أنه كان قدوة عملية فى تطبيقه على نفسه ، فما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمتاز على أصحابه ، وكان يستشيرهم فيسألونه ويراجعونه قائلين ، هل هذا شىء قلته من عندك يا رسول الله أو نزل به وحى ، فإن قال هو من عندى جاءوا بما عندهم من الرأى ، وربما رجع صلى الله عليه وآله وسلم إلى رأيهم كما جرى فى بعض الغزوات .

وأبلغ من هذا كله أن النبى عليه وآله الصلاة والسلام طعن سواد بن غزية بقدح سهم « لا نصل له ولا ريش » فى بطنه وهو مكشوف ليستوى فى الصف يوم بدر فقال : قد أوجعتنى فأقدنى ، فكشف له عن بطنه ليقتص منه فطفق يتمسح به ، وكان ذلك توسلا منه للتوصل إلى هذا الشرف العظيم ، وآذن الناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه ، وإذا كان ضربَ أحداً فليقتص منه ، وأذن لرجل أن يضربه حين ادعى أنه ضربه يوماً فقال الرجل إنى كنت عارى الكتف أو الظهر فألقى له الرداء عن عاتقه الشريف وكان شأنه فى ذلك شأن سواد بن غزية .

الصحابة ومبدأ المساواة :

وقد سار أصحابه على نهجه فأوقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه علياً كرم الله وجهه مع يهودى من آحاد اليهود فى خصومة بينهما ، وعاتبه على كرم الله وجهه بعد المخاصمة بأنه لم يسوِّ بين خصمه وبينه فى المعاملة ، لأنه دعاه ـ أى دعا علياً ـ بكنيته فقال له : تكلم أبا حسن ، تكريما له ، بينما لم يدع خصمه إلا باسمه ، وفى التكنية تعظيم ، فكان عليه تحقيقاً للمساواة أن يدعوه باسمه ، أو يدعو خصمه بكنيته أيضاً .

وقصة عمر مع عمرو بن العاص وابنه والمصرى من القصص المشهورة الدالة على عدالة الإسلام وعناية خلفائه الأولين بالمساواة بين الناس ،

فقد سوّغ للمصرى أن يضرب ابنَ عمرو الأمير وقال « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، فسارت هـذه القولة المشهورة مثلا باقيا على الزمان .

ولم يطق جَبَلة بن الأيـهم ملكُ بنى غسان هذا العدلَ العمرىَّ الإسلامى ، ولم يرض بالمساواة بينه وبين الأعرابى حين لطمه فأبى عمرُ إلا أن يقتص من جَبَلة للأعرابى تحقيقاً لمبدأ المساواة ، ففر جبلة من هذه المساواة ولم يكن الإسلام قد وَقَـرَ فى قلبه ـ فارتد ولجأ إلى النصرانية .

ويُذكر من مفاخر المأمون العباسىّ : أنه جلس يوما للمظالم فكان آخِرُ من تقدم إليه امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثيابٌ رَثّة ، فوقفت بين يديه وأفضتْ إليه بأن لها شكوى من خصم ظلمها ، فسألها : أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ؟ وأومأت إلى العباس ابنه ، فقال : يا أحمد بن أبى خالد ، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامها يعلو كلام العباس ، فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير فاخفضى من صوتك ، فقال المأمون : دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد مظلمتها وإحسان معاملتها ، وأمر لها بنفقة .

فهذه هذه المساواة التى ما زالت الأمم تنشدها وترنو إليها . وما زالت النظم (الديمقراطية) تتمنى الوصول إلى مداها ، وأن تسوّى بين الرؤساء والمرءوسين فيها .

٢ ــ الإيمان بالله وحده

إلها معبودا ومشرعا رحيما ، عليما ، حكيما

قضية التوحيد ، على نحو جديد :

القرآن الكريم فرغ من قضية التوحيد ، ومن محاجة المشركين وإقامة الدليل على بطلان زعمهم فى أن لله تعالى شركاء يُعبَدون كما يُعبد ، ويُرْجَوْن كما يُرْجى ، وعلى أن وحدة الربوبية تقتضى وحدة الألوهية ، أى أن العقول السليمة ، والفطر المستقيمة تحكم بأن لهذا الكون ربا هو الذى خلقه ، وهو الذى أنعم بكل نعمة فيه ، وهو الذى يقدر على إدامة هذه النعمة لمن منحه إياها إن شاء ، وعلى سلبها منه إن شاء ، فهو صاحب الشأن على الإطلاق ، كما هو صاحب الخلق والإبداع على الإطلاق ، ومن كان هذا شأنه ، وجب عقلا أن يكون هو الإله الواحد الذى لا يُشرَكُ به غيره « أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يُخلقون » .

فرغ القرآن الكريم من هذه القضية حين كان ينزل فى مكة ، ويقارع المشركين ، ويبطل عقائدهم ، ويعيب عليهم عبادة الأوثان واتخاذهم شفعاء يقربونهم إلى الله زلفى ، أما وقد صار المسلمون مجتمعا مؤمنا فى المدينة ، فإن القرآن لا يتناول أمر الوحدانية كقضية يناضل عنها على الوجه الذى كان فى البيئة المكية المشركة ، ولكنه يتحدث عنها على نحو آخر هو ذلك الذى نرى فى سورة النساء مظهراً له :

التوحيد عملا ، بعد التوحيد علما :

فهو يتحدث عن وحدانية الله كمبدأ يجب أن يستقر فى المجتمع عملا ، بعد أن قامت الأدلة عليه حجة ونظراً .

فبينما هو يقول فى إيجاز : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » . « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » ، « ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ، إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين » فلا يعدو أن يكون مذكراً بقضية استقرت وقام الدليل من قبل على صحتها - نراه يتحدث عن الله تعالى مُشَرِّعا يجب على الناس أن يتلقوا أحكامهم عنه ، وأن يؤمنوا إيمانا خالصا بأنه هو وحده صاحب الحق المطلق فى ذلك من جهة أنه هو الخالق ومن جهة أنه هو المتصف بالصفات التى لابد منها فيمن يُشَرِّع ، ومن جهة أنه رقيب لا يغيب ، ومن جهة أنه أعد فى الآخرة ثواباً عظيما لمن أطاعه ، وعذاباً مهيناً لمن عصاه وتعدى حدوده :

١ — نرى جانباً من هذا فى أول آية من السورة حيث تقول : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » .

وذلك هو جانب الأمر باسم « الربوبية » ، والإلزام بمقتضى « المخلوقية » .

٢ — ونرى جانبا من هذا فى الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من السورة حيث تقولان : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعدَّ حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

فالذى يضع الحدود هو الله تعالى ؛ والذى يجب له الطاعة هو الله تعالى الذى وضع هذه الحدود ، ورسوله الذى بلغ عنه ، والناس إما طائع ملتزم

هذه الحدود فله الجنة والفوز العظيم ، وإما عاص متعدّ هذه الحدود ، فله النار والعذاب المهين .

أهداف التشريع الإسلامى :

٣ — ونرى جانبا من هذا فى آيات ثلاث من السورة هنّ قوله تعالى : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سُنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً »[1]

فهذه الآيات تذكر الغاية من التشريع ووضع الحدود وقواعد التعامل فى المجتمع ، فليست هى مجرد الرغبة فى تقييد الناس وإخضاعهم للسلطان الإلهى ، ولو كانت كذلك لما كانت إلا حقاً ، لأن الناس جميعاً ملك لله تعالى ، وفى حدود سلطانه التكوينى قبل السلطان التشريعى ، ولكنها غاية تنبعث عن صفتى الرحمة والحكمة ، فالله تعالى — وهو الحكيم الرحيم بعباده — يريد أن يبين لهم البيان الشافى ، ولا يكلهم إلى أنفسهم وتجاربهم دون أن يعينهم بوحيه وتشريعه وبيانه ، فقد تهتدى العقول ، ولكنها كثيراً ما تضل ، وكثيرا ما تختلف ، وكثيراً ما ترى شيئاً وتغيب عنها أشياء ، فلا بد إذن من بيان من العليم الذى لا يخفى عليه شىء ، ولا يضطرب علمه بشىء — سبحانه — ، والله تعالى يريد أن يهدى عباده سُنن التاريخ ، ويقرّب لهم تجارب من كانوا قبلهم ، ويريد أن يتوب عليهم أى يغفر لهم ويطهر مجتمعهم مما كان عليه سلفهم فى الجاهلية ، بينما يريد أهـــل الشهوات والأهواء أن يخرجوهم عن الصراط المستقيم ، وأن يميلوا بهم عن سنة الفطرة ميلا عظيما ، والله تعالى يريد أن يخفف عن عباده لأنه يعلم أن الإنسان مخلوق ضعيف .

---

(١) ٢٦ — ٢٨ النساء .

وإذن فالتشريع إنما هو للبيان والهداية والتطهير والإصلاح ، وللعصمة من الميل والانحراف وتجاوز الصراط المستقيم والسنن الطبيعية ، وهو مع ذلك كله تشريع قائم على ملاحظة ما فى الناس من ضعف طبيعى يجعلهم غير قادرين على تحمل المشاق التى تزيد على الطاقة ، أو تثقل عن مألوف الاحتمال .

ولا شك أن هذه الآيات التى تتناول هذه المعانى فى بيان الغاية من التشريع والفائدة التى تتحقق للناس منه ، والرحمة التى تصاحبه وتلابسه ، من شأنها أن توجه الناس إلى الإيمان بالله تعالى مشرعا ، كما آمنوا به رباً وإلهاً معبوداً .

الإذعان شرط فى الإيمان :

٤ — ونرى جانباً من هذا فى آيات من السورة ، هى التى ترسم طريقة معرفة حكم الله ، والالتزام به فى تقبل ورضا لا يلابسهما أى عناد أو أى تبرم ، وذلك قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا ، ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ، فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ، أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ، وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم

جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ، ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتاً ، وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ، ولهديناهم صراطا مستقيما ، ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » (١)

فهذه الآيات الكريمة تَسبَح هذا السبْحَ الطويلَ فى تقرير ذلك المبدأ ، مبدأ إرجاع التشريع كله لله تعالى ، عن طريق الرجوع إليه فيما أنزل ، والرجوع إلى رسوله فيما بلغ أو بَيَّن ، والرجوع إلى أولى الأمر فيما يستنبطون تطبيقاً للنصوص ، وتنزيلا على القواعد والمصالح ، فإنهم بذلك مُوقّعون عن الله رب العالمين ، وليسوا مشرّعين ، أوهم ـ بتعبير آخر ـ مُظهِرون لحكم الله بعد التأمل فى مصادره والتعرف عليه ، لا منشئون لأحكام من عندهم .

وفى سبيل تركيز هذا المعنى تتحدث هذه الآيات عن المنافقين الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت — وكلُّ ماسوى الله ممن يُرْجَع إليه بالباطل ، أو يؤخذ حكمُه ، ويُخضَع لسلطانه بالباطل ، فهو طاغوت — فالآيات تعَجّب الرسول من هؤلاء الذين يزعمون الإيمان بما أنزل إليه وما أنزل من قبله ، وهم فى الوقت نفسه يرجعون إلى غير الله ورسوله فى التحاكم ، وإذا دُعوا إلى الله ورسوله أَبَوْا وأعرضوا وصَدُّوا

(١) ٥٩ — ٧٠ / النساء .

عن السبيل ، ثم تقرر فى حكم حاسم نفى الإيمان عن كل من يأبى تحكيم الرسول ، الذى هو تحكيم لله ، وعن كل من يرفض حكم الرسول ولا يؤمن به إيماناً خالصاً صادقا لا يشوبه حرج فى الصدور ، ولا التواء فى القبول ، ثم تنتهى إلى المبدأ فى النهاية ، كما صدّرت به فى البداية ، فتعلن أن طاعة الله ورسوله هى الأساس الذى يكون به الفضل والنعمة وحسن العاقبة .

٥ — ونرى جانباً شبيهاً بهذا أيضاً فى الآية الخامسة عشرة بعد المائة من هذه السورة ، حيث يقول الله جل شأنه :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونُصْلِهِ جهنمَ وساءت مصيرا » .

فذلك أيضا تحذير من مشاقة الرسول ومباينته ، واتباع غير سبيل المؤمنين ، وأصل المشاقة أن تكون فى شق غير شق صاحبك ، والمراد أن هناك سنة متبعة ومبادىء مقررة للإسلام أساسها اتباع هدى الرسول واختيار شِقّه وجانبه الذى يكون فيه ، لأنه مبلغ عن الله ، مبيّن لحكم الله ، مُصْدِر عن أمر الله ، مُسَدَّد من الله ، فمن ترك هذا المبدأ فقد شاقّ الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين ، فإذا كان هذا بعد التبيُّن والعلم النافى للرَّيب ، القاطع للحجة فإن خطره عظيم ، حيث يوعد الله تعالى فاعله بأن يتركه إلى نفسه ، ويملى له فى ضلالته ، ويذره فى غلوائه وباطله ، ثم يُصليه فى الآخرة العذابَ الشديد عذابَ جهنم « وساءت مصيرا » .

ظاهرتان من ظواهر القرآن :

(١) تذييل الآيات بصفات الله :

٦ — وكذلك نرى جانبا هاماً تحرص عليه السورة ، ولا تكاد تخلو منه آية من آياتها ، ذلك هو تذييل ما جاءت به من المبادىء والأحكام والتوجيهات

بإثبات صفات الله تعالى التى تغرس الهيبة والمحبة والرضا فى نفوس المؤمنين ، وتقرر فيهم مبدأ : « لا حكم إلا لله » إقراراً مبنيا على معرفة ، مَنْ هو الله .

وتلك حكمة بالغة، فيها مراعاة للقلوب، وفيها سياسة نفسية إنسانية عالية، فإن الإنسان إذا ذُكّر بأن الذى يُشَرّع له ، ويوجهه ، ويقرر المبادئ التى تصلحه ، ذو صفات تتناسب مع هذه السلطة وتتحقق بها هذه الهيمنة ، فإنه يكون أكثر تقبّلا ، وأعظم امتثالا ، وأبعدَ عن التمرد والعصيان وتجاوز الحدود .

وهذا التذييل بذكر صفات الجلال والجمال التى لمولانا جل شأنه ، هو خاصة من خواص القرآن الكريم عامة فى جميع سوره ، لا فرقْ بين المدنى منها والمكى ؛ وهى خاصة جَعلتْ لهذا الكتاب المبين مزيةَ الربط بين التكاليف والضمير الإنسانى المستمد من الإيمان الصادق ، ولم تترك التكاليف جافة ثقيلة يُلقى بها إلقاءً ، ويُقسَر الناس عليها قَسْراً خالياً من مناشدة العقول والقلوب ، كما هو الشأن فى القوانين الوضعية البشرية .

وسورة النساء فى الكثرة الكاثرة من آياتها مظهر كامل صادق لهذه الخاصة القرآنية العظيمة :

فأول آية منها ذُيّلت بقوله تعالى : « إن الله كان عليكم رقيباً » ، ومن هذا الوصف ، ومن كونه جاء تذييلا لأول آية ، نفهم أن الله تعالى يريد أن يغرس فى نفوس عباده من أول الأمر مهابته والحذر من رقابته ، والمجتمعُ الذى يرسخ فيه هذا هو المجتمع الذى يكون فيه ميزان التعامل منضبطاً مستقيما كما لو كان كل عضو فيه يستصحب معه من يراه فى جميع تصرفاته ، ويتبعه فى كل غدواته وروحاته .

وقد جاء التذييل بمثل هذا المعنى فى آيات من السورة ، مثل قوله تعالى

بعد الأمر بدفع الأموال لليتامى إذا بلغوا النكاح : « وكفى بالله حسيبا » .
وقوله بعد بيان أن الشفاعات منها ماهو حسن ومنها ماهو سيء ، وأن لكل شافع نصيبا وكفلا من شفاعته : « وكان الله على كل شيء مُقيتاً » - أى مقتدرا ، حافظا ، شاهداً - وقوله تعالى بعد الأمر بمقابلة التحية بأحسن منها أو بمثلها على الأقل : « إن الله كان على كل شيء حسيباً » ، وقوله تعالى بعد الكلام على بعض شئون النساء واليتامى والمستضعفين من الولدان : « وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » ، وقوله بعد توجيه الزوجين إلى الصلح ، والإيحاء بالتوسل إليه عن طريق الإحسان والبذل : « وأحضرت الأنفسُ الشحَّ ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

أما التذييلات الدالة على العلم المحيط ، والرحمة الشاملة ، والحكمة التامة والعزة والقدرة ، فهى كثيرة ، ويكفى أن نقرأ السورة لنرى كل آية من آياتها تقريبا ، تنتهى بتذييل منها مناسب لموضوعه تمام المناسبة .

ومن ذلك : « إن الله كان عليما حكيما » ، « والله عليم حليم » ، « إن الله كان غفوراً رحيما » ، « إن الله كان بكم رحيما » ، « إن الله كان بكل شيء عليما » ، « إن الله كان عليما خبيراً » ، « إن الله كان على كل شيء شهيداً » ، « إن الله كان علياً كبيراً » ، « إن الله كان عفوا قديراً » ، « إن الله كان عزيزاً حكيما » ، « إن الله كان سميعاً بصيراً » ، « لوجدوا الله تواباً رحيما » ، « وكفى بالله عليما » ، « وكفى بالله شهيداً » ، « وكفى بالله وكيلا » ، « وكان الله بكل شيء محيطا » ، « فإن العزة لله جميعا » ، « وكان الله شاكراً عليما » ... الخ .

(٢) التنقل والتوزيع ترويحاً للقلوب :

٧ - ويشبه هذه الخاصة - التى هى بثُّ صفات الله تعالى المشعرة بعظمته وجلاله ، فى آياته ، وفى خلال أحكامه وتشريعاته - خاصةٌ أخرى

من خواص القرآن ، تشترك معها فى الغـــاية والهدف ، تلك هى أن القرآن الكريم ، لا يحشد المبادىء والتشريعات حشداً ، ولا يُعنى بأن يجمعها فى نطاق واحد ، ولا بأن يضم الشبيه منها إلى شبيهه ، والموضوع فى بعض تفاصيله إلى بعض ، ولكنه يراوح ويغادى بالموعظة حيناً ، والقصة حينا ، ويذكر طرفاً من الشىء ، ثم يتركه ، ثم يعود إلى إتمامه ، وهكذا حتى لا تسأم النفوس هديه ، ولا تستثقل حديثه ، وبهذا أخذ القرآن طابعا غير طابع الكتب المألوف الذى يقسّم الغرض إلى أبواب وفصول وأقسام وأنماط إلى غيرذلك ، وكان هذا سراً من أسرار إعجازه ، وإبقاءً على رونقه وحسن ديباجته وأخذه دائما بالقلوب .

وهذه الخاصة التى تقوم على بث الموعظة والنصيحة وتَخَوُّل النفوس والأرواح بما يصلحها ، ويقوى استعدادها وينشطها ، شبيهة بالخاصة التى ذكرناها من قبل فى أن الغاية منهما هى تطويع النفوس ، واجتلابها إلى التقبل والتتبع والإذعان ، إلا أن الخاصة الأولى تعتمد على أمر عقلى منطق ، وكأنها تقول للناس ، هذه صفات من يُوَجّه إليكم القول ، ويشرّع لكم الأحكام والمبادىء ، والعقولُ تحكم بأن من كانت هذه صفاته فله حق الحكم والتوجيه وأن يُذْعِن الناسُ لسلطانه ، أما هذه الخاصة الثانية فإنها تعتمد على العاطفة والترويح ، وسلوكِ ما من شأنه أن يَلفت الأنظار ، ويجذب القلوب .

وهناك أمثلة كثيرة لهذه الخاصة فى مختلف سور القرآن مكياً ومدنيا ، وحسبنا أن نتلوآية سورة لنراها ونلمسها ونرى كيف استطاعت أن تخرج الكتاب المبين عن أن يكون كتابا أصمَّ مُغلقا لا روح فيه ، إلى كتاب يأخذ بالألباب فى قوة ، ويحرك النفوس فى أريحية وارتياح .

وفى سورة النساء من ذلك أن الله تعالى بعد أن بين طرفا من أحكام النساء فى قوله « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض[١] » عقب ذلك بقوله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا [٢] » إلى أن قال: « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ، فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا ، ثم قال بعد ذلك مباشرة : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ، إن الله كان عفوا غفورا »[٣] .

فقد تنقلت الآيات من بعض أحكام النساء إلى بعض أحكام العقيدة ، إلى بعض الأخلاق التى يجب أن تسود أفراد المجتمع ، ثم عقبت ببيان أن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وصورت مشهداً من مشاهد الحساب يوم القيامة حيث يجاء من كل أمة بشهيد ، ويجاء بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم شهيداً على هؤلاء ، ثم ذكرت حكما من أحكام الصلاة ، ثم حكما من أحكام التطهر بالماء أو بما ينوب عنه من الصعيد الطيب .

وهكذا انتقلت من معنى إلى معنى ، وجاءت من كل شجرة بثمرة ، ومع ذلك لم تبعد ولم تأت بما يمد فى الأذواق متنافرا ، أو يبدو أمام العيون أو الأسماع متقاطعا ، فهى لم تخرج عن دائرة أحكام المجتمع وأسسه وغرس بذور الإيمان فى أفراده . وسبحان « الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما » .

(١ ، ٢ ، ٣) اقرأ من الآية ٢٤ إلى الآية ٤٣ من سورة النساء .

آيات تجمع الظاهرتين :

ومن ذلك فى السورة أيضا قوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما ، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما ، ولله مافى السموات وما فى الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، وإن تكفروا فإن لله مافى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ، إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ، من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعا بصيرا ، يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » (١)

وهذه الآيات تجمع الظاهرتين جميعا ، ففيها من الظاهرة الثانية : التنقل من بعض أحكام النساء إلى الحديث عن ملك الله للسموات والأرض ، وقدرته عليهما وعلى ما فيهما ، وأن عنده ثواب الدنيا والآخرة ، وإلى الأمر باقامة القسط ، والنهى عن اتباع الهوى فى شأنه ، وفيها من الظاهرة الأولى أنها ذيلت كل هذه الآيات السبع بأوصاف لله تعالى تورث المحبة والرهبة والمراقبة ، حيث تقول : « فإن الله كان غفورا رحيما » « وكان الله واسعا عليما » « وكان الله غنيا حميدا » « وكفى بالله وكيلا » « وكان الله على ذلك قديرا » « وكان الله سميعا بصيرا » « فإن الله كان بما تعملون خبيرا » ..

---

(١) الآيات من ١٢٩ إلى ١٣٥ من سورة النساء .

وهذا أسلوب واضح القصد ، لم يأت عفوا ، ولا يمكن أن يأتى عفوا .

* * *

الشرك ألوان :

٢ ـــ وهناك جانب آخر يتصل بالوحدانية وإبطال مزاعم الشرك ، وتفنيد حججه ، سواء أكان شركا على طريقة الوثنيين ، أو شركا على طريقة أهل الكتاب .

بيان ذلك: أن مجتمع المدينة كان مؤلفا من المسلمين ومن أهل الكتاب ـ وأغلبهم اليهود ، وأقلهم النصارى ـ وكان بين المسلمين فريق من المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام وهم يبطنون الكفر ، وقد تحدث عنهم كثير من السور المدنية ، كما تحدث عن أهل الكتاب .

فسورة النساء تكلمت عن الشرك مخاطبة جميع هؤلاء الذين ضمتهم بيئة المدينة .

١ ـــ فقالت للمؤمنين « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » لتفيدهم أن الشرك بالله ليس هو اتخاذ الأوثان والأحجار فحسب ، ولكنّ هناك ألوانا من الشرك غير هذا اللون ، فكلّ من آثر على الله تعالى أحداً من الناس ، أو شيئاً من الأشياء فقد ارتكب لونا من ألوان الشرك ، لأن الإيثارَ اختيارٌ بعد الموازنة ، فإيثار طاعة الحكام فيما يخالف أمر الله ونهيه لون ، وإيثار الشهوات على الطاعات لون ، وإيثار المادة والكسب المحرم لون ، وإيثار حكم الإنسان على حكم الله فى التحليل والتحريم لون . . . وهكذا .

والقرآن الكريم ، والسنة المطهرة يسميان هذه الألوان بأسماء تدل على هذا المعنى .

فالله تعالى يقول عن الذين يحكمون الأهواء « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا » [١] ويقول عن بعض أتباع الأنبياء السابقين « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » [٢] ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبين معنى اتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا من دون الله بأنهم كانوا يحللون لهم ويحرمون ، أى يغتصبون سلطة التشريع التى لا تكون إلا لله فيقبلون ذلك منهم .

وقد أمر القرآن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يدعو أهل الكتاب إلى نبذ الأرباب حيث يقول :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » [٣]

فإذا كان المجتمع الإسلامى خاليا من شرك الأوثان ، فإن هناك ألوانا من الشرك أخرى يجب أن يحذروها ، وأن تحذرها المجتمعات دائما ، فإنها لا تختص بزمان دون زمان ، ولا بمكان دون مكان ، فما دامت الأهواء ، وما دامت الطواغيت ، وما دام المال وإغراؤه ، والجاه والحرص عليه ، ما دام هذا كله باقيا فى الناس ـ وإنه لباق ما بقى الناس ـ فيجب أن يحذروه ، ويجب أن يأخذوا أنفسهم ، كلما حدثتهم فيه أنفسهم ، بأن يتجهوا إلى إيثار الله ، على كل ما سواه .

---

(١) ٤٣ / الفرقان .
(٢) ٣١ / التوبة .
(٣) ٦٤ / آل عمران

٢ — وقالت السورة فى هذا الجانب أيضا :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »[١]

وقد جاءت هذه الجملة فى موضعين من السورة :

أحدهما : وهى بصدد الكلام عن أهل الكتاب حين نادتهم بقوله تعالى : « يأيها الذين أوتو الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم » فى عدة آيات من السورة منها قوله تعالى « انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبيناً ، ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا »[٢] .

والجبت : لفظ يطلق على السحر والساحر والشيطان ، أما الطاغوت فكل ما يتخذ من دون الله ويكون سبباً أو مصدراً للطغيان وتعدى حدود الله .

وقد أخرج ابن اسحق عن ابن عباس قال : كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش ، وغطفان ، وبنى قريظة : حُيَيّ بن أخطب ، وسلامَ بن الحقيق ، وأبا رافع ، والربيع بن أبى الحقيق . . . الخ فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار اليهود ، وأهل العلم بالكتب الأولى ، فاسألوهم : أدينكم خيرٌ أم دين محمد ، فسألوهم ، فقالوا لقريش : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه .

فهذا هو إيمان هؤلاء الكتابيين بالجبت والطاغوت ، وشهادتهم بأن عبدة

---

(١) جاءت هذه الجملة مرتين فى سورة النساء ، حيث صدرت بها كل من آيتى ٤٨ ، ١١٦ من هذه السورة .

(٢) اقرأ الآيات من ٤٧ إلى ٥٧ من سورة النساء .

الأوثان أهدى سبيلا من عَبَدة الرحمن ، وإنه لإضلال وخروج على ما يعلمون من الحق ، وإيثار لما يبغونه من الإرجاف على النبي والمؤمنين ، على ما يعلمونه من الحق المبين .

فذلك هو الموضع الأول .

أما الموضع الثاني فقوله تعالى: « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً ، إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطانا مَريدا ، لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا ، ولأضلنّهم ، ولأمنّينهم ، ولآمرنّهم فليبتّكُنّ آذانَ الأنعام ، ولآمرنهم فليُغَيّرُن خلق الله ، ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبينا ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، وعْدَ الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا »[1] .

وهو موضع ذُكّرَ فيه المؤمنون بما كان من أهل الجاهلية حيث يتخذون الشيطان وليا من دون الله ، فيستمعون إلى وحيه وأمره ونهيه ، ويتبعون ما يزينه لهم من أفعال منافية للفطرة ، مخالفة لأمر الله ، مغيرة لخلق الله ، كل ذلك إضلالا لهم وتمنيةً بالباطل .

والغاية من هذا أن تجتث السورة هذا الجذر العميق من المجتمع ، فلا تبقى له على أثر ، وتقول لهم : إن اتباع الشيطان ، والتقبل لوسوسته من شأنه أن يجر إلى مثل ما جُرَّ إليه الأولون من الضلال البعيد ، ومن هذه الأوهام والخرافات التى لا تليق بمجتمع راق مؤمن بالله ، معتقد بوحدانيته .

---

(١) الآيات من ١١٦ إلى ١٢٢ من سورة النساء .

يا أهل التثليث : انتهوا خيراً لكم :

٣ – وهناك جانب ثالث فى قضية التوحيد ، وُجّه القولُ فيه إلى النصارى خاصة ، أولئك الذين يرون الآلهة ثلاثة : الله ، ومريم ، وعيسى ، فتثبت لهم السورة أن الله هو الإله وحده ، وأن عيسى ماهو إلا رسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وأنه لن يستنكف أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون يستنكفون ذلك ، فكلهم عباد الله ، وكلهم خاضعون لله ، وأن الله مالك السموات والأرض ، وإليه الجزاء فى الآخرة ، وأن دعوة الإسلام هى برهان الله المبين إلى جميع الناس .

وذلك قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، وله مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا ، لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيُوَفّيهم أجورَهم ويزيدُهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ، يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما »[1] .

---

(١) الآيات من ١٧١ إلى ١٧٥ من سورة النساء .

٣ — العدل فى الحكم والقضاء والشهادة

١ — العدل من أهم الأركان التى يقوم عليها المجتمع الصالح ، وكل مجتمع لا يقوم على أساس من العدل هو مجتمع فاسد صائر إلى الانحلال ثم الزوال .

وقد عُنِيتْ سورةُ النساء ، كما عُنِى القرآنُ الكريم فى كثير من السور ، بأن يقيم المجتمع الإسلامى على أساس العدل القويم الذى لا يعرف الالتواء ، ولا يتأثر بالأهواء ، وقد جاءت جميع تعاليم الإسلام متمشية مع العدل ، فكل ما شرعه الله تعالى من أحكام المعاملات ، وقواعد السلوك الاجتماعى ، وتفصيل العلاقة بينَ المؤمنين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين غيرهم ؛ كلُّ ذلك قام على العدل ، ورمى إلى تحقيق العدل . ومن ضوابط الشريعة الإسلامية : أن كل تشريع لا يقوم على العدل ، والرحمة ، والمصلحة فليس من الشريعة ، وإن أدخل عليها بنوع من التأويل .

العدل فى سورة النساء :

٢ — وسورة النساء قد ساهمت بنصيب واضح فى تقرير مبدأ العدل فى الحكم ، وفى القضاء ، وفى الشهادة ، وكل المبادىء والأحكام التى أتت بها يمكن إرجاعها إلى مبدأ العدل :

١ً — فالمساواة التى تحدثت عنها فى أول آية منها ، هى أساس العدل ، ولولاها لاضطرب ميزانه .

٢ً — واعتقاد الوحدانية عدل فى الاعتقاد ، وفيه إنصاف للعقل ، لأن العقل يحكم بأن للكون صانعاً واحداً تبدو آثارُ قدرته وربوبيته فى كل ما خلق ، وفى كل ما جَعَل ، وفى كل ما أنعم ، على طراز واحد

من الاستقامة والإتقان والاطراد ، فإذا كان الأمر كذلك فلا بد للعقل من أن يحكم بأن الإله المستحق للعبادة والتوجه والخضوع دون شريك له ، هو هذا الخالق الواحد ولذلك جاء فى وصية لقمان لابنه : « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم »[1] وجاء في سورة النساء « إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، وما هذا إلا لأن المشرك قد أخل بميزان العدل إخلالا عظيما وخرج على مقتضى العقل خروجا بعيدا ، فلم يعد أهلا لأن يُغفر له ويُتجاوز عن ذنبه .

وفى هذه السورة أيضاً « ومن يشركْ بالله فقد افترى إثما عظيما » « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » .

وفى سورة الحج : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاءَ لله غيرَ مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطيرُ أو تهوى به الريحُ فى مكان سحيق »[2] .

٣ – والتضامن الاجتماعى الذى تقرره السورة فى الآيات التى تبدأ بقوله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ، هو هو أيضاً مظهر من مظاهر عدل الإسلام لأنه لا يمكن أن يتحقق التوازن على وجه يكفل الاستقرار إلا بذلك ، ولا يمكن أن يُقبَل فى العقول أن يكون أحدُ أعضاء المجتمع مُتْخَمًا بالمال والنعيم ، وبجانبه من هو مستحق لبعض ذلك ليعيش ، ثم يُغـنِى هذا المترفُ المنعَّم من أن يعاون أخاه وزميله فى مجتمعه بشىء من ماله ، إن ذلك لا يمكن أن يحكم به عاقل ، ولا يمكن أن يرتضيه نظام يقوم على العدل والتعاون .

* * *

---

(١) ١٣/ لقمان .

(٢) ٣٠ – ٣١ / الحج .

٤ ـ وإذا نظرنا إلى الأحكام فإننا نجد السورة تقرر فى أول حكم منها وجوب إعطاء اليتامى أموالهم ، وذلك وهو مقتضى العدل ، لأن الولى أو الوصى قد أخذ هذا المال ليحفظه لا ليأكله ، فإذا طمع فيه فقد جافى العدلَ ، وخرج على العهد الذى به استولى على هذا المال .

ثم تقرر هذا صراحة فى ختام آيات التوصية باليتامى فتقول : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيَصْلَوْن سعيراً »[1] فتصرح بأن الأمر راجع إلى العدل ، وأن الخروج عنه ظلم ، وأن الظلم هو النار ، وعاقبته النار .

ونجد السورة حينما تحدثت عن النساء فى أول آية جاء فيها الحديث عن النساء تقول « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » فالأمر إذن فى جواز التعدد أو عدم جوازه منوط بالعدل وجوداً وعدما .

وفى آيات المواريث تقول السورة « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقربُ لكم نفعاً ، فريضةً من الله ، إن الله كان عليما حكيما » فتشير بذلك إلى أن هذا التوزيع الإلهى مبنىٌّ على مراعاة العدل ، حيث يَعلم اللهُ تعالى مَنْ هو الأقرب نفعا ، وما نسبة هذا النفع ، فأعطى الأنصباء ، وفرض المواريث ، بحسب ما يَعلم من ذلك ، أى أنه تعالى علم دور كل عضو من أعضاء الأسرة فى أسرته ، ومقدار نفعه ، وقيمة حظه من معاونة غيره ، فقسم الفرائض على حسب علمه وحكمته وتقديره .

وهكذا كلُّ حكم من الأحكام فى هذه السورة أو فى غيرها ، إنما

---

(١) ١٠ / النساء .

يستهدف العدل ، ويقوم على العدل ، وهذا أمر منطق ، وإلا لما شُرِع ، ولما ألزم به الناس فى شريعة العدل .

آيتان جامعتان من سورة النساء فى العدل :

٣ ــ وقد جاءت آيتان متميزتان فى سورة النساء تقرران مبدأ العدل :

إحداهما قوله تعالى :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نِعِمَّا يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيراً »[1] .

وهذه الآية أصل جامع من أصول الحكم ، فهى تقرر أولا وجوب أداء الأمانات إلى أهلها ، وكلمة « الأمانات » كلمة عامة شاملة : فالحكم بين الناس أمانة ، لأن الله وسَّد للحاكم هذا المركز ، وجعله أمينا عليه ولذلك يعتبر خروجُ الحاكم عن مقتضى النصيحة والإخلاص للشعب غشاً وخيانة ، والولدُ عند أبيه أمانة ، عليه أن يحسن حفظها ، وأن يقوم على ما يصلحها ، حتى يسلمه إلى المجتمع وإلى نفسه قوياً صالحاً قادراً على حمل أعبائه ، وأداء مايؤديه مثله ، والزوجة أمانة عند زوجها ، وزوجها أمانة عندها ، على أن الزوجية لها حقوق ولها واجبات ، ولها قداسة ، فمن فرَّط ، أو خان أو أفرط فقد جافى خطة العدل ، والعلم أمانة ، والمال أمانة ، والتجارة أمانة ، وهكذا كل من أوتى شيئاً ، أو جَعل اللهُ تحت يده شيئا ، فهو حامل لأمانة عليه أن يرعاها ، ويصلحها ، ويؤديها كاملة غير منقوصة .

ثم تقرر الآية أن الحكم يجب أن يكون بالعدل ، وما الحكم إلا فرع

(١) ٥٨ / النساء .

من فروع الأمانة كما قدمنا ، وأداء الأمانة يقتضى أن يكون على أساس العدل ، ولكن لما كان الحكم يصحبه السلطان والنفوذ والقوة ، وكان من شأن الإنسان إذا قوى وتسلط وعظم نفوذه ، أن يغريه ذلك إغراء قوياً باتباع هواه ، وأن يتعرض بذلك لمجافاة العدل فى الحكم — لما كان الأمر كذلك خُصِّص الحكم بالعدل — الذى هو أمانة من الأمانات — بوصية مستقلة زيادة فى إبراز أمره ، وتوجيه العناية إليه ، ولأنه هو بذاته أساس تنبنى عليه الحياة السعيدة فى المجتمع ، والحاكم فيه قدوةٌ لغيره ، وحارس على أمانات محكوميه ، وقد ختمت الآية ببيان أن هذه الوصية ، أو هذا الأمر الإلهى ، هو أمر بشىء عظيم له قيمته وخطره ، وبأن الله تعالى هو الرقيب على تنفيذه ، لأنه هو السميع البصير فلا يغيب عنه قول ولا فعل .

والآية الثانية من الآيتين المتميزتين اللتين تقرران مبدأ العدل فى سورة النساء ، هى قوله تعالى :

يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تَلْوُوا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً «(١)

وفى سورة المائدة آية شبيهة بهذه الآية ، هى قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يَجرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قومٍ على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » (٢)

(١) ١٣٥ / النساء

(٢) الآية ٨ من سورة المائدة

وقد توافقت الآيتان فى كثير من جزئيات هذا النداء الإلهى، وإن اختلف التعبير بعض الاختلاف :

فنرى الآيتين تطلبان من المؤمنين أن يكونوا « قوامين لله » أو « قوامين بالقسط » الذى هو العدل والتوازن .

على « القوامية تبنى عظمة الأمة :

والقوام : هو المبالغ فى القيام بالشىء ، المضطلع به اضطلاعا قويا ، فهو شديد الحرص عليه ، شديدُ الوفاء له ، شديد الغيرة على تمامه وصلاحه.

إن الناس قد يشتغلون بألوان من الأعمال ، ويهتمون بكثير من الشئون ويقومون بهذا وذاك قياماً مألوفا لا يكلفهم انبعاثا خاصا ، ولا يدفعهم الى بذل جهود فوق العادة فى سبيل تجويد أعمالهم وإتقانها ، ولكننا نصادف فى الأمم ، وفى البيئات العامة أو الخاصة ، أفرادا يكون اهتمامهم بأعمالهم وما أسند إليهم . أو ما أخذوا أنفسهم بالقيام به ، اهتماما على نحو فريدٍ له شأن يلفت النظر ، ويثير الإعجاب ، ويبشر بالخير والصلاح .

إن أمثال هؤلاء يَفْنَون فى أعمالهم فناء كلياً ، ولا يدخرون فى سبيل إصلاحها وإتمامها سعيا ولا جهدا ، ويغارون عليها غَيْرة شديدة تبعث فيهم نشاطا عجيبا ، وجلدا غريبا ، وصبرا يصبح مضرب الأمثال ، ويبعث فى غيرهم احتراماً لهم ولعملهم ، وهيبة من أن يقفوا فى سبيلهم .

ترى الواحد من أمثال هؤلاء لا همّ له إلا أن يحقق النجاح لما اضطلع به من شأن ، ولا شىء فى نظره يمكن أن يَلْويَه عن ذلك أو يصدّه ، فلا هو بالحريص على غنى أو مجد يناله ، ولا هو بالضعيف عن عقبات أو صعاب تعترضه ، ولا هو بالناكص على عقبيه إذا طال عليه الأمد ، أو تعقدت بين يديه العُقَد .

هذا هو « القوّام » بالشيء ، وهذا هو الذى يطالب الله إلى المؤمنين أن يكونوه له وللعدل ، فهو يريد أن يكونوا « قوامين لله » ، « قوامين بالقسط » ، مضطلعين بهذا وذلك على نحو قوىّ ظاهر القوة ، لا أن يكونوا صُوَرا ضعيفة هزيلة ، يَرضَون بأيسر الأمور ، وأدنى الآمال ، ولا يبذلون أكرم الجهود ، ويتلمسون المعاذير عن ضعفهم وتخاذلهم ، وهذا نوع من ألوان التربية للشعوب ، والعمل على إيجاد رأى عام قوىّ فيها كما يقول علماء الاجتماع ، يكون مهيباً محترماً ، يوجّه إلى الخير العام الذى يصوره هذا التعبير البليغ الجامع : « كونوا قوامين » ، فكل الناس مطالبون بأن يكونوا على هذه الصفة ، ذوى شخصيات قوية ، مضطلعة بما تضطلع به فى ثبات وعزم وشجاعة ، واضطلاعها بذلك لله ، فهو قصدها ، وهو باعثها ، وهو ملهمها ، وهو غايتها ـ عندئذ يكونُ الحاكم « قواما لله» «قواما بالقسط» ويكون المحكوم « قواما لله » « قواماً بالقسط » ويكون الناصح كذلك ، والمنتصح كذلك ، والعامل كذلك ، والموظف كذلك ، كلٌ فيما خوّله الله ، قوّام لله ، قوام بالقسط ، وعندئذ تكون الأمة بناء قويا ، من لبنات قوية ، وتكون فى حصانة من أن تُهضَم أو تُهدَم أو تُهزَم أو تُظلَم أو تُهمَل .

* * *

وقد اختلف التعبير بين آية النساء وآية المائدة فى أول هذا النداء ، إذ تقول سورة النساء « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » وتقول سورة المائدة « كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط »

وفى هذا الاختلاف إيحاءٌ بأن كلاًّ منهما يَصحّ أن يوضع موضع الآخر وأن « القوّامية لله » هى « عين القوامية بالقسط » و « الشهادة لله » هى عين الشهادة بالقسط » ولا شك أن ذلك تنويه عظيم بشأن القسط والشهادة لله .

والشهادة بالقسط إظهاره للحاكم ليحكم به . وإظهاره من الحاكم بالحكم ، فالحكام مطالبون بأن يكونوا شهداء بالقسط ، على معنى أن يظهروه ويؤيدوه ويحكموا به ، والناس مطالبون بأن يكونوا شهداء بالقسط على معنى أن يُدلوا به إلى من وَلوه حكمهم ، وأن يظهروه عليه ، ويؤيدوه فيه ، ويرضَوا به ، ولا يخرجوا عليه .

القسط صمام الأمن فى كل مجتمع :

والقسط صمام الأمن فى كل مجتمع ، وهو فى الحكم والشهادة والعقيدة والعمل والحب والبغض وغير ذلك أساس الاستقرار والطمأنينة فى الناس ، فما دام ميزانه صادقا ، والأيدى التى تمسك به أمينة حفيظة ، فالمجتمع بخير وسعادة ، وأما إذا اختل ميزانه ، أو اعتل من وُكل إليه أمره ، فهنا الشقاء كل الشقاء ، وهنا التزعزع أشد التزعزع ، وهنا ضياع الثقة بين الناس بعضهم وبعض ، وبين الحاكمين والمحكومين . وهنا تربُّص كل فريق بصاحبه ، وتحيُّن الفرص للإيقاع به ، وهنا — لذلك كله — ضعف الأمة ، وطمع أعدائها فيها ، ثم انقضاضهم عليها ، ثم استعبادهم لها « وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

العدل ميزان لا يتأثر بالحب ولا بالشَّنَآن :

ثم إن سورة النساء تقول « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » فتنهى عن ملاحظة عوامل التعصب للنفس ، أو التحيز للقرابة ، مما يبعث على تلوين العدل بغير لونه ، وإعطاء المشهود له ما لا يستحقه ، وذلك هو الإخلال بالعدل عن طريق محاباة النفس أو من تميل إليه النفس .

ويقابل هذا فى سورة المائدة « ولا يجرمنّكم شَنَآنُ قوم على ألا تعدلوا » وهو نهى عن ملاحظة عوامل الكراهية ، ومن شأنها أيضاً أن تلوّن العدل

بغير لونه ، وأن تحمل على التحيُّف وإضاعة الحق ، وذلك هو الإخلال بالعدل عن طريق الإجحاف بصاحب الحق ، والحيلولة بينه وبين الوصول إلى حقه .

ثم تجد تقابلا آخر بين الآيتين فى السورتين ، ذلك أن سورة النساء تقول « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » أى إن يكن المشهود له أو عليه غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا يكنْ غناه أو فقره مبرراً لِلَىّ الشهادة أو الإعراض عنها ، وسورةُ المائدة تقول « اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى فالعدل أقرب للتقوى وإرضاء الله ، من ملاحظة دواعى الكراهية والشنآن ، ويتكون من هذا وذاك قاعدة ، هى أن العدل يجب ألا يتأثر أو يتلون بمبررات عاطفية فيلاحَظ فيه غِنَى غَنِىّ ، أو فقر فقير ، أو كراهية عدوّ ، أو محبة وَلِىّ ، فإن العدل أقرب إلى مرضاة الله ، وأدعى إلى تقبله سبحانه .

البغض فى الله لايبرر الانحراف عن العدل :

ولعل فى آية المائدة إشارة إلى الحالات التى يكون فيها الشَّنَـآنُ لله ، لا لغرض شخصى أو دنيوى ، فإن المكروهين حتى لمثل هذا الغرض الشريف ، الذين تقر الشريعة بعضهم ، بل تأمر به ، يجب أن يتمتعوا مع هذه الكراهية بالعدل وإيفاء الحق ، فلو أننا وازنا بين المصلحة فى إقامة العدل لهم ، كما يقام لسائر الناس ، وبين ما يُتَوَهَّم من المصلحة فى ظلمهم والحيف عليهم ، انتقاما منهم ، وضغطاً عليهم بحجة أنهم أعداء الله ، والخارجون على أمره ، والمفسدون فى أرضه ؛ لوجدنا المصلحة الأولى أحقَّ بالاعتبار ، وأشبهَ بالسموّ الذى يريده الله لبنى الإنسان وأقرب لتقوى الله ، وأدنى

إلى تحقيق مرضاته ، أما المصلحة الأخرى فليست بجانب هذه إلا وهما يخيّله الشيطانُ ليفسد به العدل على المؤمنين ، ويدس به عليهم ، كيدا لهم وخداعا ، وإيقاعا بهم وبمجتمعهم ، على أن أمر الكراهية والشَّنَآن غير منضبط ، فكثيرا مايظن الإنسان أنه يكره امرءاً لا يكرهه إلا فى الله ، والواقع أنه يكرهه كراهة شخصية لسبب من الأسباب بداله أو خفى عليه ، وليس من الحكمة أن تعلّق العدالةَ بهذه العاطفة المتأرجحة غير المنضبطة ، وإنما الحكمة كلُّ الحكمة فى أن تكون العدالة حرةً مطلقةَ الحرية ، محايدةَ لاتعرف المحاباة ولا الكراهية ،ولذلك يمثلونها فى هذا العصر شخصاً معصوب العينين حتى لا يرى ما يتأثر به ، وفى يده ميزان مستقيم .

هذه هى عدالة الإسلام التى يأمر بها القرآن ، ولا يرضى إلا بها ربُّ القرآن ، والتى لاتعرف عدوا ولاصديقاً ، ولا قريباً ولا بعيداً ، والتى تضع أمام الناس هذه الحقيقة الصادقة . إذ تثبت ميزان العدالة فى أيدى الممسكين به ، وتخوّفهم من أن يلتووا به ، أو يعتدوا على قدسيته ، مع علم الله بهم ، وخبرته التامة بأعمالهم ، « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

قضية فيها درس وعبرة :

٤ — وفى سورة النساء بعد هذا تسع آيات تتحدث عن قضية من القضايا عرضت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان فيها نوع من التآمر يراد به لفتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الحقيقة ، وتحويله عن الحكم الصحيح .

وقد قدَّمنا بعض الكلام عن هذه القضية فى الفصل الذى عرضنا فيه آيات السورة عرضا إجمالياً ، وهنا نزيد هذا الموضوع بيانا ليتجلى للقراء مدى اهتمام القرآن والإسلام عامة ، بالعدل فى القضاء :

١ — فأما الآيات التسع فهى قوله تعالى :

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ، واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يُبيِّتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ، هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا ، ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما ، ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه ،وكان الله عليما حكيما ، ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يَرْمِ به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبينا ، ولولا فضل الله عليك ورحمتُه لهمَّت طائفة منهم أن يُضلوك وما يُضلون إلا أنفسهم وما يُضرُّونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » (1) .

٢ — وأما قصة هذه القضية التى تتحدث عنها هذه الآيات فقد رويت فى عدة روايات منها ما رواه الإمام البغوى فى تفسيره « معالم التنزيل » حيث يقول : « روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ... » فى رجل من الأنصار يقال له طعمة ابن أبيرق من بنى ظفر بن الحارث سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع فى جراب له فيه دقيق — أو نخالة كما فى رواية أخرى — فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى الدار ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، فالتُمست الدرع عند طعمة ، فحلف بالله ما أخذها وما له بها مَن علم ، فقال أصحاب الدرع : لقد

(1) الآيات من ١٠٥ إلى ١١٣ من سورة النساء .

رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره ، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودى فأخذوها منه فقال اليهودى : دفعها إلىّ طعمة بن أبيرق ، فجاء بنو ظفر — وهم قوم طعمة — إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسألوه أنْ يجادل عن صاحبهم وقالوا له : إنك إن لم تفعل افتضح صاحبنا ، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعاقب اليهودى» (١) .

وهناك روايات أخرى ذكرها القرطبى وغيره ، ومنها رواية مطولة لابن إسحق ذكرها ابن كثير فى تفسيره نقلا عن أبى عيسى الترمذى عند تفسيره هذه الآية من جامعه ، وعن ابن جرير فى تفسيره (٢) .

٣ً — ويظهر من هذه الروايات أنه كان هناك تبييت يدبَّر لصرف النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن الوصول إلى الحقيقة فى هذه القضية ، وكان مصدرَ هذا التبييت قومُ طعمة بن أبيرق الأنصارى الذى سرق الدرع ، وأن القوم حاولوا استغلال عاطفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من حيث إنهم مسلمون وأن الذى ألقوا عليه تهمة السرقة ليخلصوا صاحبهم منها ، هو ذلك اليهودى المسمى بزيد بن السمين ، وكأنهم ظنوا فى أنفسهم أن الأمر أمر عصبية دينية ، وأن رسول الله ممن تأخذهم هذه العصبية فى الحكم والقضاء .

الرسول إنما يقضى بما
يتبين له حسب اجتهاده :

ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما مال إلى ما يقولون ، وهمّ

---

(١) ٥٧٣ من الجزء الثانى من تفسير البغوى (طبعة المنار سنة ١٣٤٣ التى جمعت بين هذا التفسير وتفسير الحافظ ابن كثير) .
(٢) ٥٧٤ من الجزء الثانى من تفسير ابن كثير (الطبعة المشار إليها) .

بعقوبة اليهودى لأنه رجح صدقهم، لإسلامهم وظنّه فيهم الخير، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين يقضى إنما يقضى بما يتبين له، ويترجح عنده بحسب الأحوال والقرائن والشهادات، فقد ثبت فى الصحيحين عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع جَلَبة خَصْم [١] بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «إلا إنما أنا بشر، وإنما أقضى بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحَنَ بحجته [٢] من بعض فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو ليَذَرْها»، وروى الإمام أحمد بسنده عن أم سلمة قالت «جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواريث بينهما قد دَرَست ليس عندهما بينة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنكم تختصمون إلىّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها انتظاماً فى عنقه يوم القيامة» فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقى لأخى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما، ثم تَوَخَّيا الحقّ بينكما، ثم استَهِما [٣] ثم ليحلل كلٌّ منكما صاحبه».

غير أن الله تعالى بين لرسوله الحق فى هذه القضية، ونهاه عن معاضدة أهل التهم والدفاع عنهم والتقبل لما يقولونه عن خصومهم قبل تبين أنه حق،

---

(١) الخصم: المخاصم وقد يجىء للمؤنث والمثنى والجمع، ومن الأخير قوله تعالى: «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب» ٢١ / ص.

(٢) أى أقوى وأشد لها فهماً، وعنها إبانة.

(٣) اقترعا لينال كل منكم نصيباً بالقرعة.

لا بمجرد إحسان الظن بهم ، وحق المخالف فى الدين كحق الموافق ، كلاهما مصون محفوظ بالعدل .

وقد كانت هذه القصة موضع شرح وتعليق ، وتأويل وتحقيق واستنباط لبعض المبادىء الأصولية ، والأحكام القضائية ، حتى شغلت المفسرين والأصوليين والفقهاء ورجال القضاء ، والذى يهمنا منها الآن هو أن سورة النساء قد سجلتها ، وجعلت منها حادثا تطبق فيه عدالة الإسلام ، التى لا ترضى بأن يهضم اليهودى أمام المسلم ، وأن تستكمل البينات ، ويدقق فى تبينها قبل الحكم على الناس ، وأن الرسول مطالب بذلك من ربه ، فى هذا البيان القوى الجلى الذى لا يخلو من بعض اللوم والتثريب [1] .

ولسنا فى هذا المقام بصدد بيان القواعد والأحكام المستنبطة من هذه الآيات ، فلذلك موضع آخر .

---

(١) بعض العلماء يجوزون الصغائر من الأنبياء ، ويقولون فى مثل هذه الآية : إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لماهم بالدفع عنهم وقطع يد اليهودى ، كان بذلك فاعلا مايجب عليه الاستغفار منه فقال الله تعالى له : « واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما » و بعضهم يؤول تأويلا يناسبه القول بعدم وقوع الذنب من الأنبياء أصلا .

٤ — التضامن الاجتماعى العام

« مسئولية الفرد عن نفسه ، وعن أفراد مجتمعه »

توحيد الله ، والإحسان إلى الناس :

١ — الآيات الرئيسية التى تتحدث عن مبدأ التضامن فى سورة النساء هى قوله تعالى :

« واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجُنُب ، والصاحب بالجنب ، وابنِ السبيل ، وماملكت أيمانكم ، إن الله لايحب من كان مختالا فخوراً ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا ، والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ، ومن يكنِ الشيطان له قرينا فساء قرينا ، وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ، إن الله لايظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيما ، فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ، يومئذ يوَدّ الذين كفروا وعصَوُا الرسول لو تُسوَّى بهم الأرض ولايكتمون الله حديثاً »[1]

فالله جل جلاله يأمر عباده أن يقيموا مجتمعهمَ على أساسين :

الأول : عبادته وحده لاشريك له فى التوجه والدعاء ، ولا فى التشريع بالتحليل أو التحريم .

وقد تقدم الكلام عن هذا المبدأ .

(١) الآيات من ٣٦ الى ٤٢ من سورة النساء

الثاني : أن يكونوا متضامنين متكافلين « كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » كما صوّرهم رسولُ الله صلوات الله وسلامه عليه .

صور الإحسان :

٢ــ وقد أجملت هذه الآيات ما أمرت به في شأن هذا التضامن والتراحم في كلمة جامعة شاملة هي كلمة (الإحسان) فقالت « وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى » . . . الخ .

والإحسان مرتبة فوق العدل ، فإذا تعاملتَ مع الناس فأخذت منهم حقك وأعطيتهم حقوقهم ، فقد جريت على سنة العدل والمبادلة بالحق ، ولكن إذا تجاوزت هذه المنزلة إلى ما هو فوقها من الرفق والإيثار ، فقدمت لله ولإخوانك في المجتمع بعض حقك راضياً لتنفع به من هو في حاجة إليه ، أو تقبلت منهم أقل مما لك لهذا الغرض الشريف ، فأنت تجرى على سنة « الإحسان » ، والله يأمر بالعدل والإحسان .

وليس الإحسان هو تلك الصورة التي تطوّر إليها معنى اللفظ في مجتمعنا ، وهي إعطاء الفقير المحتاج شيئاً فحسب ، وإنما هو أوسع دائرة من ذلك ، فهو يشمل كل نوع من أنواع المعاملة فيه سموّ ، وفيه برّ ، وفيه تطبيق لمبادىء الفضيلة ، وإيثار للسلوك القويم :

للإنسان مع والديه نوع من المعاملة أساسه التكريم والرعاية ، وحسن الأدب ، ورد الجميل ، ومكافأة العاطفة بالعاطفة ، والصبر على ما عسى أن يكون لهما من متاعب أو أخطاء أو إساءات ، فهذا هو الإحسان بالوالدين .

وللإنسان مع ذوى قرباه نوع آخر من المعاملة والمجاملة يقوم

على أساس من الصلة والبر والمودة والتجاوز والغفران ، فهذا نوع آخر من الإحسان .

وللإنسان نوع من المعاملة مع اليتامى يقوم على أساس من الرحمة واللطف ورقة القلب ، وإدراك أن هذا اليتيم قد فقد من كان يحبه ، ويمنحه الود صافياً ، ويستعذب العذاب فى سبيله ، وأنه أصبح وحيداً فى حياته يعانى آلام هذا اليتم ، ويرى الأبناء من حوله يعانقون آباءهم ولا يرى له أبا يعانقه ، فهذا يرحمه ، ويحبه ، ويجعل رحمته إياه وحبه فى مظهر كريم لايجرحه ، ولا يسيء إلى عاطفته ، ولا يشعره بأن هذا يُفعَل معه من أجل أنه يتيم .

فهذا نوع ثالث من الإحسان ، وهكذا لكلٍّ أسلوبٌ من المعاملة يليق به ، ويشعر معه بأنه عضو ذو قيمة فى المجتمع ، وأن زملاءه فى هذا المجتمع لم ينكروه ، ولم يتنكروا له ، ويحمله ذلك على أن يحب هذا المجتمع ، وينزع من صدره ما جرت العادة بأن يكون فى صدور المحرومين من حرج وضيق ، أو من حقد وضغن .

والذى يقال فى القريب ، وفى اليتيم ، يقال مثله وعلى هداه ، فى المسكين وفى الجار ذى القربى ، وفى الجار الجنب ، وفى الصاحب بالجنب ، وفى ابن السبيل ، وفيما ملكت الأيمان ، كلٌّ له أسلوب يجب أن يعامل عليه ، وكلٌّ له حقوق يجب أن تُرْعى ، وأن تتحقق برعايتها صورة التضامن الاجتماعى كاملة واضحة جميلة .

ولهذا أجملت الآيات ما أوصت به إلى هؤلاء جميعاً فى كلمة جامعة هى « الإحسان » .

٣ — أما الذين أوصت بهم ، وبأن يوصِّل إليهم المجتمع هذا الإحسان .

فقد استقصيتهم استقصاء ، وعنيت بأن تعُدَّهم . وقد اختلفت الروايات التى جاءت بها كتب التفسير فى المراد ببعضهم :

فقيل مثلا : الجار ذو القربى ، هو الذى بينك وبينه قرابة ، والجار الجُنُب هو الذى ليس بينك وبينه قرابة ، وقيل : بل الجار ذو القربى هو الجار المسلم ، والجار الجُنُب هو اليهودى والنصرانى .

وقيل بل الجار ذو القربى هو الزوجة ، والجار الجنب هو الرفيق فى السفر . .

وكذلك اختُلف فى « الصاحب بالجنب » فقيل هو الزوجة ، وقيل هو الرفيق فى السفر ، وقيل هو جليسك فى الحضر ، ورفيقك فى السفر .

وكذلك تعددت آراؤهم فى المسكين وفى ابن السبيل وليس من سبيلنا أن نستقصى ذلك ، فحسبنا أن نعلم أن هذه الآراء كلها تُعَيِّن أعضاء فى المجتمع يقع عليهم الإحسان الذى أمر به ، وبذلك يتحقق ما يرمى إليه الإسلام من تضامن وتكافل .

تحذير المجتمع من مظاهر « الأرستقراطية » :

وهى الاختيال والفخر والتعالى على الناس ، ومن مظاهر « الأنانية » وهى : البخل والتبخيل ، وكتمان النعمة ، ومراءاة الناس :

٤ ــ ختمت الآية الأولى من هذه الآيات بقوله تعالى : « إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » .

والمختال : المتكبر .

قال أبو إسحق : المختال الصَّلِف المتباهى الجَهُول الذى يأنف من ذوى قرابته إذا كانوا فقراء ، ومن جيرانه إذا كانوا كذلك ، ولا يحسن عشرتهم ، ويقال : هو ذو خَيْلة أيضا .

قال الراجز :

يمشى من الخَيلة يوم الورْد   بَغْيا ، كما يمشى ولىُّ العَهْد !

وفى الحديث « مَن جَرَّ ثوبَه خيلاءَ لم ينظر الله إليه » و « بئس العبدُ عبدٌ تخيل واختال » .

والعرب تقول : رجل أخَائلٌ ، أى ذو خيلاء معجَبٌ بنفسه ، ولا نظير له فى الصفات إلا « رجلٌ أدَابرٌ » ، وهو من لا يقبل قول أحد ، ولا يلوى على شىء ، و « رجل أباترٌ » وهو الذى يبتر رحمه ويقطعها[1] .

والفخور : من كان كثير الفخر والتعالى على الناس .

وإنما ختمت الآية بذلك لأن الكبر والاختيال من عوامل غَمْط الحق[2] ، وبطَر النعمة ، كما ورد فى بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فالمتكبر يترفع عن مجتمعه ويرى أنه أعلى من أفراده ، وأكبر من أن ينزل إليهم ، أو يعطف على المحتاجين منهم ، ولا يرى لأحد عليه حقاً ، وذلك أيضا بطر للنعمة ، لأن النعمة يجب أن تُشكر ، وشكرُها من جنسها .

فالله تعالى يحذّر الناس من الكبر الذى هو عادة منشأ الظلم وغمط الحق ، وبطر النعمة بعدم شكرها ، والغفلة عن حقها .

ثم تعطف الآيات على هذا أوصافا أخرى مما يحول عادة بين الناس وإعطاء الحقوق ، والقيام بواجب التكافل ، فتذكر « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » .

فالبخل خلق يمنع صاحبه من العطاء ، ويجعله قابضاً على ما معه ، ممسكا

---

(١) لسان العرب مادة (خيل) .   (٢) غمط الحق : جحده

به ، حريصا عليه ، ومن شأنه أن يفسد خُلق صاحبه ، وأن يجعله قاصراً عن التطاول والسموّ إلى أية منزلة فاضلة ، فهو أنانى أثِر منكمش ليست له فى العادة ميول الاجتماعىّ ، وإنما هو نَفُور من الناس ، حريص على أن يظل منطوياً على نفسه ، مشغولا بجمع ماله ، يخشى أن يتردد عليه الناس ، أو يتردد عليهم ، فيفجعوه فى شىء من ماله الذى هو شقيق روحه ، وقصارى همته .

هذا صنف من الناس تبتلى به المجتمعات فيكون عليها وبالا ، ويكون على نفسه وبالا ، وخلقه هذا هو مَظهر من مظاهر المجتمعات المفككة التى غلبت عليها المادية والمصالح الشخصية ، فترى كل فرد من أفرادها لاهمّ له إلا أن يجمع ما استطاع من المال والمنافع ، وأن يحجز ما استطاع لديه فلا يبذله ولا يجود به ، وكلما كثر أمثال هؤلاء فى المجتمع ، عُجل عليه الفساد والانحلال ، ثم أدركه الفناء والزوال ، وليس الزوال والفناء دائما حسيين بمعنى الانقراض وضياع الأشخاص ، ولكن قد يكون الزوال والفناء معنويين ، فكم من أمم تعيش ، وكم من مجتمعات تتحرك وتنشط ، ولكنها فى الواقع ميتة ، قد أدركها من الموت الأدبى ماهو أشد من الموت الحسىّ ، وفى بعض الأمثال : الدَّمَارُ ولا العار .

ثم هذا الصنف عادة ، وهو البخلاء المانعون ، لا يكتفون بأن يبخلوا هم أنفسهم ، حتى يأمروا الناس بالبخل ، وذلك لأنهم لا يحبون أن يتقرر مبدأ العطاء والجود ، حتى لا يعود ذلك عليهم بما يخافون ، وحتى لا يكون هناك سبيل إلى مطالبتهم ، فهم يريدون البخل مبدأ متقرراً فى المجتمع كما هو مبدأ متقرر عندهم ، ولهذا نرى القرآن الكريم لا يكتفى بذم البخلاء ، بل يذم أيضاً الذين يأمرون الناس بالبخل ، كما نراه لا يكتفى بأن يطلب إلى الناس أن يكونوا معطين أجوادا ، ولكن يأمرهم أيضاً بأن يحضّوا

غيرهم على الإعطاء والجود ، وذلك بإعلان الصدقات أحيانا ، وبأمر الناس بها أحيانا ، وفى القرآن الكريم ذمٌّ للذين لا يحُضون على طعام المسكين ، قد أُخرِج على صورة تدل على أنه لون من ألوان التكذيب بيوم الدين ، وذلك حيث يقول الله جل شأنه : « أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يَدُعُّ اليتيمَ ، ولا يَحُضُّ على طعام المسكين »[1]

وتراهم مع هذا يكتمون ما آتاهم الله من فضله ، ويتظاهرون بأنهم فقراء أو مدينون ، أو مثقَلون بتكاليف الحياة ، ولهم دائما موقف الشكوى والتبرم وإنكار النعمة .

هذا هو موقف الباخلين ، وهذا هو الذى يريد القرآن أن يحذّر منه أفراد المجتمع ، لأنه هو مدار اختلاله وانحلاله وهلاكه ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أى داء أدوأ من البخل » ويقول « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم : أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » .

وقد أُعقِبَتْ هذه الأوصافُ فى الآية الكريمة بقوله تعالى : « واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » ، وهو إنذار ووعيد للكافر ، ومن معانى الكفر الستر والتغطية ، والبخيل يكفر النعمة ، أى يسترها ويغطيها ولا يحب أن تظهر عليه ، وجزاء ذلك عند الله هو عكس مقصوده ، وذلك بأن يعذبه الله عذاباً مهيناً ، فهو قاصدٌ أن يَعَزَّ بالمال ، وأن يضمن كرامته باكتناز المال ، فيعاقبه الله بنقيض مقصوده ، فيصبح ماله سبباً فى إهانته وفى تعذيبه بالسقوط فى المجتمع ، وضياع المنزلة والكرامة ، وهذا خزى له فى الدنيا ، وليس بمانع عنه العذاب يوم القيامة .

---

(١) ١ — ٣ / سورة الماعون :

الجود بالمال :

وفى القرآن الكريم ثناء على الجود والإيثار ، يقابل هذا الذم للشح والكتمان والأثرة ، وذلك فى مواضع كثيرة منها قوله تعالى عن الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين مرحبين أجوادا باذلين : « والذين تبوءوا الدارَ والإيمانَ من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة ، ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون »[1] .

٥ — وتذكر الآيات بعد هؤلاء صنفاً آخر من المختالين الفخورين أفضى بهم اختيالهم وفخرهم إلى خلق ذميم ، كما أفضى هذا الاختيال والفخر إلى البخل والكتمان .

هذا الصنف هم الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فليس هؤلاء كالذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما أتاهم الله من فضله ، ولكنهم يبذلون ويجودون بالمال ، غير أنهم لا يقصدون من البذل والعطاء إلا الرياء والسمعة ، فهم لا يؤمنون بالله ربا مجازيا على الحسنات ، ولا يؤمنون بيوم الحساب ، حتى يتجهوا إلى طلب الثواب من الله ، وكل ما يؤمنون به أن يظهروا فى المجتمع بمظهر الباذل المنفق ، وهؤلاء لا يكون إنفاقهم وبذلهم مستقراً ولا باقيا بل يكونون فيه متزلزلين .

وقد دأب بعضُ الأغنياء على أن يقدموا بعض الهبات أو التبرعات ، موافقة لبعض الحكام ، أو اجتلاباً للمنزلة عندهم ، أو رجاءً فى إقرار أمرٍ ،

---

(١) الآية ٩ من سورة الحشر .

أو الموافقة على منفعة لهم ، فهؤلاء إنما ينفقون المال رئاء الناس ، وقد شهدتُ بنفسى رجلا من الأغنياء ، قدَّم ذات يوم « تحويلا » على أحد المصارف إلى حاكم سابق ليعطيه تبرعا إلى معهد على معروف ، ثم تصادف أن هذا الحاكم خلع بعد أيام ، فعاد يسترد تبرعه من الجهة التى تبرع لها دون أن يأخذه شىء من الحياء . فمثلُ هذا لا يبغى وجه الله ، وإنما يبغى وجه الحاكم ، فلما ذهب الحاكم استردّ هبته ، وفى حديث الثلاثة الذين هم أول من تُسْجَرُ بهم النار ـ وهم : العالم ، والغازى ، والمنفق ، المراءون بأعمالهم ـ يقول صاحب المال يوم القيامة لله تعالى : ما تركتُ من شىء تحبُّ أن يُنفَق فيه إلا أنفقتُ فى سبيلك ، فيقول الله : كذبتَ إنما أردتَ أن يقال جواد ، فقد قيل .

٦ ـ وحسبنا هذا مِنْ تتبع ما ذكرته الآياتُ ، وبيان ما ترمى إليه ، فقد وضح أنها تريد أن تبنى مجتمعا متكافلا متضامنا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

ولكننا نورد بعض ما جاء فى السنة المطهرة حثا على هذا المبدأ ، وتطبيقا على مقتضاه :

السنة والتضامن الاجتماعى :

١ ـ يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى العالية عن رجل من الأنصار قال : خرجت من أهلى أريد النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فإذا به قائم ورجلٌ معه مقبل عليه ، فظننتُ أن لها حاجة ، قال الأنصارى : لقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى جعلت أرثى له من طول القيام ، فلما انصرف

قلت يا رسول الله لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثى لك من طول القيام ، قال « وقد رأيته ؟ » قلت نعم ، قال « أتدرى من هو ؟ » قلت : لا ، قال : « ذاك جبريل ، ما زال يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » . ثم قال : « أما إنك لو سلمتَ عليه لردّ عليك السلام » .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الجيران ثلاثة ، جار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فأما الجار الذى له حق واحد ، فجارٌ مشرك لا رحم له ؛ له حق الجوار ، وأما الجار الذى له حقان ؛ فجار مسلم ؛ له حق الإسلام ، وحق الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق ، فجار مسلم ذو رحم ؛ له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم »[1] .

٢ ـ وقال عليه وآله الصلاة والسلام : إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو ـ أى قلّ زادهم ـ أو قل طعام عيالهم بالمدينة ؛ جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد ، فهم منى وأنا منهم » .

وقد علّق أبو إسحاق الشاطبىّ فى الموافقات على هذا الحديث فقال : « ذلك أن مُسقط الحظ هنا قد رأى غيره مثلَ نفسه ، وكأنه أخوه أو ابنه أو قريبه أو يتيمه أو غير ذلك ممن طلب بالقيام عليه ندباً أو وجوباً ، وأنه قائم فى خلق الله بالإصلاح والنظر والتسديد ، فهو على ذلك واحد منهم ، فإذا صار كذلك لم يقدر على الاحتجان[2] لنفسه دون غيره ممن هو مثله ، بل ممن أمر بالقيام عليه ، كما أن الأبَ الشفيق لا يقدر على الانفراد بالقوت دون أولاده ، فعلى هذا الترتيب كان « الأشعريّون »

---

(١) راجع إسناد هذه الأحاديث فى تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٤٣ .
(٢) احتجن المال : ضمه إلى نفسه واحتواه .

رضى الله عنهم ، فقال عليه الصلاة والسلام « فهم منى وأنا منهم » لأنه عليه الصلاة والسلام كان فى هذا المعنى الإمامَ الأعظمَ ، وفى الشفقة الأبَ الأكبرَ إذ كان لا يستبد بشىء دون أمته . . . وهو نظر من يَعُد المسلمين كلهم شيئاً واحداً على مقتضى قوله عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقوله : « المؤمن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه » وسائر ما فى المعنى من الأحاديث ، إذ لا يكون شَدُّ المؤمن للمؤمن على التمام إلا بهذا المعنى ، وكذلك لا يكونون كالجسد الواحد إلا إذا كان النفع واردا عليهم على السواء ، كلٌّ أحد بما يليق به ، كما أن كل عضو من الجسد يأخذ من الغذاء بمقداره قسمةَ عدل لا يزيد ولا ينقص ، فلو أخذ بعض الأعضاء أكثر مما يحتاج إليه أو أقل ؛ لخرج عن اعتداله ، وأصلُ هذا من الكتاب ما وصف الله به المؤمنين من أن بعضَهم أولياءُ بعض ، وما أمروا به من اجتماع الكلمة والأخوة وتَرْك الفرقة ، وهو كثير ، إذ لا يستقيم ذلك إلا بهذه الأشياء وأشباهها مما يرجع إليها . . . . . .
وقد كان عليه الصلاة والسلام « أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان فى شهر رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل أجودَ بالخير من الريح المرسلة » وقالت له خديجة : « إنك لتحمل الكَلَّ وتَكسب المعدومَ ، وتعين على نوائب الحق » وحُمِلَتْ إليه تسعون ألف درهم فوُضِعَتْ على حصير ثم قام إليها يقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها ، وجاءه رجل فسأله فقال : « ما عندى شىء ، ولكن ابْتَعْ علىَّ ـ أى اشتر حاجاتك على حسابى دَيْناً علىَّ ـ فإذا جاء شىء قضيناه » فقال له عمر : ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره النبىُّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله

أنفق ولا تخشَ من ذى العرش إقلالا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعُرِف البِشْرُ فى وجهه ، وقال « بهذا أُمِرتُ » .

الجود بالنفس :

وهكذا كان الصحابة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » : إيثارٌ بالملك وإيثارٌ بالنفس ، وفى الصحيح أن أبا طلحة ترّس على النبى صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد - أى جعل نفسه تُرْساً له يقيه من أن يصاب - وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتطلع ليرى القوم ، فيقول له أبو طلحة : لا تُشْرِف يارسول الله يصبك سهمٌ من سهام القوم ، نَحْرى دون نحرك ! ، ووقى بيده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشَلّتْ .

وهو معلوم من فعله عليه الصلاة والسلام ؛ إذ كان فى غزوه أقربَ الناس إلى العدو ، ولقد فزع أهلُ المدينة ليلة فأنطلق ناسٌ قِبَل الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راجعاً ، قد سبقهم إلى الصوت ، وقد استَبْرأ الخبرَ على فرس لأبى طلحة عُرى - أى بدون ركاب ولا زمام ولا ما يُركب عليه من ليّن أو خشن - والسيفُ فى عنقه - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول : « لن تُراعُوا » وهذا فعل من آثر بنفسه ، وحديثُ على بن أبى طالب فى مبيته على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عزم الكفارُ على قتله مشهور ، وفى المثل السائر « والجود بالنفس أقصى غاية الجود » [1] .

القتال مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعى :

قيمته كتضحية عظمى ، وأهدافه ، وآدابه :

٧ - وعلى هذا الأساس وهذا المبدأ ، الذى هو التضامن والتكافل

---

(١) ص ٢٠٣ من الجزء الثانى من الموافقات لأبى إسحاق الشاطبى .

بين الفرد وشركائه فى المجتمع ، أمر المؤمنون بالقتال فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وجاءت آيات من سورة النساء تبين مشروعية القتال ، وأهدافه ، ومَن الذين يقاتَلون ، ومَن العدوّ الداخلى المثبط الذى يجب أن يحذروه وأن يحصّنوا أنفسَهم من كيده وفتنته .

وقد جاءت هذه التفاصيل — كما أشرنا من قبل فى أربع وثلاثين آية من السورة ، تبدأ من الآية الحادية والسبعين : « يأيها الذين آمنوا خذوا حِذْركم » وتنتهى بالآية الرابعة بعد المائة : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما » .

فإذا نظرنا إلى هذه الآيات من حيث ما جاءت به من المبادىء المقرّرة للتضامن ، والتكاليف المنبعثة عنه ، فإننا نجدها :

١ً — تقرر أن القتال إنما هو تضحية بالنفس فى سبيل الله ، وبيعٌ للحياة الدنيا فى نظير ثمن وأجرٍ عظيم يجب أن تتجه إليه أنظار ذوى الهمم العالية ، والنفوس الشريفة ، وهذا هو قوله تعالى « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتلْ أو يَغلِبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيما — ٧٤ » .

٢ً — وتقرر أن القتال فى سبيل الله له هدف إنسانى تضامنى هو إنقاذ الضعفاء ، وإقامة العدل بإنصاف المظلومين ، وإشعارهم بأن لهم أولياء ونصراء فى الله ، لا يبتغون على ذلك جزاءً ولا شكوراً .

وهذا هو قوله تعالى : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها ، واجعلْ لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نَصيرا — ٧٥ » .

٣ً ـ وتقرر على سبيل الموازنة بين أهداف المؤمنين وأهداف الكافرين من القتال ، أن الأولين يقاتلون فى سبيل الله ـ وسبيل الله كل فضيلة ، وكل عدل وحق ، وكل إنصاف وبر ـ أما الذين كفروا فيقاتلون فى سبيل الطاغوت ـ والطاغوت كل ميل وجَنَف ، وكل جبروت وظلم ، وكل سير مع الأهواء ودوافع الشر والإثم ـ كما تقرر على سبيل هذه الموازنة أيضاً ، أن المؤمنين قوة لأنهم يقاتلون فى سبيل الحق أعداءَ الحق ، أولياءَ الشيطان ، فهم يقاتلون قتالا مكسوبا معروفَ النهاية ، مضمونَ النصر ، لأنهم هم الجانب الأقوى بالحق ، وبالله ، وأعداؤهم هم الجانب الأضعفُ بالباطل ، وبالشيطان .

وذلك قوله تعالى : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ـ ٧٦ » .

٤ً ـ وتضع أمام المؤمنين عقيدةً من شأنها أن تثبت قلوبهم ، وتنفى عوامل الجبن والتزلزل عنهم ، وهى عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر ، وأن لكل إنسانا أجلا معلوما عند الله لايعدوه ، فلا يقدّمه طعْنٌ أو نزال ، ولا يؤخره جبن أو فرار : « أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم فى بروج مشيَّدة ـ ٧٨ » ويُروى فى ذلك أن خالد بن الوليد قال حين جاءه الموت على فراشه : لقد شهدتُ كذا وكذا موقفاً ، وما من عضو من أعضائى إلا وفيه جُرحٌ من طعنة أو رَمْية ، وهأنذا أموت على فراشى ! فلا نامت أعين الجبناء ! » .

وقديماً قال زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه   وإن يلقَ أسبابَ السماء بسلّم !

وهكذا يذكرهم القرآنُ بما يعرفونه ، وبما يشاهدونه فى الحياة ، من سنن الله .

المرجفون على المجتمعات :

٥ً — وتحذرهم من المنافقين والمرجفين الذين لا تخلو منهم المجتمعات ، ونراهم - ولا سيما فى أوقات الخوف والحروب - يعملون على إحداث الفتن وبلبلة الأفكار دائما ، ويُشيعون قالةَ السوء عن أولى الأمر فيهم بالباطل ، ويعتمدون فى صنعهم هذا على الإشكالات النظرية ، والأوهام الباطلة .

وذلك قوله تعالى : « وإن تصبهم حسنة » أى من خصب ورزق ورواج « يقولوا هذه من عند الله » أى لنا ، وليس لك فيها فضل ، ولا جاءت بسبب يُمنك ولا بحسن سعيك ، ولا بسياسةٍ راشدة منك « وإن تصبهم سيئةٌ » من ضيق أو نقص من الثمرات أو نحو ذلك مما تجرى به العادة بين الحين والحين فى كل مجتمع « يقولوا هذه من عندك » أى بشؤمك ، وبسببك ، فقد اتبعناك فجرَّ علينا اتباعُك كلَّ هَوْل ، ولو بقينا على ديننا ما أصابنا شىء من ذلك .

وهذه دائماً أساليب الصنف المنافق فى كل مجتمع ، وهم الذين يدخلون فى شىء من الأشياء ظاهرا وهم له كارهون ، وعليه ناقمون ، فيعملون على زلزلته بالإرجاف وإثارة الشكوك والأوهام .

وفى مثل هؤلاء - وهم قومُ فرعونَ - يقول القرآن الكريم : « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئةٌ يَطَّيَّرُوا بموسى ومن معه » (١) .

---

(١) الآية ١٣١ من سورة الأعراف .

ويقول القرآن الكريم فى أمثالهم عامة : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأنّ به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرةَ ، ذلك هو الخسران المبين »[١] .

وقد ردت عليهم آية النساء ردا مبطلا لتمويههم وجاء هذا الرد من ناحيتين فرّقت بينهما .

الناحية الأولى : ناحية استغلالهم لما يرد على المجتمع من خير ورواج ، أو من نقص وضيق ، وقد بينت فى هذه الناحية أن هذا وذاك من عند الله ، ومعنى كونهما من عنده أنهما يتبعان سننه الكونية التى تقضى بأن تتداول الناسَ فى الحياة أيامُ بؤس ، وأيامُ نعيم ، لا فرق فى ذلك بين المؤمن والكافر ، والصالح والفاسق ، ولا فرق فى ذلك بين عهد وعهد ، فإن الرواج والكساد ، والصلاح والفساد ، كل ذلك منوط بسنن لله تعالى ، غير أن لبعضه أسبابا فى قدرة الناس ، وأسبابا ليسوا قادرين عليها ، ولا مسيطرين تمام السيطرة على توجيها ، فقد يفلت منهم ـ باعتبارهم بشراً محدودين ـ حسابٌ قدّروه ، وقد تتعامل من وراء ظهورهم أو من حولهم عواملُ خفية لايدركونها ، فتكون النتيجة أن يقع مرة خيرٌ ، وأن يقع مرة شرٌ ، ولا يمكن لإنسان أن يزعم مهما كانت قدرته ، ومهما كانت سياسته ، أنه محيط بكل ماحوله ، موجِّه لجميع الأسباب على ما يؤدى حتما إلى الصلاح ، ويدرأ حتما كل مظاهر الفساد ، فالحكام ، وأهل السياسة ، وأصحاب الإخصاء فى كل ناحية معرّضون للخطأ والصواب ، وليسوا آلهة ولا أنبياء ، وكل ماعليهم هو أن يُخلِصوا النصح لله ولرسوله وللمؤمنين ، وألا يقصدوا إلا إلى الإصلاح والخير ما استطاعوا . ويظلمهم الناس إذا رمَوْهم حينئذ

(١) الآية ١١ من سورة الحج .

بالشؤم أو بسوء الرأى ، ونسبوا إليهم السرّ فيما يصيب الناس أحيانا من الكساد ، أو الفساد .

فهذا هو معنى قوله تعالى فى هذا الشأن « قل كلٌّ من عند الله » .

المسئولية الشخصــــية :

كل نفس بما كسبت رهينة :

الناحية الثانية : ما يتصل بتقرير مبدأ المسئولية الشخصية وأن الإنسان يجنى ثمرات عمله ، وعواقب سعيه .

ومن تأمل ســـنة الله فى ذلك عرف أن كل عمل من الأعمال ، إنما هو كمقدمة من المقدمات التى تتبعها النتيجة ، فإذا عمل الإنســـان السيئات كانت أعماله مقدمات لنتيجة من شأنها أن تتبع تلك المقدمات وهى أن يصيبه من الخسار بمقدار ما قدم من سوء ، فى الدنيا والآخرة ، وإذا عمل الإنسان الصالحات كان عمله كذلك مبدأ لما يناله من خير ونعمة .

ولكن الله تعالى وهو الرحيم بخلقه ، العليم بأنهم ضعفاء قاصرون لم تجر سنته بأن يحاسبهم على هذا وذاك حساباً دقيقاً خالياً من الرحمة وإن جاء على مقتضى العدل والتسوية ، ولذلك نراه جل جلاله يغفر الهفوات وصغائر الذنوب ، ويستر على المسيئين مرة بعد مرة ، وكل منا يعلم بينه وبين نفسه أن الله تعالى لا يؤاخذه على كل ذنب فَوْرَ وقوعه ، بل يتركه وقتاً مّا ، لعله يثوب إلى رشده ، ويرجع إلى ربه ، وربما تكرر هذا التأجيل أو هذا الستر الإلهى مرة بعد مرة ، حتى يأتى وقتٌ تقع فيه العقوبة ، وتُحصَد فيه ثمراتُ السيئة ، فيكون ذلك بكسب الإنسان وجزاءً لذنبه ، فمن فضل الله تعالى أنه لا يوقع العقوبة على الذنب فوراً فى كل الأحيان ، ولو أوقعها فوْرا ، لكان ذلك على وفق العدل ، ولكنه يستر حيناً ، ويغفر أحيانا

على مقتضى الرحمة واللطف بعباده ، وهذا هو ماتحدث به القرآن فى موضع آخر حيث يقول الله جل شأنه ، « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »[١] وحيث يقول سبحانه : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة »[٢] أى بجميع ما كسبوا ، وحيث يقول جلت كلمته « ولو يعجل الله للناس الشرَّ استعجالهم بالخير لقُضِيَ إليهم أجلهم »[٣] .

والخلاصة : أنه فى جانب مايفعله الإنسان من ذنوب ، وما يقع منه من أخطاء ، نرى الله تعالى رحيما ، كثيراً ما يمهل ويستر ويغفر ، ثم يترك العبدَ بعد ذلك يحصد مازرع ، فالعبد إذن إنما يصيبه ما يصيبه من نفسه أى بسبب من أخطائه وذنوبه .

وقد جاءت السنة بهذا كما جاء القرآن الكريم ، ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم « لا يصيب رجلا خَدْشُ عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عِرْق ، إلا بذنب ، وما يعفو الله أكثر » وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « والذى نفسى بيده لا يصيب المؤمنَ همٌّ ولا حَزَنٌ ولا نَصَبٌ ، حتى الشوكةُ يشاكُها ، إلا كفَّر الله عنه بها من خطاياه » .

أما فى جانب عمل الصالحات فقد جرت السنة الإلهية على تيسير اليسرى لمن توجه إليها ، وهنا أيضاً يعامل الناس بمقتضى الرحمة ، لا بمجرد العدل ، فإن الخير والنجاح اللذين يصيبهما مَن عمل الصالحات ، لها أسباب كثيرة منها مافى قدرة العبد ، ومنها ماليس فى قدرته ، وذلك كمثل الزارع يزرع ،

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الشورى
(٢) الآية ٤٥ من سورة فاطر
(٣) الآية ١١ من سورة يونس

ويسقى مازرع ، ولكنه يصادفه مع ذلك عقبات لا يستطيع تذليلها ، فرحمة الله سبحانه وتعالى تتدخل فى كثير من الحالات ، وسنته تقضى بأن ييسر اليسرى ، وبأن يوفق ويعين ويصلح ، وبهذا يكون الفضل .

وإذن فالنجاح إنما هو بالتماس الأسباب والأخذ فيها بشرط أن يصاحبه التوفيق وتيسير الصعاب ، وهذا إنما يكون بمحض الفضل الإلهى ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله - قالوا : ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

والمراد أن العمل وحده إنما هو بالنسبة للنجاح وحصول الثمرات ، بعض المقدمات ، لا جميعها ، وباقى المقدمات هو من فضل الله وتيسير الله ، وما يتغمد به عباده من إحسان ورحمة .

وهذه سنة الله فيمن يعملون الصالحات : فهو يعينهم ، ويقويهم ، ويهيء لهم من أسباب الخير مالا يعرفون ، ويدبر لهم بلطفه ، حتى يتم نجاحهم ، وينالوا الخير والحسنات ، وذلك الفضل من الله .

وقد عرف من القرآن الكريم أن الله تعالى يجزى على الذنب بمقداره ، ويعفو عن كثير من الذنوب ، بل يبدل الله أحيانا سيئات بعض عباده حسنات ، أما من يعملون الصالحات فإنه يجزيهم على الحسنة الواحدة بعشر أمثالها ، والله يضاعف لمن يشاء .

وإذن نصل إلى تقرير ما قررته الآيات فنقول :

(١) كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر ، فهو من عند الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً على حسب سنته ، لأنه تعالى لا يقع فى ملكه إلا مايريد .

(٢) وقد جرت سنته بأن يغمر عباده بفضله ، فمن عمل صالحاً يسَّره له ، ودبر بلطفه ما يصلحه وينجحه مما يُعلَم من الأسباب ومما لا يُعلَم ، فالنجاح

الذى يدركه ليس مستنداً إلى مجرد العمل ، ولكنه مستند كذلك إلى التوفيق والفضل الغامر ، فهو فى الحقيقة من الله .

ومن عمل بعض السيئات فكثيراً ما يطاوله ويغفر له ويستره ، فإذا عاقبه فقد عاقبه بذنبه ، وأحْصَده السيئة التى زرعها ، فهى فى الحقيقة منه .

(٣) وهذا هو الجمع بين قوله تعالى : « قل كل من عند الله » وقوله جل شأنه : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

ونعود إلى السياق الذى كنا فيه من تتبع ماتقرره آيات القتال ، فنقول:

* * *

طاعة الرسول ، والرجوع إلى أولى الأمر:

٦ً — وتقرر أن طاعة الرسول من طاعة الله ، لأن الرسول فى الحقيقة لا يأتى بشىء من عنده ، وإنما هو مبلغ عن الله ، أو مبين لحكم الله ، أومطبق ذلك على الحوادث والقضايا حسب اجتهاده وما يريه الله من الحق والمصلحة : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا — ٨٠ » .

٧ً — وتقرر أن من واجب الكافة فى المجتمع أن يرجعوا فى أمورهم العليا ، وفيما يتصل بأمن المجتمع أو خوفه إلى رؤسائهم وولاة أمرهم ، فإنهم هم الذين يعلمون أسرار ذلك ، ويستنبطون ما يصلحه .

وقد عَرَفت الأممُ القوية ، والمجتمعات التى تـَربَّى أفرادُها على الصفات الحميدة ، كيف تسير على هذا المبدأ ، فترى الرأى العام فيها صبوراً ، قليل التبرم ، يُرْجع إلى أولياء الأمر فى البلاد ما يقع من المشكلات والمعضلات ،

ويترك لهم أمر حلها ، والتصرف فى شأنها ، وترى صحفهم تتلقى فى ذلك التوجيهات من حكوماتهم وهيآتهم المختصة ، لئلا يخوضوا فى الأمور خوضاً يفسدها ، وتراهم أبعد الناس عن إذاعة أخبار الأمن والخوف ، وحركات الجيوش ومواقعهم وأسلحتهم وما إلى ذلك .

وهذه تربية اجتماعية مصدرها قوله تعالى إذ يعيب على المنافقين أخلاقهم ، ويعدد مساوئهم ، ويحذر المؤمنين من شرورهم وكيدهم : « وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلا - ٨٣ » أى لأنصت كثير منكم إلى إرجافهم وإذاعاتهم لأخبار السوء التى من شأنها أن تزلزل المجتمعات ، وتعصف بسكينتها .

القتل العمد من أعظم الجرائم :

٨ — وتقرر عصمة دم المؤمن ، فتقول « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، وتقول « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ٩٢ - ٩٣ » .

والسبب فى تقرير السورة لهذا المبدأ ، وهى بصدد أحكام القتال التى قررتها ، أن هذا الأمر وقع فى مجتمع المؤمنين ، فقد روى أن أبا الدرداء - أو صحابياً آخر - قَتَل رجلا وقد قال كلمة الإيمان حين رَفَعَ عليه السيف فأهوَى به إليه فقال كلمته ، فلما ذُكر ذلك للنبى صلى الله عليه وآله وسلم قال القاتل : إنما قالها متعوِّذا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل شققت عن قلبه ؟

حرمة القتل تأولا واحتجاجاً بالنوايا :

وهنا ننبه إلى أمرين :

أحدهما : أن هذا سمو عظيم بالمؤمن ، وفيه توجيه إلى أنه لا يجوز للمؤمنين أن يقتل بعضهم بعضاً على التأول والاحتجاج بالنوايا ، وبسبب الاختلاف فى الرأى ، أو فى السياسة ، أو فى المذهب ، أو نحو ذلك وهذا أصل كثيرا ما انحرف المسلمون عنه فى تاريخهم فكانت عاقبته وبالا عليهم ، وكم سالت دماء بريئة بسبب العصبيات والخلافات مع أن الجميع مؤمنون متفقون على أصول الإسلام ، وما به يكون الإيمان ، فإلهم واحد ، وكتابهم واحد ، ورسولهم واحد ، وأهدافهم واحدة .

تغليظ الكفارة على قاتل الخطأ ،

والعقوبة الأخروية على قاتل العمد :

الثانى : أن الآية الأولى من هاتين الآيتين قد رسمت فى حال القتل الخطأ طريقة التكفير عن هذا الخطأ ، والتعويض عنه ، فأوحت بذلك أنه ليس خطأهيناً ، وليس كسائر الأخطاء التى تمر بدون تغليظ على فاعلها ، وإصلاح لما اقترف . وأن الآية الثانية قد غلظت العقوبة الأخروية على قاتل العمد تغليظاً شديداً ، لم يُعَهد فى غير هذه الجريمة من الجرائم ، فذكرت جهنم ، والخلود فيها ، والغضب ، واللعنة ، وإعداد العذاب ، وكون هذا العذاب المعَدّ عظيما ، وذلك لما فى هذه الجريمة من هدم لبنيان بناه الله .

وفى ذلك يقول الزمخشرى فى الكشاف :

« هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد ، والإبراق والإرعاد ، أمر عظيم ، وخطب غليظ ، ومن ثمّ روى عن ابن عباس ما روى من أن توبة

قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة ، وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا لاتوبة له ، وذلك محمول منهم على سنة الله فى التغليظ والتشديد وإلا فكل ذنب ممحوٌ بالتوبة ، وناهيك بمحو الشرك دليلا ، وفى الحديث « لزوال الدنيا أهونُ على الله من قتل امرئ مسلم » وفيه « لو أن رجلا قُتِل بالمشرق ، وآخر رضى بالمغرب ، لأُشرِك فى دمه » وفيه « إن هذا الإنسان بنيان الله ، ملعونٌ منْ هدَم بنيانه » وفيه « من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : آيسٌ من رحمة الله » والعجب من قوم يقرءون هذه الآية ، أو يرون ما فيها ، ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة ، وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعُهم أشعبيتهم(١) وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم ، وما يخيِّلُ إليهم مناهم ، أن يطمعوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالُها »(٢) .

وصاحب الكشاف يرد بذلك على الجمهور الذين يرون أن القاتل عمداً لا يخلد فى النار .

وقد ثار فى هذه المسألة عجَاج، وطال فيها حِجاج ، وليست من المسائل العملية حتى تُوليَها اهتمامَنا ، وإنما يكفينا فى الموضوع أن نتبين أن الإسلام يعتبر هذه الجريمة من أكبر الجرائم ، وأن هذا الاعتبار ، فيه للمجتمع ضمانٌ أيُّ ضمانٍ للاستقرار .

٩ — ومن لواحق المبدأ السابق وما يترتب عليه ، مبدأ آخرُ جاءت به الآيات حيث يقول الله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل

---

(١) أى كونهم أشعبيين أى منسوبين إلى أشعب المعروف بشدة الطمع .
(٢) ص ٢٩٠ ج ١ من الكشاف الطبعة الأولى لمصطفى محمد ١٣٥٤ هـ .

الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا ، فعندَ الله مغانمُ كثيرةٌ ، كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا ، إن الله كان بما تعملون خبيراً - ٩٤ » .

ومعنى « ضربتم فى سبيل الله » : سرتم مسيرا فى غزوة أو نحوها من مصالح المسلمين .

ورووا فى هذا الشأن « أن رجلا من بنى مرة بن عوف ، يقال له « مرداس بن نهيك » كان من أهل فدك مسلما ، لم يُسْلم من قومه غيرُه ، فسمعوا بسرية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تريدهم ، وكان على السرية رجل يقال له « غالب بن فضالة الليثى » فهربوا وأقام الرجل - أى مرداس المذكور لأنه كان على دين المسلمين ، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل[1] ، وصعد هو إلى الجبل يراقب ، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون ، فلما سمع التكبير عرف أنهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فكبر ونزل وهو يقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله - السلام عليكم » فتغشاه أسامةُ بن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه ، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك وجدا شديدا ،

وكان قد سبقهم قبل ذلك الخبرُ ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أقتلتموه إرادة ما معه ؟ » ثم قرأ هذه الآية على أسامة بن زيد ، فقال : يا رسول الله استغفر لى ، فقال : « فكيف بلا إله إلا الله ؟ » قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات ، قال أسامة : فما زال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعيدها حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ ،

---

(١) أى منعطف من الجبل .

ثم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استغفر لى بعدُ ثلاثَ مرات وقال: « أعتق رقبة » [1] .

ويتبين من هذا أن هناك صلة بين ما جاء فى الآيتين السابقتين من تحريم قتل المؤمن عمدا ، ومن شرع الكفارة والدية فى قتله خطأ ، وبين ما جاء فى هذه الآية ، التى تقرر وجوب التبيُّن والتثبت فى أمر الناس .

ومن المعروف أن الغزاة الذين يسيرون فى الأرض فاتحين قد يصادفهم أمثال هذا المؤمن الذى قتلوه ظنا أنه يتحرز عن القتل بدعوى الإيمان ولفظ السلام ، فالله تعالى ينهى عن ذلك ، ويضع للمؤمنين خطة التبيُّن قبل الإقدام ، وألا يرفضوا من أعلن الإسلامَ والسلامَ ، طمعاً فى تحقيق أى غرض دنيوى ، فإن أغراض الدنيا لا ينبغى أن تحقق على حساب الدماء ، والتعلل بالمعاذير .

فهذا أيضاً مبدأ من مبادئ الرحمة والتربية الإنسانيه والتهذيب الاجتماعى، يعلمه القرآن للمؤمنين .

١٠ – وقررت الآيات مبدأ الهجرة إذا كانت سبيلا إلى العزة والتخلص من الاستضعاف والظلم ، مع القدرة عليها ، وذلك حيث تقول :

« إن الذين تَوَفَّاهم الملائكةُ ظالمى أنفسِهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعَفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنمُ وساءت مصيرا ، إلا المستضعَفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًّا غفوراً ، ومن يهاجر فى سبيل الله يجدْ فى الأرض مُرَاغَما كثيرا وسَعَةً ومن يخرجْ من بيته مهاجِراً إلى الله ورسوله ثم يدركه

(١) تفسير البغوى (المطبوع مع تفسير ابن كثير) ص ٥٤٥ ج ٢ .

الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما ٩٧ - ١٠٠ » .

وليس من سبيلنا أن نتوسع هنا بشرح هاتين الآيتين الكريمتين تفصيلا ، ولكن ننبه إلى أنهما نزلتا فى سياق نعى القرآن على المتخلفين عن الهجرة حين كانت الهجرة هى السبيلَ إلى عزة الإسلام ، وهى الوسيلةَ إلى التقوِّى والاستعداد لإبطال كلمة الكفر ، فقد وجد فريق ضنُّوا بأنفسهم وأموالهم وديارهم فلم يهاجروا ، ولم يكن هذا الضن اعتزازاً بأوطانهم ، وثقة بأنهم سيبقون أقوياء فيها ، لهم كرامتهم وعزتهم ، ولكنه كان خضوعا وتقبلا لما لا ينبغى أن يقبله المؤمن الحق من الإقامة على الضيم ، والرضا بالذل ، كان إيثاراً للعيش الذليل المهين ، على العيش الكريم ، عيش الجهاد والنضال والتحول إلى ديار تُرْسَم فيها خطةُ العودة إلى الوطن ، وتخليصه من براثن المفسدين والمبطلين ، ولذلك اعتبرهم القرآن ملومين ظالمين لأنفسهم ، لأن الذى يقبل الذل ظالم لنفسه مبين ، ومثلت لنا الآية الأولى من هاتين الآيتين صورتهم ، وهم بين يدى الملائكة حين تحضرهم الوفاة ، وقد عجلوا بلومهم وتعنيفهم قائلين لهم : فيم كنتم ؟ استنكارا لمكانهم الذى كانوا فيه أذلةً قابعين ، فإذا اعتذروا بأنهم كانوا مستضعفين لم يقبلوا عذرهم ، وزادوهم تأنيباً ، ثم نرى الآية بعد ذلك تستثنى المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فتفيدنا أنه لا ينبغى للمؤمن أن يسكت على ضيم ، أو يقيم على ذل إلا إذا فقد كل حيلة ، وانسد عليه كل سبيل ، فإنه حينئذ مرجوٌّ أن يُعَفَى عنه « فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم » ، وانظر إلى هذا الاحتياط فى العبارات التى عبَّرت بها الآية فى هذا المجال ، حيث تقول « لا يستطيعون حيلة » بهذا التعبير الدال على انتفاء أية حيلة ، « ولا يهتدون سبيلا » بهذا التعبير الدال على انسداد كل سبيل ، ثم باستعمال

اسم الإشارة الخاص بالبعيد : « فأولئك » ثم باستعمال « عسى » الدالة على أن هذا أمر محتاج إلى أن يُتَرقَّب بالرجاء لبعده ، ثم بالتعبير بقوله تعالى : « أن يعفو عنهم » وهو مُؤْذِن بأنهم مع هذا أخطأوا ؛ لأن الذى يُعفَى عنه هو الذى قارف الذنب ، ولكن كان له عذر أو شبه عذر ، ثم بإثبات أن مرجع ذلك إلى أن الله « كان عفوًّا غفوراً » أى كبير العفو ، عظيم الغفران ، كأنه يقول : لولا كبر عفوه ، وعظم غفرانه ، لما استطاعوا أن يتخلصوا من موقفهم الذى وقفوه .

فانظر أيها القارئ إلى هذا الأسلوب ، وإلى ما يوحى به من أهمية الهجرة فى سبيل العزة والكرامة ونصرة الحق ، ومن سوء مصير الذين يرضون بالذلة والإقامة على الضيم .

لاشك أن هذا بناء قوى لصرح العزة التى يريدها الله للمؤمن ، ولا يحب أن يراه فى غير مستواها الرفيع .

٥ ــ الآيات المحذّرة

أنواع المنافقين وأساليب نفاقهم :

كان للمجتمع الإسلامى بالمدينة اتصال بأنواع من المنافقين ، كانوا يختلفون فى أساليب حربهم للمؤمنين وإقلاقهم ، وإن اتفقوا فى الغرض وهو القضاء على الإسلام .

فكان بالمدينة جماعة يتظاهرون بالإسلام ، ويبطنون الكفر ، وكان لهم مهمة تدور حول إشاعة الشك فى نفوس الناس ، وإشاعة الفوضى فى المجتمع .

وكان بها اليهود ، وناهيك بهم وبتاريخهم فى الإفساد والدس ، وبمالهم من أخلاق السوء ، وطبائع الخسة ، وقد لقى منهم المسلمون بالمدينة كثيرا من ألوان الإرجاف والصد عن دعوة الإسلام ، والموازرة لأعدائها المشركين .

وأخيراً كان بمكة فريق من العرب يدّعون الإيمان وإن لم يلحقوا بالمؤمنين إلى دار الهجرة ، فكان لذلك اتصال بالمجتمع الإسلامى فى المدينة من حيث المناقشة فى أمرهم ، وهل يعدُّون إخواناً للمسلمين ، أو يعتبرون من المنافقين .

تحدثت سورة النساء عن كل هذه الأنواع ، وبينت للمسلمين حقيقة كل نوع ، وأرشدتهم إلى ما يجب عليهم أن يسلكوه معهم من الحذر والإعراض والتجنب .

المخذّلون :

١ ــ تحدثت عن المنافقين الذين كانوا يهتمون بزلزلة أهل الإيمان ، ويثيرون أمامهم الشبه والأضاليل ، ويُوضعون خلالهم بالفتنة

حين يخرجون إلى ملاقاة أعدائهم ، ويُبَطِّئون عنهم إذا عزموا الجهاد في سبيل الله .

* جاء في ذلك قوله تعالى .

« وإن منكم لَـمَنْ لَيُبَطِّئَن ، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ـ كأن لم يكن بينكم وبينه مودة ـ : ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما » .

يختلف المفسرون في المقصودين بهذا ، فمنهم من يقول إنهم ضعفاء المسلمين وجبناؤهم ، بدليل تحدثهم بنعمة الله عليهم إذ لم يصبهم ما نزل بغيرهم ، ولأن الله تعالى يقول مخاطبا المؤمنين « وإن منكم » فهم إذن من المؤمنين .

ومن المفسرين من يجزم بأن الحديث إنما هو عن المنافقين ، لأن ماذكر عنهم لا يتفق وأخلاقَ أهل الإيمان ، ولو كان بهم ضعف أو جبن ، فإن ماذكره الله عنهم يرجع إلى الشماتة بالمؤمنين إذا أصيبوا ، وإلى حسدهم إذا فازوا ، وقولُ القائل حين يراك قد وقعتَ في محظور « الحمد لله إذ لم أكن معك في هذا » فيه كثير من اللؤم ، وفيه تعبير واضح عن معنى الشماتة والفرح بما أصابك ، واللوم لك ، والإشارة إلى أنه كان محقاً في موقفه حيث لم يصنع صنيعك ، وهذا لا يليق أن يقابل به الإخوان من تصيبه منهم شدة ، أو تنزل به كارثة ، وإنما الذي يليق بالإخوان أن يواسي بعضُهم بعضاً ، وألا يذكر أحدهم للآخر ما يزيد في ألمه من اللوم وتسجيل الخطأ .

وأما أن الله تعالى يقول « وإنّ منكم » فليس في الكلام إثبات أنهم من المؤمنين ، وإنما يراد أنهم مواطنون لهم ، مخالطون ممتزجون ، يعيشون بينهم ، ويتظاهرون بالإيمان ، فمعنى « وإن منكم » أي من بينكم ، ومن المجتمع الذي تعيشون فيه .

وقوله تعالى « لَيُبَطِّئَنّ » وصف لهم بأنهم يُخذِّلون الناس عن النهوض مع المؤمنين ، وهو صالح أيضاً لأن يكون وصفاً لهم بأنهم يتباطؤون ، وذلك أن فعل « بَطَّأ » يجىء لازما ومتعدياً ، فتقول . بَطّأ فلان فى سعيه بمعنى بَطُؤَ ، وتقول : هو يُبَطِّىء النـــاس أى يدعوهم إلى البطء ، أو يحملهم عليه .

وذلك شأن المنافقين ، يتباطؤون فى أنفسهم ويتثاقلون عن النهوض للجهاد ويُبَطِّئُون غيرهم عن ذلك ، فشرُّهم لايقف عند حدهم ، ولكن يتعداهم إلى الآخرين .

ثم يصفهم الله تعالى بأنهم « أنانيون » لاينظرون فى حالتى انتصار مواطنيهم أو انكسارهم إلا إلى مصلحة أنفسهم التى فاتت فهم عليها يتحسرون ، أو التى تحققت فهم بها مغتبطون .

الحرب بالشبه والاضاليل :

* وجاء فى هذا النوع من المنافقين أيضاً قوله تعالى :

« ألم تر إلى الذين قيل لهم كفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ، وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كلٌّ من عند الله فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً »[1] .

---

(١) الآيات من ٧٧ إلى ٧٩ من سورة النساء .

نقد علمي لرواية في سبب النزول :

تقرر بعض الرويات في سبب نزول هذه الآيات أنها في فريق من المؤمنين ، كانوا يتطلعون إلى تقرير القتال ، فأمروا بأن يصبروا ويكتفوا بأداء شعائر الدين ، فلما كتب عليهم القتال جبنوا وشق عليهم هذا الأمر — وذلك على الرغم من أنهم من كبار الصحابة .

ونحن نسوق هذه الرواية ثم ننقدها :

روى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس : أن عبدالرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة فقالوا : يانبي الله ، كنا في عز ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ؟ فقال : إني أمرتُ بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوّله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفّوا فنزلت الآية ـ أخرجه النسائي في سننه [1]

ومن العجيب أن الحافظ ابن كثير جرى على معنى هذه الرواية في تفسيره كما جرى كثير من المفسرين. فقال «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذاتَ النُّصُب [2] ، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين ، والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفُوا من أعدائهم ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً . لأسباب كثيرة منها قلة عددهم بالنسبة لكثرة عدد عدوهم . ومنها كونهم كانوا في بلدهم ، وهو بلدٌ حرامٌ وأشرفُ بقاع الأرض ، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال ، فلهذا لم يُؤمرْ بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومَنَعة وأنصار ، ومع هذا لما أمروا بما كانوا

(١) انظر كتب التفسير ومنها الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص ٢٨١ ج ٥ .

(٢) يريد وإن لم تكن الزكاة التى حددت فيها المقادير ، لأن هذا التحديد كان بعد الهجرة وإنما كانت الزكاة فى مكة مجرد الإنفاق والصدقة .

يؤدونه، جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً، «وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب» أى لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويُتم الأولاد وتأيُّم النساء وهذه الآية كقوله تعالى «ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال» الآيات — ثم ساق الرواية التى قدمناها [١]

وقد عرض القرطبى فى تفسيره لهذه الرواية ماراً بها ثم روى أن هناك قولا آخر بأن هذا فى المنـــافقين، والمعنى يخشون القتل من المشركين كما يخشون الموت من الله، أو أشد خشية، أى عندهم وفى اعتقادهم، ثم قال القرطبى تعليقاً على ذلك، أى على القول بأنها فى المنافقين: «قلت. وهذا أشبه بسياق الآية، لقوله «وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب» أى هلاّ، ولا يليها إلا الفعل، ومَعاذَ الله أن يصدر هذا القول من صحابى كريم - أى كعبد الرحمن بن عوف وإخوانه - يعلم أن الآجال محدودة، والأرزاق مقسومة، بل كانوا لأوامر الله ممتثلين سامعين طائعين، يرون الوصول إلى الدار الآجلة خيرا من المقام فى الدار العاجلة، على ماهو معروف من سيرتهم رضى الله عنهم، اللهم إلا أن يكون قائله ممن لم يرسخ فى الإيمان قَدَمُه، ولا انشرح بالإسلام جنانه» [٢]

والحق مع القرطبى، ويدل على ذلك مع ماذكره أن الآيات اللاحقة لهذه الآية تذكر إرجافهم على الرسول بقولهم حين تصيبهم الحسنات: هذه من عند الله، وحين تصيبهم السيئات: هذه من عندك يامحمد، ثم تذكر مايجب من طاعة الرسول، وتعطف على ذلك قوله تعالى «ويقولون طاعة فإذا

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥١٤.

(٢) تفسير القرطبى ج ٥ ص ٢٨١

برزوا من عندك ، بَيّتَ طائفة منهم غير الذى تقول ، والله يكتب مايبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا »

وهذا كله إنما هو فى المنافقين وما لهم من صفات التبييت ، والخلف ، والمواجهة بوجه ، والبروز بوجه آخر .

ويظهر أن ابن كثير لم يلتفت إلى بقيه الآية التى نَظّر بها ، وهى قوله تعالى « ويقول الذين آمنوا لولا نُزّلتْ سورةٌ فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتالُ رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت ، فأولى لهم ، طاعة وقول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم »[1] فهو قد نظر إلى أولها وهو قوله تعالى « ويقول الذين آمنوا » فسرى إلى ذهنه أن الحديث كله عنهم ، ولم يلتفتْ ـ فى غالب الظن ـ إلى قوله تعالى « رأيتَ الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك » وهذه صفة المنافقين التى خلعها عليهم القرآن فى بعض آياته ، ومنها قوله تعالى « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً »[2] « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة »[3] « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم »[4] « ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض »[5] إلى غير ذلك .

على أن المعنى الذى جاء فى سورة محمد ، قد جاء أيضاً فى سورة الأحزاب عن المنافقين إذ يقول الله عز وجل : « قد يعلم الله المعَوّقين منكم والقائلين

---

(١) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة محمد .
(٢) الآية ١٠ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٥٢ من سورة المائدة .
(٤) الآية ١٢٥ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٥٣ من سورة الحج

لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يُغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، أشحةً على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم » (١) .

وهى واضحة فى المنافقين ولا سيما بعد ختمها بقوله تعالى « أولئك لم يؤمنوا » ، ومعنى « المعوّقين منكم » كمعنى « وإن منكم لمن ليُبَطِّئن » التى تقدم الكلام عليها ، وبيان المراد من أن هؤلاء « منكم » .

وبهذا كله يتبين أن الآيات التى نحن بصددها إنما نزلت فى المنافقين ، وأن ماذكرته الرواية التى اعتمدها بعض المفسرين لا يصح ولا يقبل ، لمخالفتها ما يظهر فى آيات القرآن التى جاءت فى معناها .

هذا وقد تحدثنا من قبل عن إرجاف المنافقين الذى ذكرته هذه الآيات ، فى شأن ما يصيب من الحسنات والسيئات ، وما رد الله به عليهم (٢) .

* وجاء فى هذا النوع من المنافقين أيضاً آيات من السورة هى قوله تعالى:

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازْدَادُوا كفراً لم يكن الله ليغفرَ لهم ولا ليهديَهم سبيلا ، بَشِّرِ المنافقين بأن لهم عذاباً أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً ، وقد نَزَّلَ عليكم فى الكتاب أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حَديثٍ غيرِهِ ، إنكم إذاً مثلُهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين

---

(١) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة الأحزاب .

(٢) راجع ص ١١٢ من هذا الكتاب

فى جهنم جميعاً ، الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، إن المنافقين يخادعون اللهَ وهو خادعُهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يُضللِ اللهُ فلن تجدَ له سبيلا ، يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ، إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينَهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يُؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما ، ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما » [1] .

وتتلخص الصفات التى وصفتهم بها هذه الآيات فيما يأتى :

تزلزل أهل النفاق :

١ — إن المنافقين دائماً متزلزلون ، فليس لهم ثبات على شىء ، وذلك لأنه ليس فى قلوبهم شىء حتى يستقروا عليه ويطمئنوا إليه ، ويجاهدوا فى سبيله ، فهم متقلبون دائما بحسب الأحوال ومايعرض لهم من المطامع ، ووصف الله تعالى إياهم بأنهم « آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدَادُوا كفراً » ، هو تصوير لما هم عليه من تَقَلُّب وتخبط ، والمراد بكونهم « آمنوا » أنهم دخلوا مع المؤمنين فى الظاهر ، فلم يدخل الإيمان فى قلوبهم حقيقة ، لأن مَنْ دخل الإيمانُ قلبَه ، فقلما يخرج منه ، لكنْ هؤلاء يترددون بين الكفر والإيمان مرة بعد مرة ، فلا يمكن أن يكون الإيمان الحقيقى قد داخل قلوبهم وخالطها .

(١) الآيات من ١٣٧ — إلى ١٤٧ من سورة النساء

بواعث النفاق :

٢ً — إن المنافقين مخلصون لأهل الكفر فى الواقع بولائهم ، ويؤثرون مصالحهم على مصالح أهل الإيمان : « يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين »

وقد تساءلت الآية عن البواعث التى تبعث مثل هؤلاء إلى هذا الالتواء عن الفطرة ، وعن المنطق الطبيعى الذى يقتضى موالاة أهل الصلاح ، لا أهل الفساد، تساءلت عن ذلك فى عبارة واضحة فاضحة، تساؤلا كاشفاً واصفاً، علمنا منه أنهم إنما يبتغون عندهم العزة ، ويريدون أن يتخذوا لديهم أيادى تنفعهم وتشفع لهم ولو على حساب الحق والخير والصلاح وما دروا أن ذلك سعى غير حميد ، وقصد لا يمكن أن يصل بصاحبه إلى ما يريد ، فإن العزة كلها إنما هى لله ، وليس اتخاذ الأولياء — من المبطلين والمفسدين — من الله فى شىء ، فإن الله هو الحق المبين ، وإن الله لا يحب المفسدين .

ونحن معاشر الشرقيين قد ابتلينا بهذا النوع من الذين يبتغون العزة من غير سبيلها ، ويرجون أن يقتنصوها من غير ميدانها ، أو يستطلعوها من غير أفقها — بلينا بهذا النوع من المواطنين الذين لا يعيشون إلا على موالاة الأعداء ومصانعة الغاصبين لحقوقنا ، العاملين على كل ما فيه ذلنا وموتنا ، وإذا كان بعض المؤمنين منا قد عرف هؤلاء فى بلد أو غيره من بلاد الإسلام ، ونادوا فى أقوامهم محذرين ، فإن خطرهم ما يزال ماثلا فى الشعوب والدول ، وإن علينا جميعاً أن نفتح عيوننا لكى نراهم ونُحَذِّر منهم ، كما حذر الله منهم سلفنا الأولين .

من مظاهر النفاق الاستهزاء بالدين :

٣ — من مظاهر النفاق اتخاذ آيات الله هزوا ، وهؤلاء المنافقون من دأبهم أن يكفروا بآيات الله ويستهزئوا بها ، وقد سبق للقرآن الكريم فى غير هذه السورة مما أنزله الله بمكة ، أن حذر المؤمنين من مجالسة هؤلاء والإقبال على حديثهم ، أو الرضا به ، فإن ذلك مشاركة فى المنكر والكفر ، وتشجيع للذين يخوضون فى آيات الله ، وذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام المكية : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين[1] » ، وهذه الآية هى المقصودة فى آية النساء التى معنا وهى قوله تعالى « وقد نَزَّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم » ، فالذى جاء هنا تذكير بما أنزل من قبل فى آية الأنعام .

وجوب مقاطعة المستهزئين بآيات الله :

وهذا تحذير نافع لأفراد المجتمع ولا سيما ذوى الشأن منهم فيه ، فقد جرت العادة ألا يخلو مجتمع من المنافقين أو أهل العبث والمجون ، فيحاول هؤلاء أو هؤلاء اتخاذ قضايا الإيمان والحق والإصلاح هُزُؤاً وسخرية ، إما بدافع الحقد على أصحابها ، وإما كراهية لأن تستقر فى المجتمع مُثُلها وأهدافها ، وإما انسياقا مع رغبة اللهو والعبث والمجون التى تقوم عليها مجالس البطالين والفارغين ، فإذا جالسهم على ذلك رجل أو رجال محترمون كان ذلك تشجيعاً لهم ، وكان ذلك غير لائق به ، فإن لصاحب الحق والمبدأ غيرة على حقه . وغضباً على من يريد انتهاكه أو السخرية منه ، ولو أن كل

(١) الآية ٦٨ من سورة الأنعام

صاحب حق مؤمن به ، وقف لأمثال هؤلاء بالمرصاد ، أو أعرض عنهم وهجرهم على الأقل ، لوجدوا أنفسهم مسيئين ، وأحسُّوا بأن الناس عنهم غير راضين، فكفُّوا عن خوضهم ولهوهم. والواقعُ أن إعراضَ الكريم هو من أفضل أساليب الإنكار ، لأنه ـ وإن كان سلبياً ـ يتضمن أن صاحبه محتقر لأهل الفساد ، مستصغر شأنهم إلى درجة أنه لا يحدثهم ، أو أنه يائس من أن ينتصحوا فهو لا ينصحهم ، بل يؤثر أن يتركهم ويبتعد عنهم ، وهذا الإنكار السلبي هو المعروف فى المجتمعات الآن « بالانسحاب » من الجلسات ونحوها وإنما يكون هذا « الانسحاب » حين يشعر عضوٌ من الأعضاء بأن الأمر قد خرج إلى حالة لا يُجدى فيها الدليلُ والنصح والملاينة .

فهذا الأدب القرآنى أصل فى ذلك ، وهو تربيـــة للأمة ، وسبيل إلى إلى تكوين رأى عام مَهيب فيها ، يخافه المبطلون ، ويحسب حسابه المفسدون ، والله تعالى يقول فى شأن من يرضى بمثل ذلك ، ولا يقاومه ولو بمجرد الإعراض عنه : « إنكم إذاً مثلهم » أى إنكم إذا شاركتموهم فى هذه المجالس ، مع هذا الخوض فى الآيات والاستهزاء بها ، تكونون مثلهم ، فإن الساكت على الباطل شريك فيه ، « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » .

وفى الحديث الشريف « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر » .

وفى رواية عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الرجل من بنى اسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً ، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه ، فلما رأى الله منهم ذلك ضربَ قلوبَ بعضِهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »

تحقيق أن الآية ليست منسوخة :

بقى أن ننبه هنا على أمر يتعلق بهذه الآية ، وهو أن مقاتل بن حيان يرى أن أيه الأنعام نسخت جزأ من آية النساء ، وذلك أن الله تعالى يقول فى سورة الأنعام بعد ما تقدم « وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون » وهذا يفيد أن المؤمنين لايضرهم ما يفعله المنافقون من الخوض فى آيات الله ، وآية النساء تقول : « إنكم إذاً مثلهم » وهذا يفيد أن المؤمنين لايضرهم فعل المنافقين، فقد وجد بين الآيتين تعارض، فخرج منه مقاتل بأن آية الأنعام نسخت آية النساء (١)

وهذا غير مقبول لأمرين

أولا : لأن آية الأنعام سابقة ، وآية النساء لاحقة ، وهذا واضح من أن الأولى مكية ، والثانية مدنية ، ومن أن آية النساء تشير إلى آية الأنعام حيث تقول وقد نزل عليكم فى الكتاب كما بينا ، وإذن فلا يصح أن يُحكم بأن المتقدم نسخ المتأخر .

وثانياً : لأنه لا تعارض فى المعنى بين قوله « إنكم إذا مثلهم » وقوله « وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء » فإن كلا منهما قضية مقيدة بحال غير حال الأخرى ، فالأولى تقول : إنكم إذاً ، أى فى حال قعودكم معهم وعدم إعراضكم عنهم ، والثانية تقول « وما على الذين يتقون » والذين يتقون تمنعهم تقواهم من حضور مجالس الذين لا يتقون ، فكل من الآيتين فى ناحية مقابلة للأخرى ، فلا تعارض .

وإذن فلا نسخ .

وقد روى أيضاً عن الكلبى أن قوله تعالى فى سورة النساء « فلا تقعدوا

(١) راجع تفسير ابن كثير ص ٦٠٧ ج ٢

معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » نسخ بقوله تعالى «وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء » لأن الأول يفيد النهى عن القعود معهم ، والثانى يشير إلى جواز القعود لأنه لا شىء من حساب المنافقين الخائضين على الذين يتقون .

وهذا أيضاً غير مقبول لما قدمنا فى القول الذى قبله .

وينبغى التوثق والاحتياط فى دعاوى نسخ القرآن فإن ذلك باب دخل منه كثير من الخلط ، بسبب التوسع فى مفهوم النسخ ، أو اختلاف الاصطلاح فيه .

المنافقون انتهازيون :

٤ — والمنافقون قوم انتهازيون ، يقوم نشاطهم فى الحياة على أساس استغلال كل حادث يحدث فى المجتمع ، والتربص للفرص ومحاولة الانتفاع بكل ما يسنح منها ، وترى لهم قدرة على تخريج مواقفهم ، والتبجح فى تفسيرها وتأويلها بما يتفق والحوادث ، فهم يقولون للمؤمنين إذا نالهم من الله فتح ونصر : « ألم نكن معكم ؟ » ألم نشارككم الضراء ، ألم نترك أهلينا وقومنا لنعيش بينكم ، ونقوىَ جمعكم ؟ فإذا دارت الدوائر على المسلمين وكان للكافرين نصيب من الغلبة والقوة قالوا لهم : « ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » والاستحواذ على الشىء : الاستيلاء عليه ، ومنه قوله تعالى « استحوذ عليهم الشيطان »[١] أى ملك عليهم أمرهم ، فهؤلاء يتوددون إلى الكافرين ويقولون لهم : إننا كنا مستحوذين على أمركم ، أى ما لكين له ، قادرين على التصرف فيه ، فما تصرفنا إلا بما فيه مصلحتكم من تخذيل المؤمنين عنكم ، ومن إفشاء أسرارهم إليكم ، ومن ترويج

---

(١) الآية ١٩ من سورة المجادلة .

الفتن فيهم ، فأفدتم من ذلك هذه الغلبة وهذا الانتصار ، فنحن شركاؤكم فيه ، وهكذا يتعاملون على الفريقين ، وينتهزون الفرصتين ، ويتوقحون فى هذا وذاك ، دون حياء ، ولا اعتداد بوفاء .

مخادعون ومراءون :

والمنافقون لا يقفون فى خُلق المخادعة عند حد ، حتى إنهم ليرتكبون فى جانب المؤمنين ما يرتكبون وكأنهم يظنون أن أمرهم يروج على الله كما يروج على الناس ، والله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو يعلم السر وأخفى ، ولكنهم قوم جاهلون مَرَدُوا على النفاق والخداع، والله خادِعُهم ، أى غالبهم ورادٌّ عليهم خِداعَهم ومجازيهم به ، وهذا هو قوله تعالى « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » وهو مثل قوله تعالى « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون »[1] .

تحقيق المراد بقوله تعالى :

« ولا يذكرون الله إلا قليلا » :

٦ — والمنافقون يتكلفون العبادة مراءة للناس بها، ولكنهم مفضوحون فى هذا التكلف ، تبدو عليهم آثاره ، وتكشف عن بواطنهم مظاهره « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » .

وقد اختلف المفسرون فى المراد بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلا ، ففسره بعضهم بعدم الخشوع فيها ، وفسره بعضهم بأنهم يسرعون فى أدائها ، وأيدوا ذلك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم — فيما رواه الإمام مالك عن العلاء بن

---

(١) الآية ١٨ من سورة المجادلة .

عبد الرحمن عن أنس بن مالك — « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا » . وفسره بعضهم بغير ذلك .

وعندى أن المراد بقوله جل ذكره « ولا يذكرون الله إلا قليلا » الصلاة نفسها ، فهو يصفهم بأنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، وهم مع ذلك لا يأتون الصلاة إلا قليلا ، لأنهم إنما يأتونها رياء ، فإذا رآهم أحدٌ صلّوا ، وإلا تركوها وضيعوها ، وقد يسمّى القرآن الصلاة ذكراً ، كما جاء فى قوله تعالى « قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى »(١). وقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، فإن خفتم فرجالا أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون »(٢) ففى الآية إشارة إلى صلاة الخوف ، وصلاة الأمن ، وأصرح من هذا قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع »(٣) فذكرُ الله هنا هو الصلاة كما هو واضح .

٧ — والمنافقون دائما متحيرون لا يستقرون على حال ، تراهم « مذبذبين » والذبذبة الاضطراب والحركة فى جهتين متقابلتين ، وهذا فى الواقع عذاب لهم فى الدنيا ، قبل عذاب الآخرة ، فهم فى الدنيا لا يجدون لهم سبيلا ، وسرعان ما ينكشف أمرهم ويفتضحون فيتوقاهم جميع الناس ، ويتواصَوْن باجتنابهم والبعد عنهم ، فيعيشون فى أحط منزلة معنوية فى الدنيا ، وهم فى الآخرة فى الدَّرْك الأسفل من النار .

* * *

(١) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى
(٢) الآيتان ٢٣٨ ، ٢٣٩ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٩ من سورة الجمعة

تلك هي الصفات التي وُصِفَ بها هذا النوع من المنافقين الذين تحدثت عنهم سورة النساء ، ولا شك أن تحديد هذه الصفات منسوبة إلى أصحابها والمتصفين بها ، مع بيان أنهم ممقوتون عند الله والناس ، وأن الله أعد لهم أشدّ العذاب ، وجعلهم والكافرين في جهنم ، وجعلهم في الدرك الأسفل منها ، كل ذلك من شأنه أن يحذر الناس من خلقهم ، ومن شرهم ، وأن يعطي المجتمع نوعا من الحصانة الخلقية ، والتربية العالية المهذبة ظاهرا وباطنا .

والواقع أنه ليس في المجتمعات ما هو أضر عليها من النفاق ، وأنه إذا شاع في أمة ، وفشا في أفرادها وجماعاتها ، كان لها نذير سوء ، بل نذير فناء .

* * *

٢ ــ وكما تحدثت سورة النساء عن هذا النوع من المنافقين بالمدينة ، تحدثت عن نوع آخر هم المنافقون من اليهود .

ومن المعروف أن المدينة كانت تضمُّ كثيراً من اليهود ، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لاقوا منهم كثيراً من العنت ، وطاولوهم كثيراً لعلهم يفيئون إلى ما هو أجدر بهم كأهل كتاب سماوي ، من مؤازرة النبي ، وتقبل دعوة الإسلام ، ولكنهم ما كانوا يزدادُون إلا تمردا وعصيانا ، حتى حكم الله بحكمه فيهم ، فأُجلُوا عن المدينة صاغرين .

ويحسن بنا أن نضع أمام القارىء صورة تاريخية تمثل تمرد هؤلاء ، وألوان نفاقهم وعُتُوّهم ، ومحاربتهم للدعوة الإسلامية ، وإرجافهم عليها وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بألوان باطلهم ، كما تمثل جهاد المسلمين لهذا العدوّ المداخل لهم ، المتغلغل في أعماقهم ، وما كان القرآن يقابل به ترهاتهم وشبههم ، ويفضح به نواياهم السيئة ، فإن هذه فترة من أشد الفترات التاريخية على الإسلام ، ولولا أن الله تعالى أيّد رسوله بنصره ،

وحمى دعوة الحق بفضله ورحمته ، لكان من الجائز أن يتغير وجه التاريخ عما هو عليه الآن ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون[1]» .

وإليك هذه الصورة من صور النضال العنيف الذى قوبلت به دعوة الإسلام فى المدينة على أيدى اليهود :

(١) الآية ٣٢ من سورة التوبة

موقف اليهود من الدعوة الإسلامية ومواقفها منهم*

نضال الدعوة مع المشركين فى مكة :

١ — هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون ، من مكة إلى المدينة بعد نضال شاق مع المشركين ، طال أمده ثلاث عشرة سنة ، واحتملت فيه دعوة الحق ألوانا من المكاره والإيذاء والاضطهاد ، وهى الدعوة الواضحة البيضاء التى لا تدق على العقول ، ولا تعزب عن الأفهام ، ولكن أحداً لم يكن يتوقع أن يلاقى المشركون الدعوة الإسلامية إلا بما لا قوة بها من النضال المر ، والمعارضة الشديدة ، لأنهم وثنيون لا عهد لهم بكتاب من قبل رقت به قلوبهم ، أو تهذبت نفوسهم ، أو سمت عقولهم ، ولأنهم أميون لا يقرءون ولا يكتبون ، وقد انقطعوا فى بقعة من الأرض بعيدة عن المدنية والحضارة ، لا يكاد أحد منهم يتصل بأحد من أبناء الأمم الأخرى إلا قليلا ممن كانوا يرحلون للتجارة رحلات محدودة ، ولأن سادتهم وكبراءهم إلى جانب ذلك كانوا يدركون ما سيجره عليهم انتصار الدعوة الإسلامية من شر ، وما ستحدثه فيهم مبادئها من انقلاب يسوى بين السادة والعبيد ، وبين الأقوياء والضعفاء وبين المسلطين والمسخرين ، ويقيدهم فى مجتمعهم الذى كان طلقا من كل قيد ، إلا من تقاليد بالية موروثة ، بعضها حسن وبعضها قبيح .

كل ذلك كان يوحى بأن القوم لا يمكن أن يذعنوا للدعوة الجديدة من قريب ، ولا أن يتقبلوها بيسر فيفتحوا لها قلوبهم ، ويوسعوا صدورهم

---

* بعض هذا البحث مقتبس مما كتبناه فى تفسير سورة المائدة ونشر بمجلة « رسالة الإسلام » — المجلد السابع ص ١٢١ .

فلسنا مُبْعدين إذا قلنا : إن موقفهم من الإسلام كان مفهوما ، وإنْ كان منكراً ، وكان طبيعياً فى بيئة مثل بيئتهم ، لأن الناس أعداءُ ما يجهلون ، أصدقاء ما يألفون ، أشحَّاء بما يملكون .

٢ً — ولا ينبغى أن يُفهم أن هذه المرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية قد طالت أكثر مما يجب ، أو أن الجهود فيها قد ذهبتْ ضياعا ، فإن الصبر والمثابرة ، هما أعظم سلاح يُشهَر فى وجه المكابرة ، ولا بد أن يوَطِّن المصلحون أنفسَهم على أن يسيروا فى أول خطواتهم فى بطء وتثاقل ، حتى ليخيَّلُ للناس أحيانا أنهم واقفون ، ولا بد لهم من أن ينظروا إلى الزمن نظرة فيها كثير من التسامح ، فإنهم يَجُرُّون من خلفهم أجيالا وأزمانا متطاولة مثْقلة بالتقاليد العتيقة ، والأخطاء المتركبة المتراكمة .

وقد أفادت الدعوةُ الإسلامية من هذا البطء - ومَنْ أراد الدقة فى التعبير فليقل : أفادت من الأناة والصبر - فقد تجلَّتْ مُثُلٌ من البطولة ، والثبات على المبدأ ، والعزوف عن المغريات والمعوِّقات فى سبيله ، من ألوان الرغبة أو الرهبة ، وشهدتْ هذه البيئة المتخلفة - إلا فى نواحى الشر والفساد - نوعا من السموّ الإنسانى لم تكن تعرفه ، وأصبحتْ أنباؤها وأنباء الدعوة المنبثقة فيها ، وأنباء نضالها وكفاحها ، وتعثُّرها حينا وانطلاقها حينا ، وهذا العذابُ الذى يُعَذَّبُه أصحابُها وحملةُ لوائها - أصبح كل ذلك زادا جديداً من الأخبار ، يصل إلى البلاد التى لم تكن تسمع من قبلُ إلا أخبارَ الثأر والفتك ، والسلب والنهب ، والحروب الهمجية ، والنزوات البهيمية ، والعصبيات القبلية .

الأمل فى التعاون مع اليهود باعتبارهم « أهل كتـاب » :

٣ـ — كانت أخبار هذا النضال بين التوحيد والوثنية ، وبين التحرير والاستعباد ، وبين الأخذ بيد الإنسان إلى ما ينبغى له من سموّ وكمال ـ بالإيمان والمعرفة والبر والعمل الصالح ـ وما تريده عليه التقاليدُ الموروثة من البقاء فى ظلمات الجهل والخمول واستغلال الأقوياء والمسلطين ـ كانت أخبار هذا النضال تسرى فى العالم شيئاً فشيئاً ، وكانت تصل إلى كثير من الآذان ، فتتفتح بعض القلوب إلى دعوة الحق ، متقبلة إياها على البعد ، مُعْجَبَة بما يبدو على أصحابها من البطولة المتمثلة فى الصبر ، والمثابرة ، والاستمساك ، وكانت هذه الأخبار تسرى إلى « يثرب » على وجه خاص ، حيث اليهود هناك ، وهم أهل كتاب يدعو إلى التوحيد ، وأتباعُ نبىّ مرسل كان يناضل الوثنية على عهد الفراعنة ، وأصحابُ شريعة ترسم للناس منهاجا معينا فى الحياة ، وتدعوهم إلى الأخذ به فى قوة ، وقد كانوا يعرفون من كتبهم أمر هذا النبى الجديد ، وأوصافه ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فهم يتلقون أنباءه ، ويتمثلون صور النضال بينه وبين الوثنيين فى مكة ، ويستحضرون بها ذكريات نضال نبيهم موسى عليه السلام . فكان ذلك كله فائدة لدعوة الإسلام ، وتمهيداً يُتَطلع معه إلى يوم مقبل ، هو يوم التعاون بين أصحاب الدعوة الجديدة ، وأصحاب الدعوة القديمة ، على تحقيق الغرض المشترك ، الذى هو توحيد الله وتقبل هدايته ، والقضاء على العدو المشترك الذى هو الوثنية واتباع الأهواء .

٤ـ — وكان التطلع إلى هذا التعاون يملأ قلب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانت الآمال فى هذا الشأن تراوده ، فإن المطلع على سيرته يجده

على كثير من الأنس بهذا المعنى ، ويرى كثيرا من تصرفاته ينظر إليه ويستهدفه ، ولم يكن هذا المعنى فى نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصا باليهودية ، ، وإنما كان يراوده فى شأن اليهودية والنصرانية جميعاً ، وله فى كلتا الناحيتين شواهده وأماراته .

وكان التطلع إلى التعاون يراود نفوس اليهود أيضا ، ولكن على نحو آخر ، وبنيَّة أخرى .

تبادل المودة بين المسلمين
واليهود أول العهد بيثرب :

٥ – رأى اليهود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدخل المدينة حاملا راية الدعوة الجديدة ، وقد سبقته إليها سيرة عطرة ، وأخبار تدل على الصدق ، والرغبة الصحيحة فى مبادىء الحق ، ورأوه وقد استقبله أهل يثرب هذا الاستقبالَ التاريخيَّ الرائعَ الذى اشترك فيه رجالهم ونساؤهم وأطفالهم ، ففكروا فى أمر ، ولم يكن هذا الأمرُ الذى فكروا فيه أن يدخلوا فى الإسلام ، أو يؤازروه ابتغاء مرضاة الله ، ولكنه كان أن يحاولوا استدراج هذا الرسول إليهم ، واستمالته إلى حِلفهم ليستعينوا بذلك على تأليف قوة فى جزيرة العرب يقاومون بها النصارى الذين أجلَوْهم عن « فلسطين » لذلك اشتركوا فى الترحيب بالرسول ، وإظهار المودة له ، وقد قابل رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه المودّة منهم بمثلها ، جريا على سجيته فى تقبل الإحسان والجزاء به ، ومجاراةً لآماله التى كانت تراوده فيهم ، فوَثَّق الصلة بينه وبينهم ، وتحدث إلى رؤسائهم وتحدثوا إليه ، وتقرب منهم وتقربوا منه ، وهو لا ينظر إليهم إلا على أنهم موحدون أهلُ كتاب ، وأتباع رسول ، وقد بلغ من توثق الروابط بين الفريقين

أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يصوم يومَ صومهم ، وكان يتواضع لهم ، ويشملهم بكثير من ألوان البر ، ثم كان أن عاهدهم وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم ، واشترط عليهم ، وشَـرَط لهم .

انطواء اليهود على المخاتلة وبدء فتنهم :

٦ ـ ولقد كان هذا الود الذى نشأ بين المسلمين واليهود ، وهذه الصلة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورؤسائهم وعلمائهم ، وهذا العهد الذى أعطى لهم فأمنوا به على أنفسهم وأموالهم ـ لقد كان كل ذلك جديراً بأن يفضى إلى لون من ألوان التفاهم أو التعاون ، ولكن اليهود كانوا يُبْطنون فى أنفسهم معنى غيرَ هذا ، ويستهدفون غرضًا غير الغرض الشريف الذى كان يستهدفه النبى والمؤمنون ، فما هو إلا أن بدأت تعاليم الإسلام تظهر ، وآيات صدقه تداخل القلوب ، وشعر اليهود بأن هذه التعاليم تستهوى كثيرا من علمائهم ورؤسائهم ، وأن أصحابها جادُّون فى نشرها وتأييدها والدفاع عنها بكل مافى استطاعتهم ، وأنهم قد تركزوا فى المدينة وأخذوا يُعدُّون العدةَ للقضاء على الوثنية والشرك فى مكة ، ولأخذ ثأرهم من قريش التى أخرجتهم من ديارهم وأموالهم ـ ماهو إلا أن شعر اليهود بهذا كله حتى داخلهم الحسد ، وتحركتْ فيهم طباع اللؤم والخيانة، وكرهوا أن يثبت أمر هذا الدين أكثر مما ثبت ، وعزّ عليهم أن يعيشوا فى ظلاله وتحت سلطانه فى مرتبة ثانوية ، وإن اكتسبوا الأمن والقرار ، وأفادوا الرواج المادى فى هذا الجوار ، فأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا للنبى والمؤمنين ، وعلى أن يقفوا فى وجه هذه الدعوة ، يصدُّون عنها ، ويبغونها عوجا ، ويحشدون كل مالهم من قوة وجهد فى الإرجاف عليها ، وإثارة الشكوك فيها .

حرب الإرجاف والجدل :

٧ — ويومئذ بدأت بينهم وبين الإسلام حرب أشبه بما نسميه في عصرنا الحاضر « حرب الأعصاب » كان قوامها الجدل والإرجاف ، وإذاعة قالة السوء ، وإظهار الفرح بما يصيب المسلمين من شر ، والحزن لما يصيبهم من خير ، ودسّ المتظاهرين بالإسلام في صفوف المسلمين ، ليعلموا أخبارهم ، وليثيروا من الأسئلة والشكوك ما يزعزع إيمانهم ، إلى غير ذلك من ألوان الحرب والفتنة .

وفي ذلك يقول ابن إسحق صاحب السيرة :

« ونصبت عند ذلك أحبارُ يهود لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العداوة بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن ظهروا بالإسلام ، واتخذوه جنة من القتل ونافقوا في السر ، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وجحودهم الإسلام ، وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتعنتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه إلا قليلا من المسائل في الحلال والحرام »[1] .

اهتمام القرآن بهذه الحرب :

٨ — وهذا اهتم القرآن الكريم بهذه الحرب الجدلية الإرجافية ، فكان يتعقب مزاعم اليهود وشبههم وما يلقون به إلى النبي والمؤمنين ، مفنداً إياه ، مبيناً كذبهم وتعنتهم .

---

(١) سيرة ابن هشام على هامش « الروض الأنف » طبع مصر سنة ١٣٣٢هـ — ١٩١٤م راجع صفحتي ٢٣ ، ٢٤ من الجزء الثاني ، وقد روى عن ابن اسحاق في هذا الموضع بيانا بأسماء اليهود الذين كان لهم نشاط في مناصبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم العداء .

* فمن ذلك ما روى من أن معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء قالا لفريق من اليهود : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته . فقال لهما سلام بن مِشْكم أحد اليهود من بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكره لكم ، فأنزل الله فى ذلك قوله « ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين »(١) .

* وقال رافع بن خزيمة يوماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يامحمد إن كنت رسولا من الله كما تقول ، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله « وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثلَ قولهم ، تشابهتْ قلوبُهم ، قد بيَّنا الآياتِ لقوم يوقنون »(٢) .

* ولما صرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أرجف اليهود على النبى والمسلمين إرجافا شديداً ، ووجدوا فى ذلك فرصة لِبَثّ سمومهم ، ودسّ فتنهم . ثم أرسلوا إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وفداً منهم مؤلفاً من رفاعة بن قيس ، وقردم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، ورافع ابن أبى رافع ، وغيرهم ، فقالوا يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدّقك ـ وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه ، ففى هؤلاء نزل قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق

---

(١) الآية ٨٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١١٨ من سورة البقرة .

والمغرب ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »(١) .

* ومن ذلك أن عبد الله بن صيف ، وعدى بن زيد ، والحارث ابن عوف ، قال بعضهم لبعض : تعالَوْا نؤمنْ بما أنزل على محمد وأصحابه غُدْوة ، ونكفر به عَشيّة ، حتى نلبس عليهم دينهم ، لعلهم يصنعون كما نصنع ، ويرجعون عن دينه ، فأنزل الله تعالى فيهم : « يأهل الكتاب لم تَلبِسُون الحق بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون ، وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجهَ النهارِ واكفروا آخِرَه لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ـ قل إن الهُدَى هُدَى الله ـ أن يُؤتَى أحدٌ مثلَ ماأوتيتم ، أو يُحاجُّوكم عند ربكم ، قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم »(٢) .

* ولما انتصر المسلمون ببدر وعلم اليهود بذلك حزنوا حزنا شديدا ، وجعلوا يبدون الحسرة على قتلى قريش ، وكان مما قاله كعب بن الأشرف حين علم بقتل سادات مكة : هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم لَبَطنُ الأرضِ خيرٌ من ظهرِها ـ وكعبٌ هذا هو الذى ذهب بعد بدر إلى مكة يحرّض على النبى ويُنشد الأشعار ، ويبكى أصحابَ القَليب(٣) ثم رجع إلى المدينة وجعل يشبّب بنساء المسلمين ، وبلغ من غيظ المسلمين منه أن أجمعوا على قتله ، وأوفدوا له أحد الفدائيين فاحتال عليه حتى قتله .

* وقد بلغ من تبجُّحِ اليهود وتجرُّئِهم أن حاولوا فتنة الرسول نفسه ،

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة البقرة .
(٢) الآيات من ٧١ إلى ٧٣ من سورة آل عمران .
(٣) القليب : البئر ، والمراد هنا البئر المعهودة التى ألقيت فيها جثث قتلى المشركين يوم بدر .

وذلك أن أحبارهم ورؤساءهم ذهبوا إليه ذات مرة وقالوا له « إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا وأنا إذا اتبعناك اتَّبعك اليهودُ ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم إليك فتحكم لنا فنتبعك ونؤمن بك ، فنزل فيهم قوله تعالى « وأن احكُمْ بينهم بما أنزل الله ولا تتبعْ أهواءَهم ، واحذرْهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تَوَلَّوْا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون أفحُكمَ الجاهلية يَبْغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يُوقنون »[1] .

٩ — هذه بعض مواقف اليهود فى محاربة الدعوة الإسلامية ، وقد تهيأ لهم بها أن يكوّنوا مركزا وعشا للدسائس فى المدينة وحولها - يأوى إليه كل معارض للإسلام ، أو منافق يدعى الإيمان ، ويمد المشركين بالأخبار والمشورة ، ويغريهم بالتجمع والتكتل لحرب الرسول وأصحابه ، وهم الذين دبروا اجتماع العرب المعروف « بالأحزاب » ويومئذ تعرضت المدينة لخطر شديد ، ولقى المسلمون من الكرب العظيم ما أوقع فى قلوبهم الرّعب وكاد يُفتّن بعضُهم ، ومَشَى المنافقون بالإرجاف وإذاعة أنباء السوء ، وبث الخوف حتى سمَّمُوا جوّ المدينة ، ونقضتْ قريظةُ عهدَها ، واستهانوا بالمسلمين ، وطلبوا إليهم أن يردّوا إخوانهم بنى النضير إلى ديارهم كشرط لبقائهم على عهدهم ، ووقعوا فى النبى صلى الله عليه وآله وسلم يسبّونه ويذكرونه بالسوء ، ويقولون متهكمين : مَنْ رسولُ الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عَقْد ، وفى هذا الموقف يقول القرآن الكريم فى سورة الأحزاب « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتُلى المؤمنون وزُلزِلُوا

---

(١) الآيتان ٤٩ ، و ٥٠ من سورة المائدة .

زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرضٌ ما وَعدَنا اللهُ ورسوله إلا غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورةٌ وما هي بعَوْرة إن يريدون إلا فرارا [1] » .

ولولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين ، وأنزل بالأحزاب عاصفة من الريح اقتلعتْ خيامهم ، وأكفأتْ قدورَهم ، وأدخلت فى قلوبهم الرعب ، فولّوا الأدبار ، ورُدّوا عن غايتهم خائبين ؛ لولا ذلك لكان من الجائز أن يُقضَى على دعوة الإسلام القضاءَ الأخير ، وفى ذلك ، وفى وصف ثبات بعض المؤمنين ونعمة الله عليهم ، تقول سورة الأحزاب : « ولما رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هذا ما وعدَنا اللهُ ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نَحْبَه ، ومنهم من ينتظرُ وما بدّلوا تبديلا ، ليجزيَ اللهُ الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزاً ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَيَاصِيهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون ، وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تَطَئُوها وكان الله على كل شيء قديراً » [2] .

١٠ — وفى هذه الفترة من تاريخ الدعوة الإسلامية كان ما ينزل من القرآن الكريم متجها ـ مع ما سبق ذكره من مناضلتهم ، ومواجهة فتنتهم ، والتعقيب على تمويهاتهم ـ إلى تحذيرهم من الغضبة التى لابد أن ينتهى

---

(١) الآيات من ١٠ إلى ١٣ من سورة الأحزاب .

(٢) الآيات من ٢٢ إلى ٢٧ من سورة الأحزاب .

إليها الأمر إذا استمروا على هذا العناد، وهذه الدسائس .

لذلك نرى فى سورة الأحزاب ـ وقد نزلت قبل سورة النساء كما قدمنا ـ لونا من هذا الإنذار فى قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة ؛ لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا »[1] .

وجاء مثل هذا الإنذار فى سورة النساء إذ تقول « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا »[2] .

١١ ـ وقد اشتركت سورة النساء فى بيان موقف اليهود من الدعوة ، وما لهم من أساليب النفاق ، وتحذير المؤمنين منهم ، وتذكيرهم بماضيهم الأسود فى الخروج على أمر الله ، وفى نقض المواثيق ، وفى أكل الربا ، وقتل الأنبياء ، فأبرزت بهذا كله ذلك اللون من النفاق ، الذى يجعل قوما ذوى كتاب منزل ، ونبى مرسل ، يقفون بالمرصاد لدعوة تصدق كتابهم ، وتؤيد رسولهم ، وتدعو إلى الإيمان به ، فيؤيدون الوثنية عليها ، « ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

ا ـ فأول ماتحدثت به سورة النساء فى هذا هو قوله تعالى :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ، من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا

---

(١) الآيتان ٦٠ ، ٦١ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٤٧ من سورة النساء .

واسمع غير مُسمَع وراعنا — ليًّا بألسنتهم وطعناً فى الدين — ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » [١]

تحقيق المراد بكونهم «أوتوا نصيباً من الكتاب»:

وقد جاء التعبير عنهم فى هذه الآية بقوله تعالى « الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » ، فاختُلف فى فهم ذلك :

فمن الناس من فسره بأن اليهود — وكذا النصارى — لم يصلهم من كتابهم إلا بعضه ، وغاب عنهم بعضه . وذلك أن التوراة لم يُكتب منها إلا النسخة التى كانت على عهد موسى ، وقد كتبها هو عليه السلام ثم ضاعت وكتب اليهودُ غيرها ، ولم يُعرف تاريخياً ماهو الأصل الذى اعتمدوا عليه فى ذلك . ومثل هذا قيل فى شأن الإنجيل ، فإنه ليس له سند متصل عند أهله وهم مختلفون فى تاريخ كتابته [٢] .

فهذا الانقطاع فى تاريخ كلٍّ من التوراة والإنجيل ضيّع على اليهود والنصارى نصيباً مما جاءهم من العلم ، وأنساهم إياه ، ويدل على ذلك قوله تعالى فى شأن اليهود والنصارى « فبما نقضهم ميثاقهم [٣] لعنَّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطَّلِعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح إن الله

---

(١) الآية ٤٦ من سورة النساء

(٢) راجع تفسير المنار : ١٥٧ ج ٣ ، ١٣٧ ج ٥

(٣) الضمير لبنى إسرائيل كما يدل على ذلك سياق الآيات فى السورة .

يحب المحسنين ، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون[1]، فهاتان الآيتان تقرران أن كلا من اليهود والنصارى نسوا حظاً مما ذكّروا به ، وذلك هو ماضاع منهم ، أما ما بَقِىَ فهو الذى أريد من أنهم « أوتوا نصيباً من الكتاب » .

وهذا التفسير فى نظرى ليس بسديد ، لأنه لايقال عن الذين ضاع منهم بعض ماأوتوه : إنهم أوتوا نصيباً منه ، وإنما يقال مثلا : لم يبق لهم إلا نصيب مما أوتوا ، ثم إن قوله تعالى فى شأن اليهود « ونسوا حظاً مما ذكروا به » ليس ظاهراً فى إفادة أن المقصود بالحظ المنسىّ هو ماضاع عن طريق ضياع نسخة التوراة كما ذكر .

ويرى الاستاذ الإمام الشيخُ محمد عبده ـ فيما نقله عنه الشيخُ رشيد ـ أن المراد بذلك هو كونهم عاملين ببعض أحكام التوراة تاركين بعضها ، فالنصيب الذى أوتوه هو ماعملوا به ، والحظ الذى نسوُه هو ما أهملوه [2]

وهذا الرأى أيضاً لايتمشى مع التعبير الذى عبَّرتْ به الآية ، فلا يقال « أوتوا نصيباً من الكتاب » لمن أوتوا الكتاب كله ثم تركوا بعضه ، إنما يتمشى هذا فى قوله تعالى « أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . . . . » .

وعندى أن المقصود بالنصيب الذى أوتيه اليهود من الكتاب هو التوراة نفسها ، فإن الله تعالى قد أنزل التوراةَ على موسى وأرسله إلى بنى إسرائيل فهى نصيبهم من الكتاب ، أى من الكتب السماوية ، والإنجيلُ الذى أنزله

---

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة المائدة

(٢) ١٣٧ ج ٥ تفسير المنار

الله على عيسى هو نصيبُ النصارى من الكتاب أى من الكتب السماوية ، والمسلمون نصيبهم القرآن وهو مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه أى حاكم ، وقوله فاصل . والمراد أن يقول : إن هؤلاء اليهود الذين أوتوا من الكتب نصيباً ، وعرفوا الهداية الإلهية، وتلقوها عن رسول - إن هؤلاء يستبيحون لأنفسهم أن يشتروا الضلالة ، ويقصدوا إضلال المؤمنين ، وذلك منهم عجيب ، لأن الذى أوتى نصيباً من هداية الله ووحيه المنزل لا يليق به إلا أن يكون هادياً مهدياً ، لا ضالا ولا مضلا ، فالآية فى مقام التعجيب من أن يكون هذا شأنهم ، وهم أهلُ كتاب .

وقد جاء هذا التعبير أيضاً فى سورة « آل عمران » حيث تقول « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريقٌ منهم وهم معرضون »[1]

أى أن لهم اتصالا بكم وبالوحى الذى أنزل عليكم ، من حيث إنكم جميعاً أهل كتاب سماوى : فى مقابل أهل الوثنية الذين لا دين لهم ، ولا يستند ما هم عليه من شرك إلى كتاب منزل ، فلو وقع الإعراض عن كتاب الله من وثنى لكان غير عجيب ، أما أن يقع ممن يشاركم فى أنه صاحبُ كتاب تلقاه عن رسول من رسل الله : فذلك هو الأمر العجيب .

* واشتراء اليهود للضلالة بالهدى هو تبديلهم ما يعرفون من العلم بالرسول ، وكون رسالته حقاً وصدقا ، فهو من قبيل التمثيل بمن يشترى سلعة يبذل فيها ماله وهو يعرف أنها سلعة فاسدة لا يرغب أهل العقول فيها ، والاشتراءُ فى هذا التمثيل هو تلهفهم على الضلالة ، ورغبتهم فى الحصول عليها ، كما يرغب المشترى فى اقتناء سلعة فيبذل ثمنها .

---

(١) الآية ٢٣ من سورة آل عمران

وقد يكون المراد معنى حقيقياً أو قريباً من الحقيقة ، وذلك أن اليهود قد جرت عادتهم فى جميع أطوار تاريخهم أن يبذلوا من أموالهم قسطاً فى سبيل الدعوة إلى الضلالة والفساد ، فشراؤهم الضلالة هو بذلهم الأموال فى محيط أهل الإيمان ليفسدوا عليهم إيمانهم ، وقد كانوا يصطنعون قوماً من المنافقين ، ويغرونهم على ذلك بالأموال وغيرها ، كما كان عوام اليهود يعطون خواصّهم وأحبارهم كثيراً مما يجمعون من المال ، ليكيدوا بذلك للإسلام ، ويزلزلوا على أهله ، ويرجفوا على مبادئه وأحكامه .

وما زال هذا اللون من اشتراء الضلالة سبيلا من سبل اليهود فى العالم ، ومَن دَرَس أساليب الصهيونية العالمية يتجَلى له ما يصنعون من ذلك ، ففى أمريكا وفى أوربا تُجمع الأموال بالملايين من أفراد الشعوب ومن حكوماتهم وتوضع تحت تصرف الدولة التى خلقوها لكى تحارب الإسلام ، وتقضى على شعوبه وحَمَلة لوائه ، كما كان سلفهم يضعون الأموال الطائلة فى أيدى أحبارهم لمثل ذلك ، فالتاريخ يعيد نفسه ، وأخلاقُ السوء أصيلة فى أصحابها تنتقل عَبْر القرون والأجيال ، ثم نرى هذه الأموال المجمّعه تحوّل إلى جهود مادية ، وإلى كتب تؤلف ، وإلى إذاعات تذاع ، وإلى صحف تدس ، وإلى دراسات يقصد به الضلال والإضلال حتى فى معاهد العلم بأوربا وأمريكا وغيرهما ، بل لدنيا أيضا معاشر الشرقيين ، فإن الأموال تنفق هنا بسخاء على زلزلة المؤمنين ، وفتنتهم عن دينهم ومُثُلهم ، وإن كثيرا من المعاهد والجامعات الأجنبية ما أنشىء إلا لاشتراء الضلالة ، وقصد الإضلال .

والآية الكريمة تقف بعد تقرير هذه الحقيقة ، والتعجيب منها موقف الناصح للمؤمنين المذكر لهم بأن الله تعالى هو أعلم بأعدائهم وبما يبيتون من كيد ، وأن عليهم أن يستنصروا به جل شأنه ، باتباع هداه ، وبالإخلاص

له ، وبالجهاد فى سبيله « ولينصرنَّ اللهُ من ينصره » « وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا » .

* ثم ذكرت الآية لوناً من ألوان استهزائهم ونفاقهم وحملت عليهم فى شأنه حملة شديدة ، فمن ذلك ما كانوا يفعلونه من تحريف الكلم عن مواضعه ، فتارة يفسرون كلام الله بغير مراده افتراء عليه ، أو يتأولونه على غير تأويله ، وتارة يذهبون إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم يسألونه عن الأمر فيخبرهم به ، فإذا انصرفوا من عنده حرفوا كلامه ، وتارة ينكرون ما يعرفون من صفة النبى صلى الله عليه وآله وسلم التى ذكرت فى كتبهم . . . إلى غير ذلك من التحريف والكتمان وباطل التأويل .

ومن ذلك ما كانوا يرتكبونه من سوء الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ يقولون له حيناً : سمعنا وعصينا ، يريدون بذلك أن يثيروه ويفتّوا فى عضده ، ويهوّنوا أمره على أصحابه ومتبعيه ، ويقولون له حيناً آخر : اسمَعْ غير مُسْمَع ، كما يقال فى السب والدعاء بالشر : « اسمع يافلان لا سمِعْتَ » — لعنهم الله لعناً كبيراً — وحيناً يقولون « راعِنَا » وهذا لفظ محتمل لمعنى قول القائل : « راعنا سمعك » أو « راعنا التفاتك » أى استمع إلينا ، والتفت فإنا نريد أن نحدثك ، وهو صالح أيضاً لأن يراد به وصف من الرُّعونة بمعنى الطيش ، فهى كلمة ذات وجهين اختاروها فى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفاقاً واستهزاء ولَـيًّا بألسنتهم ، أى إرادة لجانب الالتواء باختيار التعبير باللفظ الملتوى المحتمل ، وقد ورد أنهم كانوا أحياناً يقولون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم « السَّامُ عليكم » — والسامُ هو الموت والهلاك — ويديرون ألسنتهم على نحو يجعل السامعين يظنون أنهم يقولون : السلام عليكم ، فهذا نوع آخر من اللىّ باللسان نفاقاً وطعناً فى الدين ، بالطعن فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد تنبه

رسول الله إلى قصدهم فى ذلك فكان يقول لهم « وعليكم » وتلك مقابلة مهذبة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسفاهتهم وبذاءتهم ، وليس لهم أن يشتكوا منها ، لأنه إنما رد عليهم بمثل ما قالوا ، فإن كانوا قد قالوا خيراً فهو خير ، وإن كانوا قد قالوا شراً فعاد إليهم الشر ، وهى من الرسول — مع ذلك — كلمة حق فى الواقع ، فإن السام أى الموت ، هو حقٌّ على البشر جميعاً ، لا فرق فى ذلك بين الرسول وبينهم .

والآية تظهر هذا اللون من بذاءاتهم كمظهر من مظاهر نفاقهم الذى استحقوا به اللعن والطرد من رحمة الله — وفى ذلك إيذانٌ بما سيكون من مصيرهم فيما بعد — وهو معنى قوله تعالى « ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمَعْ وانظُرْنا » أى بالعبارات الصريحة المهذبة التى لا تحتمل التواء « لكان خيراً لهم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » والقليل هو إيمان بعضهم من أمثال الذين أسلموا ، أو القليل هو إيمانهم ببعض ما جاءهم إيماناً لا وزن له ، ولا يُعتَدُّ به فى جانب ظلمهم وطعنهم فى الرسول . وحربهم للإسلام .

وقد جاء فى سورة البقرة التيئيس من إيمان هؤلاء ، وقطع أمل الرسول والمؤمنين فيه ، مع تعليل ذلك بخلقهم فى تحريف كلام الله بعد فهمه ، وفى النفاق والتبييت ، إذ تقول « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقَلوه وهم يعلمون ، وإذا لقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالو أتحدثونهم بما فتح اللهُ عليكم ليحاجُّوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ، أوَلا يعلمون أن الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلِنون (١) » .

---

(١) الآيات من ٧٥ إلى ٧٧ من سورة البقرة

إنذار لليهود :

(ب) ثم جاءت السورة بإنذار أصرح ، وهو ما سبق أن تحدثنا عنه وعن نظيره فى سورة الأحزاب ، وذلك قوله تعالى فى سورة النساء « يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقًا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا »[١] وقوله تعالى فى سورة الأحزاب : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبلُ ولن تجد لسنة الله تبديلا »[٢].

وقد اختلف المفسرون فى فهم المراد مما هُدِّدُوا به من الطمس على الوجوه ، والرد على الأدبار ، واللعن كما لُعن أصحاب السبت ، فمنهم من قال: الطمس الذى هُدِّدوا به هو المسخ ، ومنهم من قال: هو تقبيح صورهم ، ومنهم من قال : هو طمس مقاصدهم ووجوه مساعيهم فى الكيد للإسلام .

وأحسن ما قيل فى تفسير ذلك أن المراد به طمس آثارهم من الحجاز ، وردّهم على أدبارهم إلى البلاد التى جاءوا منها[٣] ، وإنما رجحتُ ذلك لأنه يتلاقى فى المعنى مع ما تصرح به سورة الأحزاب فى الآية التى ذكرناها من أنهم إن لم ينتهوا عما درجوا عليه فسيكون جزاؤهم الطردَ من المدينة والإبعاد « فلا يجاورونك فيها إلا قليلا » .

وكذلك يقال فى تفسير اللعن الذى هُـدِّدوا فى آية النساء بأن يحل بهم

---

(١) الآيات ٤٧ من سورة النساء

(٢) الآيات من ٦٠ إلى ٦٢ من سورة الأحزاب

(٣) نقله الشيخ رشيد عن بعضهم — انظر ص ١٤٥ من الجزء الخامس من تفسير المنار .

كما حل بأصحاب السبت ، فمعناه الذل والإهلاك اللذان هما سنة الله فى الطغاة والمجرمين ، وذلك واضح فى آيات الأحزاب حيث تقول « ملعونين أينما ثُقِفوا أُخذوا وقتلوا تقتيلا » وحيث تقرر أن هذه « سنة الله فى الذين خلوا من قبل » ومنهم أصحاب السبت ، وأن سنة الله لا تبديل لها « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

* * *

حـ — ثم تبين سورة النساء أن اليهود قوم مغرورون بأنفسهم فتقول :

« ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا ، انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا »[1]

وقد عُرف من تاريخ اليهود فى ماضيهم وحاضرهم أنهم يعتقدون فى جنسهم من المزايا الخِلقية والتكوينية ما يجعلهم يزعمون أنهم « شعب الله المختار » وكان قدماؤُهم يقولون كما حدثنا عنهم القرآن « نحن أبناء الله وأحباؤه » بل ما زال مُحَدَثُوهم يرددُون دلك ويموّهون به على العالم ، وقد عجّبَتْ سورة النساء من خلقهمُ هذا إذ يزكّون أنفسهم ، وقررت أن زكاة الناس وفضلهم الخَلقى التكوينى إنما هو لله وهو رهن بمشيئته ، ويستوى أمام هذه المشيئة الإلهية جميع البشر ، لافرق بين يهودى وغير يهودى ، وكذلك الشأن فى الزكاة النفسية والخُلقية ، إنما تتبع المشيئة الإلهية وهى مرتبطة بالحكمة والعدل ، فمن فعل الخير ، ودعا إلى الحق ، وكان خيّراً فى مراميه وأفعاله فهو الذى يزكيه الله ويُوليه حبّه ، ولا يُظلم الناس فى ذلك فتيلا ، بل يجنى كلٌ ثمرةَ فعله ونواياه بتزكية الله أياه حسب زكاة نفسه ومقاصده

---

(١) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة النساء

وقد جاءت الآية الثانية صريحة فى أنهم يفترون على الله الكذب فى ذلك ، فإن الله لم يجعلهم شعبه المختار ، ولم يميزهم بميزة فى الخلق تقتضى مايزعمونه من تزكيه أنفسهم .

وقد جاء فى سورة المائدة إسناد لون من تزكية النفس على غير أساس، إلى اليهود والنصارى جميعا ، إذ تقول « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير » (١)

ولكن اليهود أكثر إسرافا فى ذلك ، وهم الذين قالوا « لن تمسنا النار إلا أياما معدودات » وروى أنهم كانوا يقولون « ما نعمله من الذنوب نهاراً يكفره الليل ، إلى غير ذلك من مظاهر غرورهم ، وما زال ذلك خلقهم فى العصر الحاضر ، فهم يذيعون أنهم أفضل الشعوب ، وأن دماءهم أزكى الدماء ، وأنهم أولى الناس بحكم العالم والسيطرة على مقادره .

بيان المراد مما جاء فى القرآن ،
من تفضيل اليهود على العالمين* :

ويجدر بنا أن نقف هنا وقفة يسيرة نبين بها ما يفهم من مثل قوله تعالى مخاطباً اليهود « وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » وقوله تعالى : « وأنى فضّلتكم على العالمين » فإن اليهود كثيراً ما يستدلون بذلك على ما يفخرون به ، ويزكون أنفسهم ، من أنهم شعب الله المختار ، ويقولون

(١) الآية ١٨ من سورة المائدة .

* مقتبس من بحث لنا عن « سورة المائدة » منشور بالمجلد السابع من مجلة « رسالة الإسلام » ص ٢٤٠ .

للمسلمين : نحن بنص الكتاب الذى تؤمنون به أفضل العالمين بتفضيل الله ، وقد أوتينا من فضل الله ما لم يُؤتَ أحدٌ من العالمين .

والحقيقة أنه لا مُتَمَسَّك لهم فى ذلك ، وإنما المراد ـ والله أعلم ـ أنه آثرهم بكثير من النعم على العالمين فى عصرهم ؛ حيث بعث فيهم كثيراً من الأنبياء ، ولوّن لهم أنواع الهداية ، وأنقذهم من كثير من المآزق وحَلُمَ عليهم فلم يأخذهم بذنوبهم ، مع افتتانهم فى ضروب العصيان والفسوق ، ولو شاء لأهلكهم وأفناهم عن آخرهم ، وهم فى كل ذلك لا يضربون إلا أسوأ الأمثال فى النكران والكفران ، فتفضيل الله لهم هو إيثارهم بدعوة موسى وغيره من الدعوات التى ترادفت عليهم وتتابعت ، وليس معناه تفضيلهم التكوينى فى خَلق أو خُلق أو علم أو ذكاء أو فراهة أجسام ، أو نحو ذلك مما يزعمون ، وبه على غيرهم يتطاولون ، ولا يكاد يُعرف شعبٌ من الشعوب التى أرسل الله إليها أنبياءه قبل بنى إسرائيل ، صابرتهم السماءُ على تكذيبهم والتوائهم وعنادهم وتحريفهم ونفارهم عن الحق ، وجماحهم عن الهدى ؛ كشعب إسرائيل ، فقد كان الذين يكذّبون يُستأصَلون بقارعة سماوية كقارعة عاد وثمود وأصحاب مدين وقوم لوط ، ولكن دعوة الرسل دخلت بعد ذلك فى طور جديد غير طور الاستئصال والإبادة ، ولله فى ذلك الحكمة البالغة ؛ فهو تمهيد لعهد جديد يُترك فيه الناسُ وما يختارون بعد أن وضحت الرسالات ، وتعددت الآيات ، « ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » .

فهذا هو ما يمتن الله به على بنى إسرائيل من التفضيل والإيثار ، ولو كان الأمر كما يزعمون من تفضيل تكوينى فى خَلق أو خُلق لما كان القرآن إلا متعارضا بعضُه مع بعض حيث يصفهم فى كثير من المواضع باللؤم

والنقض ، ويلعنهم ويعبر عن طردهم من رحمة الله ورضوانه بأنه « جعل منهم القردة والخنازير » ، وقال لهم « كونوا قردة خاسئين » ويصف التواءهم العقلى بمثل قوله « أفلا تعقلون » ، « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » ويصور قسوة قلوبهم بصورة بليغة إذ يقول « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يَشَّقَّق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله » ويقول عنهم « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون » ، « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » . « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان دواد وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

ولو أن باحثاً جمع آيات القرآن الكريم عن اليهود ، واستخلص منها ماتدل عليه من مثالبهم ومساوىء أخلاقهم وأفعالهم ، والتواء طبيعتهم . لجمع ـ أو كاد ـ جميع خصال السوء . وأخلاق الرذيلة . فكيف يتبجحون مع هذا بأن القرآن يقصد امتيازهم على جميع من سواهم من الأمم ، وكيف يستمسكون بما يفهمون من ظاهر آية أو آيتين وقد تحالفت آيات القرآن التى نزلت فيهم على غير مافهموا ؟

والخلاصة أن القرآن حين قرر أنهم فُضِّلوا على العالمين ، وأنهم أوتوا مالم يُؤتَ أحدٌ من العالمين ، إنما ساق ذلك فى معرض الامتنان عليهم بالنعم وإثبات أنهم يجحدونها ويكفرون بها ، فهو إلزام منطقى بلؤمهم ، حيث أوثروا وأوتوا النعم فكفروا وتولَّوْا واستغنى الله !

الفضل والخيرية وخضوعهما للسنن الكونية :

ألا وإنه ليس أضر على الأمم ، ولا أبعث على غرورها ، ولا أدنى إلى تواكلها وتراخيها عن العمل والجد ، من أن يداعبها مثل هذا الخيال المنوِّم المثبِّط ، وإن ظُنَّ أنه باعث مُنَشِّط ، وأقصد به أن تظن الأمة أنها مُفَضلة تفضيلا طبيعياً على غيرها ، وأن لأبنائها من المزايا ماليس للناس، فالواقع أنه ليس فى خَلق الرحمن من تفاوت ، وإنما ترتفع الأمم وتَـفضُل بالأخلاق والأعمال وانتشار الفضيلة وصلاح البيئة ، وقد خاطب الله تعالى المسلمين بأنهم « خير أمة أخرجت للناس » ولكنه أتبع ذلك بما يفيد أن هذه « الخيرية » ليست هبة فى الخلق واختصاصاً بالرحمة دون مبرر ، ولكن لأنهم حملوا مبادىء هذه الخيرية ، واضطلعوا بأسبابها : « تأمرون بالمعروف وتَنهَـون عن المنكر وتؤمنون بالله » ثم أتبع ذلك بما يدل على أن أهل الكتاب يستطيعون بالإيمان أن يكونوا كذلك ، وأن يحصِّلوا لأنفسهم الخير فقال « ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم » .

ﺫ — وتحدثت عنهم السورة بعد ذلك فى قوله تعالى :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبْت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم اللهُ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ، أم لهم نصيبٌ من الملك فإذاً لايؤتون الناس نقيرا ، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ، فمنهم من آمن به ومنهم من صَدَّ عنه ، وكفى بجهنم سعيراً » (١).

وقد قدمنا بعض ماورد من الروايات التى تدل على أن اليهود زعموا للمشركين أنهم أهدى من المؤمنين سبيلا .

---

(١) الآيات من ٥١ إلى ٥٥ من سورة النساء .

ونوردهنا رواية أخرى فى ذلك أوردها ابنُ كثير وغيره عن عكرمة قال : جاء حيى بن أخطب ، وكعب بن الأشرف ، إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوْماء [١] ، ونسقى الماء على اللبن ، ونفك العانى [٢] ، ونسقى الحجيج ، ومحمدٌ صُنبور [٣] قطع أرحامنا ، واتبعه سرّاق الحجيج من غفار [٤] ، فنحن خيرٌ أم هو ؟ فقالوا أنتم خيرٌ وأهدى سبيلا ، فأنزل الله « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

فالآية تسجل عليهم هذا الموقف المخزى ، إذ أنهم وهم أهل كتاب ، قد آمنوا « بالجبت » وهو الردىء الذى لا قيمة له ، ولذلك يطلق على السحر وعلى الصنم ، وذلك أنهم حكموا بأن الذين يتبعون الأوثان ، ويدينون بالخرافات والأوهام ، على هدى ، فقد صدقوهم أو تظاهروا بأنهم يصدقونهم ويؤمنون بما لهم من جبت ، وكذلك هم يؤمنون بالطاغوت ، وهو كل ما سوى الله ممن يُؤثَر على الله ، من صنم ، أو شيطان ، أو رئيس ، أو غير ذلك ، متى أدَّى إلى طغيان مَنْ آثره وحَكَّمه .

وتلك سُبَّة فى جبين اليهود ، ومخزاة فى تاريخهم الأسود ، فكيف يَسُوغ لأهل كتاب سماوىّ أن يؤيدوا أو يباركوا أهل الوثنية والطواغيت ،

---

(١) الكوماء . الناقة الضخمة السنام .
(٢) العانى : الأسير .
(٣) الصنبور : الرجل الذليل الضعيف بلا أهل ولا عقب ولا ناصر .
(٤) غفار — على وزن حذام — : اسم قبيلة .

ولكنهم إنما فعلوا ذلك حسداً للمؤمنين ، فانساقوا بإيحاء هذا الحسد ودفعه إلى هذا الموقف ، وكم يجُرُّ الحسد على أصحابه من مصائب ، ويوقعهم فى ورطات .

رأى أحد اليهود المعاصرين فى هذا الموقف :

وقد نقل الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » تعليقا على هذا الموقف بقلم أحد كبار اليهود فى العصر الحاضر ، وهو الدكتور إسرائيل ولفنسون مؤلف كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » ونحن ننقل هذا التعليق بنصه لما فيه من الإنصاف أو الاعتراف ، على الرغم من أنه صادر من يهودى :

قال الدكتور إسرائيل : « كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية ، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم ، فى سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عَبَدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ، ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام ، والوقوف منهم موقف الخصومة »[1] .

وقد عقبت الآيات على هذا الموقف بالإشارة إليهم وإلى أنهم ملعونون من الله ، ثم أشارت إلى أن هذا إنما صدر منهم عن خلق الضن بقولة الحق

---

(١) ص ٣٢٠ من كتاب (حياة محمد) للمرحوم للدكتور هيكل .

حسدا منهم لصاحب الحق ، وأنهم لو كان لهم نصيب من الملك لما آتوا الناس نقيرا ، والنقير : هو النكتة فى ظهر النواة ، والمراد أيسر الأشياء وأقلها ، فهم يبخلون حتى بمثل ذلك ولو كان لهم نصيب من الملك ، لما هم عليه من البخل والحسد والرغبة عن إيصال الحق إلى أصحابه ، ثم أفصحت الآيات عن الباعث الأصلى فيهم إلى هذا كله ، وهو الحسد : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » والحقيقة أن اليهود وقفوا من الرسالة المحمديه هذا الموقف مدفوعين بعامل الحسد : لمَ لمْ يكونوا هم أصحابَ هذا الفضل، ولم خُصَّ به محمد من دونهم ، وقد كانوا يودون لو استطاعوا أن يؤثّروا فى الرسول فينحاز إليهم ويسير فى فلكهم ، وقد ردَّ الله عليهم بأن تاريخهم يشهد أنهم يحسدون ويحقدون حتى على من أوتوا الملك والحكمة منهم ، « فإن الله قد جعل فى أسباط بنى إسرائيل - الذين هم من ذرية إبراهيم - النبوة ، وأنزل عليهم الكتاب ، وحكموا فيهم بالسنن وهى الحكمة ، وجعل منهم الملوك ، ومع هذا فمنهم من آمن به ، أى بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ، ومنهم من صدّ عنهم أى كفر به ، وأعرض عنه ، وسعى فى صدّ الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم ، أى من بنى إسرائيل ، فقد اختلفوا عليهم فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل »[1]

* * *

هـ — لم يبق بعد ذلك مما يتعلق باليهود إلا ما جاء عنهم فى السورة حين سألوا الرسول أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، وهو موقف يتصل بتعنتهم لا بنفاقهم ، وقد تحدثنا عنه من قبل فى إجمال ونحن بصدد عرض آيات السورة وموضوعاتها ، عند قوله تعالى « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم

---

(١) ابن كثير فى تفسيره ص ٤٨٨ ج ٢

كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، الآيات (١)

* * *

النوع الثالث من المنافقين :

٣ — وكما تحدثت السورة عن النوعين السابق ذكرهما من المنافقين ؛ تحدثت عن نوع ثالث ، وجاء حديثها عن هذا النوع فى قوله تعالى :

« فما لكم فى المنافقين فئتين ، والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا مَن أضلّ اللهُ ؟ ومن يُضللِ اللهُ فلن تجد له سبيلا ، ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ، فإن تَولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ، إلا الذين يَصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حَصِرت صدورُهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم — ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم — فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما رُدّوا إلى الفتنة أُركسوا فيها ، فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثَقِفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبيناً » (٢)

١ — تختلف الروايات فى تحديد من نزلت فيهم هذه الآيات ، وأصح هذه الروايات من جهة المعنى ، أن جماعة كانوا بمكة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يهاجروا معه مع إعلانهم الإيمان فى الظاهر ، وقد بدا منهم مايدل على مظاهرتهم للمشركين سراً .

---

(١) من ١٥٣ إلى ١٦٢ من سورة النساء — راجع ص ٣٩ من هذا الكتاب .

(٢) الآيات من ٨٨ إلى ٩١ من سورة النساء

وقد وقف المسلمون موقفين مختلفين فى شأن هؤلاء . فكانت فئة منهم ترى أن يعاملوا معاملة المشركين ، لأن حقيقتهم هى الشرك وإن تظاهروا بالإيمان ، وفى أخبارهم وتصرفاتهم مايدل على ذلك ، كما أن بقاءهم فى دار الشرك أمارة على أن قلوبهم غير ممتلئة بنور الإيمان ، وكانت فئة أخرى من المؤمنين ترى أنه ليس من الرأى أن يعامل هؤلاء معاملة المشركين مع إعلانهم أنهم مؤمنون وتكلمهم بكلمة الإسلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساكتاً عن هذا الأمر ليس له انحياز إلى هذا الفريق أو ذاك ، كأنه كان يتأمل ويُنعِمُ النظرَ ، أو ينتظر إرشاد الله .

فى هذا الشأن نزلت تلك الآيات ، وكان حكم الله تعالى فى هؤلاء أنه قسمهم أربعة أقسام :

القسم الأول : أولئك الذين يدّعون الإسلام ولم يهاجروا مع أنه ليس بهم عجز عن الهجرة ، ولا يحول بينهم وبينها شىء .

فهؤلاء لا تقبل منهم دعوى الإيمان ، ولا يعاملون إلا معاملة المشركين : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ، فإن تَوَلوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً » .

فالآية تجعل عدم هجرتهم دليلا على عدم صدقهم فى دعوى الإيمان ، فالهجرة كانت يومئذ هى الشعارَ فلا تنفك عن الإيمان ، ومفروض أن حكم القرآن على هؤلاء المتباطئين عن الهجرة مقيد بما ذكر فى آية أخرى من أن المستضعفين الذين لايجدون حيلة ولا يهتدون إلى الهجرة سبيلا مَعفوٌ عنهم ، وإذن فالمراد بهذا الصنف هم الذين يدّعون الإيمان ، ولا يهاجرون دون ضعف فيهم وعجز عن الهجرة ، فتلك أمارتهم .

وقد قدمت الآية لهذا الحكم بما يعلمه الله فيهم ، من أنهم مرتكسون

فى الشرك أى منقلبون إليه ، مرتدون عن الإيمان ، يتظاهرون بأنهم معكم ثم يعودون منقلبين مرتكسين إلى شركهم ، وذلك هو إركاس الله لهم بما كسبوا من النفاق وعدم الإخلاص ، فهو تصوير لحالهم بحال من يهم بالنهوض فيقع ، أو بالتقدم فيتأخر ويرتد راجعاً منقلباً . وإذا كان الله تعالى قد أضلهم بما كسبوا ؛ فهل تريدون أن تهدوا من أضله الله « ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » .

وقدمت الآية أيضاً بما يعلمه الله فيهم من أنهم يودون للمسلمين الكفر ليكونوا هم وإياهم سواء فيه .

وإذن فقد رتب الحكم فى شأن هذا الصنف على أمرين ، أحدهما هو علم الله بحالهم وبنواياهم الخبيثة ، والغرض من ذكره هو إيناس المؤمنين ، واستلال عوامل التردد من نفوس المترددين منهم فى شأنهم ، والأمر الثانى ـ وهو الذى عليه مدار الحكم فى الواقع ، وبحسب الظاهر ـ هو عدم هجرتهم مع تمكنهم من الهجرة ، فتلك هى الأمارة الظاهرة التى يستند إليها الحكم .

القسم الثانى : فريق استثنتهم الآيات من هؤلاء الذين لم يهاجروا إلى المدينة مع المؤمنين ، وهم الذين لم يبقوا فى مكة مع المشركين ، ولكن انحازوا إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد ، فأصبحوا بذلك بعيدين عن أن يشتركوا فى إيذاء المسلمين والتدبير لكيدهم ، لأنهم من قوم ليسوا أعداء للمسلمين ، يمنعهم العهد والميثاق من أن يؤووا إليهم أعداء المسلمين .

وهذا شبيه بما يعرف فى عصرنا الحاضر من الالتجاء إلى بلد صديق ، لا يمكن أن تسمح حكومته بنشاط معاد يضر أصدقاءها .

وإذن فهم مأمونو الجانب ، لا تخشى غوائلهم ، ومن هذا يتبين أن الإسلام لا يتحكم وإنما ينشد الأمن ؛ فمتى وجده اكتفى به ، دون تعنت .

وذلك هو قوله تعالى « إلا الذين يَصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق »

القسم الثالث :فريق عُطفوا على هؤلاء الذين استُثنوا ، وهم قوم جاءوا المسلمين ولكنهم آثروا أن يقفوا موقف الحياد بينهم وبين المشركين ، بسبب أنهم محرَجون ، حَصِرت صدورهم - أى ضاقت - بأن يقاتلوا المسلمين - وهم لا يستحقون فى نظرهم قتالا - أو يقاتلوا قومهم - وفيهم أقرباؤهم وأزواجهم وأولادهم ومصالحهم - فالآيات تستثنى هؤلاء أيضاً من حكم الأخذ والقتل الذى حكمت به على الأولين ، وتأمر بقبول حيادهم وعدم التعرض لهم كالقسم الثانى .

وهذا أيضاً مظهر كريم من إنصاف الإسلام وعدله ، حيث يفسح فى بلاده ومجتمعه مكاناً لمن ليسوا من أنصاره ، اكتفاء بأنهم ليسوا أيضا من أعدائه ، وفيه كذلك دلالة واضحة على أنه لا يبغى التحكم ، وإنما يكتفى بما يكفل له له الطمأنينة والأمن .

وذلك هو قوله تعالى : « أو جاءوكم حَصِرتْ صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » .

ولما كان هذا الحكم فيه كثير من التسامح ، وفيه إلزام للمجتمع بأن يتقبل قوما يشاركونه الحياة ، ويقاسمونه الموطن . ولا يشاركون فى تحمل أعبائه ، ومجاهدة أعدائه - لما كان هذا الحكم كذلك ، عقب الله عليه بما يخفف وقعه على المؤمنين ، ويُومىء إلى حكمته التشريعية ، فقال « ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم » ، أى فمن رحمته تعالى بكم أن صرفهم عن الاشتراك الإيجابى فى حربكم ، ومن الحكمة أن تقبلوا منهم هذا الموقف السلبى بينكم وبين أعدائكم ، فذلك كسبٌ لكم فى الواقع ، إذ هو تقليل لعدد خصومكم ، وربما خطوا بعد ذلك خطوة إيجابية لمصلحتكم كما هو الشأن فيمن يعاشر قوماً ويواطنهم ويعاملهم ، فمرور الزمن كفيل بأن يجعلهم لكم .

وقد جعلت الآية على هؤلاء وأولئك ـ وهم الذين استُثنوا من الأولين ـ شرطين: أن يعتزلوا المسلمين فلا يقاتلوهم ، وأن يلقوا إليهم السلم ، أى يخضعوا لحكمهم مسالمين غير مناهضين ولا متسببين فى إحداث أى قلق ، وهذان شرطان عادلان ، ولا ضرر فيهما على هؤلاء إذا كانوا صادقين فى موقفهم الحيادى .

وذلك قوله تعالى : «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا» .

وشرط عدم المقاتلة مفهوم من الكلام من قبل ، ولكن الآية عادت إليه لأنه هو الأساس فى قبولهم ، ولتُرتبَ عليه ما جاء بعده من إلقاء السَّلم ، أى الجنوح إلى المسالمة والطاعة .

القسم الرابع : فريق يريدون أن يجمعوا بين إرضاء المؤمنين ليأمنوهم ، وإرضاء الكافرين ليأمنوهم ، وأولئك هم الذين يقول الله فيهم : «ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، كلما رُدُّوا إلى الفتنة أركسوا فيها» .

قال ابن كثير فى تفسيره : «هؤلاء فى الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ، ولكنْ نيةُ هؤلاء غيرُ نية أولئك ، فإن هؤلاء قوم منافقون ، يظهرون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، ويصانعون الكفار فى الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم ، وهم فى الباطن مع أولئك ، كما قال تعالى : «وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم» الآية ، وقال هنا : «كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها» أى انهمكوا فيها»[1].

وابن كثير فى هذا يريد أن يبين الفرق بين هذا الفريق والفريق الذى

---

(١) ٥٣٢ من الجزء الثانى من تفسير ابن كثير .

قبله ، فإنهما فى الظاهر سواء ، فكيف عدتهما الآيات فريقين .

والفرق الذى ذكره يتلخص فى أن الفريق المتقدم هم الواقفون موقف حياد سلبى ، لايصدر منهم شىء فعلىّ يسىء إلى المؤمنين أو إلى الكافرين ، أما الفريق الأخير فلهم موقف إيجابى عند المسلمين ، وموقف إيجابىّ عند أعدائهم ، فهم ليسوا حياديين ، بل هم منافقون يأتون هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه .

لكن ابن كثير لم يوضح لنا كيف يؤخذ هذا الفرق من الآية ، ولعل ذلك يؤخذ من أن التعبير الذى عُبِّر به فى شأن الفريق المتقدم هو « جاءوكم حَصِرتْ صدورُهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » فهو وصف يفيد الحيرة والتحرج من فعل هذا أو ذاك ، فليس لهم إرادة يبطنونها وتوجههم إلى عمل مسىء يخرجون به عن حيادهم ، أما التعبير فى شأن الآخرين فقد جاء بقوله تعالى : « يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم » فلهم إرادة وهدف ، والمريد يفعل ويُقدِم ويحاول ، بخلاف المحرَج الذى يؤثر أن يقف بما أحرج به موقفَ الحياد ، وفى قوله تعالى عنهم بعد ذلك «كلما رُدُّوا إلى الفتنة أركسُوا فيها » مايدل على معنى الاستجابة والمطاوعة لمن يدعونهم إلى الفتنة ، ويردُّونهم إليها ، بلْ معنى الانهماك فيها ، وهذا الأخير ، قد يفهم من كلام ابن كثير .

والحكم الذى حكم الله تعالى به فى شأن هؤلاء هو عدم القبول منهم ، ورفض موالاتهم ، وأنهم إن لم يعتزلوا المسلمين ويلقوا إليهم السلم ، فيكونوا خاضعين لهم ، تنالهم أحكامهم ؛ كان عليهم أن يأخذوهم أخذ الأعداء ، ويقتلوهم حيث ثَقِفوهم أى وجدوهم كما يُقتَل الأعداء .

وحكمة ذلك واضحة ، فهم فى الحقيقة أعداء ، وإن حاولوا أن يظهروا بمظهر الأصدقاء .

وهنا سؤال : ماهى العـــلامة التى جُعِلتْ على هؤلاء ؟ وما داموا يتظاهرون أمامنـا بأنهم معنا فكيف نعاقبهم بهذه العقوبة دون أن نعرف بواطنهم ؟ .

والجواب : أن الآية تقول فى شأن هؤلاء : « ستجـدون آخرين يريدون أن يأمنوكم » الخ ، وليس المراد من قوله « ستجدون » أنهم سيلتقون بهم أو يصادفونهم ، ولكن المراد به وُجْدانُهم كذلك ، على معنى وجَدْتُه يفعل كذا ، فلا بد أن يكون هناك دليل قائم على أنهم يريدون ذلك ، حتى يصح أن يقال : وجدناهم يريدون ذلك ، أى علمناهم وتحقق لدينا أمرهم .

* * *

هؤلاء هم الأقسام الأربعة الذين قسمتهم الآيات لهذا الصنف من المنافقين ، وبينت للمسلمين حكم كل قسم منهم ، وقدمت لذلك حكما عاما يشملهم ، وتساؤلا إنكاريا عن سر تردد المؤمنين فيهم ، إذ تقول: « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا » .

* * *

بذلك استوفت « سورةُ النساء » الكلامَ عن جميع المنافقين الذين كان لهم اتصال بالمجتمع المدنى ـ وهم فى كل مجتمع آفته ومصادر القلق والإرجاف والاختلال فيه ـ وبينت للمسلمين صفاتهم، وتصرفاتهم، ووجوه كيدهم ، وخفايا سعيهم ، وأساليب فتنهم ، وأعطتهم فى كل ذلك سلاحاً يدرءون به عن أنفسهم ، وعن مجتمعهم ، وعن دينهم ، وعن نظام حياتهم .

ولا شك أن فى هذا كله صيانةً للمجتمع الإسلامى ، وتوطيداً لأركانه وتبصيراً لأهله ، وتثبيتاً لدعائم الإيمان والمثل الطيبةِ فيه ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

٦ ـ الآيات الموجهة

تمهيـــد :

القرآن الكريم كتاب هداية وتوجيه إلى الصراط المستقيم ، أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، والذى وضع السنن والنواميس لهذا العالم ، ما نعرفه منه وما لم نزل نجهله ، والذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد .

والقرآن فى عظمته ، كالكون فى عظمته ، كلاهما آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، فكل من فكر فى الكون ممن أوتوا العلم تجلت له عظمة هذا الكون ، وزاد علمه بقوانينه المطردة الثابتة الدالة على قدرة مبدعه ، وما زال الذين أوتوا العلم يصلون كل يوم إلى جديد منه يملأ القلوب إيمانا ، ويضرب فى وجوه الملحدين وأقفيتهم ، حتى لقد أصبح الإلحاد فى عصرنا الحاضر ضربا من هوس الجهلاء ما نظن أن عاقلا يرضاه لنفسه ، ولقد يأتى على الناس يوم يُقال فيه : كان الناس قديما يُلحدُون ويَشُكون فى وجود إله قادر حكيم عليم ـ فيكون هذا القول عجباً كما نخبر نحن الآن عن أعاجيب معتقدات أهل الجاهلية الأولى .

والقرآن الكريم ـ فى بابه أيضا ، وفى غرضه الذى يرمى إليه ـ له مثل هذه العظمة الكونية ، ومثل هذه الدلالة على قدرة الله ، وعلم الله ، ورحمة الله ، فكل من فكر فيه وتأمله ودرس نواحيه ؛ تجلت له عظمته ، وتكشفت له بعض أسراره ، ولأمر ما حفظه الله من الضياع والتحريف والتبديل وضمن له البقاء والخلود ، فهو صِنْوُ هذا الكون فى عظمته ، وهو نظيره فى دلالته ، وهو قرينه الذى يبقى معه أبد الدهر ، وإن حاول بعض المساكين من الكارهين والحاقدين أن يُزيلوه أو يحرّفوه أو يَصرفوا

عنه أو يشككوا فيه ، وإنما هو نور الله وبرهانه : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » . « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

وإنى لأعتقد أنه سيأتى على الناس يوم يقولون فيه : لقد كان بعض مَن قبلنا ، يشكّون فى القرآن، ويُعرِضون عن هدى القرآن ، ويتخذون هذا هذا القرآن مهجورا ؛ فيعجب السامعون من هذا القول ، كما نعجب نحن الآن ممن كانوا ينكرون « كروية الأرض » .

ولقد وصف الله تعالى كتابه فى جملة منه مؤلفة من سبع كلمات ، ولكنها جامعة كافية شافية ، تلك هى قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم [(١)] » .

ومن مظاهر تلك الهداية للتى هى أقوم ماتراه فيه من آيات لها قوة توجيهية دافعة ، تحسب كل آية منها فى بابها وغرضها الذى سيقتْ له - وكل جملة من آية - قانوناً لا يُحتاج معه إلى قانون ، ودستوراً ثابتاً لايمكن أن يدركه البطلان أو التعديل ، كأنه ناموس من نواميس هذا الكون .

ولما كنا بصدد البحث فى سورة النساء ، وكانت هذه السورة غنية بهذه الآيات التوجيهية القوية التى ترمى إلى طبع المجتمع بطابع معين من الأخلاق والسلوك وقواعد التعامل ؛ فإننا نجعل من آياتها موضوعات ومُثُلا لهذا اللون من التوجيه القرآنى ، فنحقق بذلك غرضين : غَرَض الدرس لناحية من السورة ، وغرض التمثيل لهذه الظاهرة القرآنية :

* * *

وقد أحصينا الآيات التوجيهية فى هذه السورة فوجدناها تزيد على الستين

---

(١) الآية ٩ من سورة الإسراء .

وذلك غير الآيات التى سنتحدث عنها فى غير هذا الصدد ، مما يراد به بعث الأمل والاطمئنان النفسى فى أفراد المجتمع .

وتشترك هذه الآيات كلها فى أن لها رسالة فى المجتمع واحدة ، وفى أن لها أسلوباً معيناً من شأنه أن يؤثر تأثيراً قوياً ، متجدداً ، منطبقاً على آلاف الحالات فى كل مجتمع .

فأما الرسالة الواحدة المشتركة بين هذه الآيات ؛ فهى وضع دوائر ومناهج كلية يرجع إليها الناس فى أهم النواحى التى يدور حولها نشاط المجتمع ، وإن شئت فقل : إن هذه الآيات بمثابة « منارات » تنبعث منها أضواء كاشفة متجددة متحركة تهدى كل من توجه إليها .

وأما أسلوبها الواحد المعّين ؛ فهو أنها أخرجت كلها مُخرَج الأمثال التى تعتمد اللفظ الوجيز ، والمعنى الوسيع ، والصلاحية للانطباق على كثير من الصور .

* * *

ونورد هنا بعض هذه الآيات مرتبةً بحسب ورودها فى سورة النساء ، مَشْفُوعاً كل منها بما يبين غايتها وأهميتها التوجيهية فى المجتمع :

(١) « واتقوا الله الذى تَساءَلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا — ١ » .

هذا هو ختام الآية الأولى من السورة ، وقد سُبق بتقرير مبدأ « المساواة » المترتب على أن الناس جميعاً ناشئون من أب واحد ، وأم واحدة ، ولهم رب واحد ، والناحية التوجيهية فى هذا الختام ذات شعبتين :

إحداهما : راجعة إلى العقل ، وهى الأمر بتقوى الله الذى خلق الناس ، والذى هو ربُّهم ، أىْ مربِّيهم بفضله ونعمه ، والذى له بحكم الفطرة

فى نفوس خلقه كلّ مهابة وإجلال ، حتى إنهم ليتساءلون به ، أى يسأل بعضهم بعضا باسمه جل شأنه ، فالعقل السليم ، والتفكير المستقيم ، يؤديان إلى هذه التقوى ، ويحملان الإنسان على التمسك بها .

والشعبة الأخرى : راجعة إلى العاطفة ، فإن الإنسان إذا عرف أن بينه وبين إخوانه فى الإنسانية رَحِماً ، وأن هذه الرحم تناديه أن يصلها ، ويعرف لها حقها ، وأنه هو أيضاً كثيراً مايسأل إخوانه بها ، ويناشدهم حقها ، فإن عاطفته تتحرك وتَشُبّ ، فتكون الرحمة ، ويكون الحنان ، ويكون التعاون .

فالله — جلت حكمته — لايكتفى بأن يقيم المجتمع على مبدأ المساواة ، فإن المساواة لاتستلزم المراقبة ، ولا تستلزم الرفق والحنان ، ولكنه سبحانه يوجه إلى أن يكون لهذه المساواة جناحان من مراقبة الله ، ومن عاطفة الرحم ، فالأول يحول بين المتساويَين وأن يظلم أحدُهما الآخر ، والثانى يحث كلا منهما على معاملة الآخر بما هو إحسان وفضل يناسبان الإخوة والرحم .

وبهذه الثلاثة : القلب — وهو المساواة — والجناحان — وهما التقوى والرحم - يشق المجتمع طريقه فى الحياة قويا عادلا متعاونا متراحما .

ثم إن التعبير بكلمة « الأرحام » مجموعة هكذا ، قد يساعد على أن نتوسع فى المعنى المراد منها ، فإن المجتمع ذو وشائج ، ليست فقط من الرحم المادية - رحم الأمهات والآباء - ولكنها أيضا من الصلات التى تفرضها ظروف الحياة ، وتدعو إليها طبيعة الإنسان باعتباره مخلوقا اجتماعيا مدنيا ، لايستطيع أن يعيش وحده ، ولا يمكنه أن يستغنى عن صنفه .

وهنا تتسع دائرة الأرحام ، فالزملاء فى علم بينهم رحمٌ من هذه

الزمالة يجب إن تُرعى ، ويُعْرَفَ لها حقُّها ، والزملاء فى صناعة كذلك ، وفى وطن كذلك ، وفى جوار كذلك ، وهكذا تتعدد الأرحام بتعدد الصلات والزمالات ، فتتكون منها روابط عاطفية من شأنها أن تيسر أمر المجتمع ، وأن تشيع فيه الرفق والإحسان والبر ، وأن تنفى عنه العسر والحرج والأَثَرة .

وكل هذا فى ظل رقابة الله التى توحى الآيةُ بما يجب على المؤمنين من استشعارها دائما « إن الله كان عليكم رقيبا » .

* * *

(٢) « ومَن كان غنيا فليَستعْفِفْ ، ومن كان فقيراً فليأكلْ بالمعروف — ٦ » .

جاءت هاتان الجملتان فى سياق إرشاد الأوصياء إلى مايسلكونه فى شأن اليتامى .

والمعنى التوجيهى هنا يرجع إلى الإيحاء باتباع هذا المبدأ فى كل حالة اجتماعية حسبية يُسنَد فيها عملٌ إصلاحى لمن يُختار له ، كعضوية الجمعيات الخيرية ، أو جمعيات التربية والتعليم ، أو المجالس النيابية ، أو مجالس المصالحات ، أو نحو ذلك .

فالقاعدة التى وجهتنا إليها الآية هى . أن يؤدِّى القادرون الأغنياء ما يُختارون له من أمثال هذه الأعمال حِسبةً لله تعالى دون مقابل ، أما من كان فقيراً محتاجا فليأخذ الأجر على ذلك ، أو المكافأة بالمعروف ، والمعروفُ فى مثل هذا أن يكون هناك جانب من التبرع بالجهد ، وجانب من المكافأة عليه ، ولهذا لاتقدَّر المكافأة فى مثل ذلك تقديراً سخيا ، وإنما تقدَّر فى شىء من التحفظ والرعاية للصالح العام .

* * *

(٣) « تلك حدودُ الله — ١٣ » .

جملة على إيجازها لها قوة إيحائية توجيهية ، فإذا استقر معناها فى مجتمع ما ، وُقى كثيراً من السيئات والمنكرات والجرائم والصعاب ، لأنه ليس هناك مايثير فى المجتمعات الفتن ، أو يصيبها بالقلق ، أو يفسد عليها جوّ الهدوء والأمن والقرار ؛ إلا تعدّى حدود الله ، وحدودُ الله هى الخطوط التى رسمها للناس فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ولم تأت الشريعة إلا لترسم هذه الخطوط وتأمر الناس بالوقوف عند ها ، وتنهاهم أن يتخطوها أو يقربوها .

فلو أن هذا المعنى التوجيهى كان شعاراً لكل فرد فى مجتمعه ، وفيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين أعضاء أسرته ، وفيما بينه وبين ربه ؛ لكان عليه أن يسائل نفسه : هل أفرط أو فرط ؟ هل خرج عما ينبغى لمثله ؟ هل حكم حدوده هو ومقاييسه هو ، أو حدود الله ومقاييس شريعته .

ولا ينبغى أن يفهم أن حدود الله هى خطوط تحكمية أمر الناس أن يلتزموها ويقفوا عندها ، دون أن يكون لها داع من صلاحهم وخيرهم ، لاينبغى أن يفهم ذلك فإن الإسلام لاينافر أى إصــلاح ، ولا يدعو إلا إلى ماهو خير وبر ، ولا ينهى إلا عما هو فساد وشرّ ، وحيثما تكون المصلحة فثم أمر الله ، وحيثما تكون المفسدة فثَمَّ نَهْى الله ، غير أن الله تعالى لم يترك للناس تقدير المصالح والمفاسد على حسب الأهواء ، واختلاف النزعات والآراء ، ولكنه بيّن وهدى إلى جنس ما يعتبر ، وجنس مالا يعتبر ، بما يحفظ على الشريعة طابَعَها وقواعدَها ومُثُلها العليا ، ويجعلها ثابتة أمام الأهواء ، متأبية عن مجاراة الذين يريدون أن يطوّعوها لمقاييسهم ومُثُلهم وما تسيغه أذواقهم ونظراتهم ، فإن هذه الشريعة قائدة وليست مقودة ، وإن الله قد شرعها عن علم وحكمة ، ولم

يضعها موضع التجارب كالقوانين البشرية ، والتقاليد المتقلبة .

وإذن فالمبدأ الذى يجب أن يسرى فى المجتمع ، وأن يعتنقه جميع أفراده وجماعاته وتشكيلاته هو : « تلك حدود الله » .

٭ ٭ ٭

(٤) « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيرا - ١٩ » .

مبدأ توجيهى فى صميم الحياة الزوجية له شقان :

أحدهما : أمر حاسم للرجال بأن يحسنوا معاشرة النساء ، ومقياس هذا الإحسان هو المعروف ، والمعروف لفظ جامع لكل صورة من صور السلوك القويم ، والمعاملة العادلة : الرفق بالزوجة معروف ، وتمكينها من العيش المناسب لمستواها الاجتماعى معروف ، وإشعارها بالاحترام والحب معروف ، ولقاء أهلها بالبشر والإكرام معروف ، ومشاورتها فى شئون بيتها وأطفالها معروف ، وهكذا . . . أما إلقاء حبل الزوجة على غاربها فليس بمعروف ، وأما تمكينها من الإسراف والبذخ فيما لا ينفع ، فليس بمعروف ، وأما الإذن لها بأن تقابل فى بيتها أصدقاء زوجها فى غيبته فليس بمعروف ، وأما تركها تحوِّلُ مال زوجها وما فى بيته إلى أهلها وبيوت أقاربها فليس بمعروف ، وأما الإغضاء عنها حين تخرج من بيتها فى صحبة قريب من أبناء خالها ، أو من أبناء عمها ، لتتنزه أو لتشهد تمثيلية ، أو لتزور أسرة ، فذلك كله ليس من المعروف .

والآخر : أن البيوت والزوجيات لا يلزم أن تبنَى دائما على الحب ، فقليل من الأزواج والزوجات من يتبادلان من الحب كأسه المترعة ، فلو توقَّف بقاء الزوجية على عامل الحب فقط لخرب كثير من البيوت . ولانفصمت

آلاف الزوجيات ، ولكنّ هناك ما يعوّض نقص هذا الجانب إذا نقص ، وضياعه إذا ضاع. فالزوجية شركة فيها مصاحبة،وفيها ملاطفة، وفيها أولاد ، وفيها تعاون على تذليل صعاب الحياة ، وفيها مع هذا كله أمل فى المستقبل ، فلعل شيئا من ذلك يُوَطّد ويقوّى ، ويحي العاطفة ، ويفتح القلوب ، ويُؤْدِم بين الزوجين ، وتلك هى المعانى التى يوحى بها قوله تعالى : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .

* * *

(٥) « ولا تَتَمنَّوْا مافضل اللهُ به بعضَكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ـ ٣٢ » .

يمكن أن تحمل هذه الآية على النهى عن التلهف الذى يقع فيه بعض الناس إذا رأوا إنسانا يَفضُلهم بشىء من نعمة الله،فهم يتحسرون ويتوجعون ويقولون صراحة أو فى أنفسهم ، ألسنا نحن أولى بهذا الفضل . ولكنْ هذا حظنا ، فمثل هذا التمنى والتلهف والتحسر من شأنه أن يفسد قلوب أصحابه، وأن ينشر الحسد والضغينة بين أفراد المجتمع ، وربما جرّ أصحابه إلى الاعتداء والظلم وكتمان الحق وإيذاء الناس شفاء للنفس ، وكلها سيئات يريد الله أن يقى المجتمع شرّها .

وذلك ـ طبعا ـ غير الغبطة ، فلا يجوز لك أن تتمنى مال غيرك حسدا ، ولكن يجوز لك أن تقول : اللهم ارزقنى مثله . والدليل على ذلك قوله تعالى فى آخر الآية « واسألوا الله من فضله » .

وهذا معنى حسن فى ذاته ، ولكن قوله تعالى بعد هذا النهى عن التمنى : « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » يجعلنا نرجح أن الكلام إنما هو فى شأنٍ يرجع إلى الرجال والنساء على وجه المقابلة ، فهو

توجيه للرجال والنساء أساسه لفت الأنظار إلى طبيعة كل منهما ، وما فضّل الله به بعضَهم على بعض ، فالرجال مخلوقون لغرض ، ولهم وظيفتهم الطبيعية في الحياة ، وقد هُيّئوا على وضع خِلْقي وخُلُقي يلائمها ويساعد على أدائها ، والنساء كذلك خُلقنَ على وضع جسمي ونفسي يلائم ما قصد منهن ، وكل في ناحيته مفضل بمزايا اكتسبها بحكم الطبيعة ، أي بحكم السنن الإلهية العادلة الحكيمة ، فلا ينبغي أن يتطلب الرجال ماهو من خصائص النساء وما فضلن به ومُيّزن ، ولا ينبغي أن يتطلب النساء ماهو من خصائص الرجال وما فُضّلوا به ومُيزوا ، فإن ذلك تمنّ ، والتمني هو طلب ما لا يكون ، وهو خروج على الطبيعة ، ومحاولة للخلط في نتائج لا تبررها المقدمات الواقعية .

فإذا ساد هذا التوجيه في المجتمع ، كان له إيحاء في كثير من جوانبه ، وكان جديرا بأن يحل كثيرا من المشكلات المعقدة ، وأن يصلح كثيرا من الأوضاع الفاسدة ، وأن يحفظ على المجتمع طبيعيّته وفطريته .

* * *

(٦) « الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضَهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم - ٣٤ » .

وهذا توجيه آخر له صلة بالتوجيه السابق ، وهو نتيجة من نتائجه .

إن الأسرة مجتمع صغير يتألف منه ومن أمثاله المجتمع الكبير ، ولا بد لكل مجتمع من رياسة وسلطة إليها يَرْجع ، وبها يحْسِم ، وإلا تعرّض المجتمع للفوضى وتَصادُم الآراء والرغبات ، فالأسرة بحاجة إلى أن تسند هذه السلطة إلى أحد أعضائها ، والرجل أولى الزوجين بأن يعهد إليه بذلك :

أولا : لأن هذا حكم الطبيعة ، إذ هو الأقوى على تحمل الأعباء ، وتقبل التبعات ، والأقوى هو الأجدر بالتقديم .

وثانياً : لأنه هو المكلف بالإنفاق ، وباذلُ المال من حقه أن يكون صاحب القول الفصل فيما يستند إلى ماله وبذله .

وفى التعبير بقوله « بما فضل الله بعضهم على بعض » هنا ، وبقوله « ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض » فى الآية السابقة ، إيحاءٌ بأن الزوج والزوجة يكوِّنان شيئاً واحداً هو كلٌّ ، الزوجُ بعضه ، والزوجة بعضه ، وتفضيل بعض أعضاء الجسم الواحد على بعض ليس معناه الأفضلية بمعنى أنه أعز وأغلى ، ولكن معناه فضل الاختصاص بشيء ، فجسم الإنسان مثلا كل له أجزاء . العين جزء ، واليد جزء ، والأنف جزء ، والرأس جزء ، وهكذا ، ولكل جزء مزيته ووظيفته الخاصة التى لايغنى عنه فيها جزء آخر ، فالفضل هنا بمعنى المزية ، والتفضيل بمعنى التميز والتخصيص ، فالأنف من حيث وظيفته ومزيته له قيمته وفضله وحاجة الإنسان إليه ، والعين من حيث وظيفتها ومزيتها لها مثل ذلك ، وفضل هذا لايعارض فضل ذاك ، ولكن إذا أراد الإنسان أن ينظر فإنه لايوجه أنفه للنظر ، وإنما يوجه عينه ، وإذا أراد أن يشم ، فإنه لايوجه إلى الشمّ أذنه ، ولكن يوجه أنفه ، وإذا أراد أن يسعى سعَى برجليه ، لابيديه ، . . وهكذا .

فإذا عرف المجتمع للرجل والمرأة وضعهما الطبيعىّ وأذعن لهذا الوضع ؛ استراح : فاستراح الرجال من النساء ، والنساء من الرجال ، على سنة الإذعان لتوزيع الاختصاص .

* * *

(٧) « إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما — ٣٥ » .

توجيه عقيدى عملى ، فالله تعالى يربط توفيقه بين الزوجين بإرادتهما الإصلاح ، فيقول لهما : اتجها إلى إصلاح ذات بينكما أولا ، فاذا اتجهتما

إلى ذلك منحتكما توفيق رحمتي وعنايتي ، وتلك سنة من سنن الله في الخلق : لابد من الاتجاه والإرادة من العباد ، كسبب كسبيّ عملي ، فإذا فعلوا ذلك كان التوفيق الإلهي رائدهم وحليفهم .

وفي هذا توجيه للأزواج والزوجات إلى محـاولة الإصلاح ، وإلى إرادته ، وإلى التماس توفيق الله إليه ، وفيه إيحاء عام للمجتمع بأن لكل شيء أسبابه ومقدماته الطبيعية ، وليس الأمر بمجرد الدعاء والتماس التوفيق دون سعي للوصول إليه ، والحصول عليه .

* * *

(٨) « إن الله لايحب من كان مختالا فخورا — ٣٦ » .

الاختيال والفخر والتشدق بالأحساب والأنساب وبما فعل الإنسان من أفعال، وبما قال من أقوال ، باب يدخل منه على المجتمع كثير من الفساد :

فالمختال يغتر ، ويجرُّه غرورُه إلى اعتقاد أنه فرد ممتاز . ويجرُّه هذا الاعتقاد إلى الترفع عن الناس ، ويجره هذا الترفع إلى القسوة والجمود والضنّ والعزلة ، فيصبح في المجتمع كارها مكروها ، منقطعاً مُقاطَعا .

والاختيال هو مَنْشأ مايسمونه الآن « بالأرستقراطية » وهي ضد « الشعبية » التي تقوم على الاندماج في الناس ، والتواضع لهم ، ومشاركتهم عواطفهم في سرائهم وضرّائهم ، فالقرآن يوجه المجتمع إلى هذا الخلق ، ويكرِّه إليه خُلقَ الترفع والاختيال ، ويعبر عن ذلك بنفيه حبَّه عمن كان مختالا فخورا ، والله لم يَنْفِ حبَّه إلا عن المقترفين كبائرَ الإثم ، ونتيجة نفي حبه عنهم هو مقتهم ، وعدم توفيقهم فيما يعملون ، ومضاعفة العذاب عليهم يوم يحاسبون .

ومن الأمثلة التي توضح هذا المعنى قوله تعالى: « إن الله لايحب المفسدين»

فالفساد إجرام فوق العادة ، والمفسدون أعـــداء المجتمع ، العاملون على تقويض بنيانه ، وزعزعة أمنه واطمئنانه ، لذلك يمقت الله الفساد والمفسدين ويقول: « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » ، « زِدْناهم عذاباً فوقَ العذاب بما كانوا يفسدون » ، « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

ومثل هذا يقال فى بقية المواضعَ التى نفى الله فيها حبَّه عن المقترفين كبائر الذنوب : « إن الله لا يحب الـكافرين » و « لا يحب الفرحين » و « لا يحب من كان خوّاناً أثيما » . . الخ .

والفخور ـ وهو الذى تعود أن يملأ ماضغيه فخراً وتحدثاً بمزاياه أو مزايا آبائه وأجداده ـ إنما هو إنسان يحس بضعفٍ ونقص فيحاول أن يخفيهما ، ونراه عادة ثقيلا على الناس ، يتحامَوْنه ولا يحبُّـــون الجلوس إليه ، ويَضِنُّون بأوقاتهم أن يضيِّعوها معه هباء ، فهو فى الحقيقة يُسقط نفسه ، ويعطى الناس دليلا على ضعف همته ، وعلى ما يشعر به من نقص ، وهذا ينتهى به وبالمجتمع إلى أن يتبادلا الـكره والضغينة وسوء الظن .

وبهذا كانت هذه الجملة التى ختمت بها إحدى آيات سورة النساء ، مُنبهة إلى خلق ذميم يجب أن يُنبَذ ، وإلى خلق حميد يجب أن يُؤخَذ ، وفى هذا وذاك صلاح للمجتمع .

* * *

(٩) « ومن يـكن الشيطان له قريناً فساء قرينا ـ ٣٨ »

هناك أفراد فى كل مجتمع يحالفون الشيطان ، فتراهم كأنهم يحتضنونه ويحتضنهم ، أفـكارُهم دائماً سوداءُ أو حمراء ، وأعمالهم دائماً سوداءُ أو حمراء ، ونعنى بالسوداء تلك الأفكار أو الأعمال الإفسادية أو الإيذائية : أعمال الشر والتحطيم والتخريب ، وأفـكار الحقد والحسد والضغينة على

الناجحين والمثمرين والعاملين ، كما نعنى بالحمراء تلك الأفكار أو الأعمال التى ترجع إلى الشهوات الجامحة الفاسقة البهيمية التى تستبيح كل حمى ، وتجترىء على كل منكر ، والتى تعربد ، وتعيث ، وتفسد ، ولا تعرف الفضيلة ، ولا تؤمن بأن فى الدنيا رذيلة .

هؤلاء هم حلفاء الشيطان ، وهؤلاء هم أشد مايُبتلى به مجتمع من المجتمعات ،

وقد عبَّرتُ عنهم بحلفاء الشيطان ، على شىء من التسامح فى تفسير اللفظ القرآنى ، ولفظ القرآن أعمقُ معنى وأدقُّ تصويراً لأنه جعلهم « قرناء الشيطان » والقرين وَزِينُ قرينه ، فهم لا يقلون عن الشيطان منزلة فى الإفساد والشر ، وقد جاء مثل ذلك فى قوله تعالى « إن المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين » .

ولاشك أن هذه الجملة الموجزة فيها توجيهٌ إلى الخير ، بالتحذير من مصادرالشر ، وأن هذا توجيه له أثره العظيم فى صلاح المجتمع ، واستقامته على سبل الرشاد .

ولهذه الجملة أيضا إيحاء جانبى باختيار القرين ، فإن المرء على دين خليله ، وكل قرين بالمقارن يَقتدى .

وقد جاء فى القرآن الكريم تحذير كثير من قرناء السوء : ومن ذلك قوله تعالى ، ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليَصُدُّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعدَ المشرقين ، فبئس القرين » (١) وقوله تعالى « وقيَّضْنا لهم قرناء فزينُّوا لهم مابين أيديهم وماخلفهم وحَق عليهم القول فى أمم

---

(١) الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ من سورة الصافات

قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين »[١] وقوله تعالى في قرين كاد يُضل قرينه ، ولكن الله نجاه منه بنعمته ، وأدخله الجنة : « فأقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم إني كان لي قرين ، يقول أئنك لمن المصدّقين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطّلعون ، فاطّلع فرآه في سواء الجحيم ، قال تالله إنْ كدتَ لتردين ولولا نعمةُ ربي لكنتُ من المحضَرين »[٢]

* * *

(١٠) « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل — ٥٨ »

والنواحي التوجيهية التي يفيدها هذا الأمر الجامع المحيط ، أوضح من أن ننبه إليها ، وقد تقدّم في هذا الكتاب بعض الحديث عن « الأمانات » وعن « العدل » في فصل سابق ، فمن شاء فليرجع إليه[٣]

* *

(١١) « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم — ٥٩ »

(١٢) « فلا وربك لايؤمنون حتى يُحكّموكَ فيما شَجَر بينهم ، ثم لايجدُوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيتَ ويُسلموا تسليما — ٦٥ »

(١٣) « مَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً — ٨٠ »

---

(١) الآية ٢٥ من سورة « فصلت »

(٢) الآيات من ٥٥ الى ٥٧ من سورة الصافات

(٣) انظر ص ٨٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

(١٤) أفلا يتدبرون القرآنَ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً — ٨٢ »

وفى هذه الآيات الأربع توجيهات إلى الحكم الإسلامى، ومصدريه الرئيسيين ، وهما الكتاب والسنة ، ومصدره المتجدد ، وهو الاجتهاد الذى يقوم به « أولو الأمر » أى أهل الشأن والذكر .

وموضوع الكلام عن ذلك مستوفىً هو قسم ماجاءت به السورة من الأحكام .

* * *

(١٥) « مَنْ يشفعْ شفاعةً حسنةً يكنْ له نصيبٌ منها ، ومنْ يشفعْ شفاعةً سيئة يكنْ له كِفْلٌ منها - ٨٥ » .

الشفاعة مأخوذة من الشفع ضد الوتر ، ومعناها أن يشفع إنسان غيره أى ينضم إليه ويؤازره .

وهى أمرٌ جرتْ به عادة المجتمعات ، فإن الناس تتفاوت فى الجاه وفى القدرة على السعى ، ومنهم من يضعف عن الحصول على الحق فيستعين بمن يشفعه ويقوّيه ، ويسلك السبيل التى تؤدى إليه .

فليس من الطبيعى أن يُطلبَ إلى الناس أن يكفّوا عن هذا اللون من ألوان التعاون والتآزر ، ولذلك لم يمنعه القرآن ، بل حث عليه على شرط أن تكون الشفاعة حسنة ، ونهى عن الشفاعات السيئة ، وقد جاءت السنة بمثل ذلك أيضاً :

فقد رُوى أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن هذا الخير خزائن ، ولتلك الخزائن مفاتيح ، فطوبَى لعبدٍ جعله الله مِفتاحا للخير ،

مغلاقا للشر ، وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر ، مغلاقا للخير » .

وعن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن لله عباداً اختصهم بحوائج الناس ، يفزع الناس إليهم فى حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله » .

وعن على كرم الله وجهه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا على . إن الله تعالى خلق المعروف ، وخلق له أهلا ، فحبّبه إليهم ، وحبّب إليهم فعاله ، ووجه إليهم طلاّبه ، كما وجّه الماء فى الأرض الجدبة لتحيا به ، ويحيا به أهلها ، إن أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة » .

ولكن الإسلام يمنع التآزر على الباطل ، والتعاون على تلبيس الأمور ، وعلى أن يشتبه الأمر فلا يُعلَم حقّه من باطله ، ولذلك يكره القرآن الشفاعة السيئة ، وينهى عنها .

وقد جاءت الآية فى كلا الجانبين بقاعدة عامة ، فقررت أن من آزر بالشفاعة الحسنة كان له نصيب من هذه المؤازرة ، أى ثواب عليها وفضل فيها ، ومن آزر بالشفاعة السيئة كان له كِفل أى حظ ونصيب منها مكفول لا بد منه .

والشفاعات الحسنة كثيرة ، وكل إنسان يستطيع أن يرسم صورة من صورها : بالمال يفعل ذلك من آتاه الله المال ، فيشفع جهدَ المجاهدين والعاملين على تنوير العقول أو إصلاح اليتامى أو إيواء اللاجئين ، وبالرأى يفعل ذلك من آتاه الله الرأى ، فيشير على أهل الإصلاح ، ويخلص النصيحة لهم ، ويؤازرهم بذلك ويشفعهم أى يضم نفسه إليهم ، وسعيه إلى سعيهم ، ورأيه إلى رأيهم .

وبالقلم يفعل ذلك من علمه الله بالقلم ، به يبين الحقائق ، ويدفع فى صدور

المفسدين والمبطلين . ويدعو إلى الخير ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيكون بذلك شفيع الحق والإصلاح ومؤيد دعوتهما .

وبالجاه يفعل ذلك من آتاه الله الجاه ، فيوصل إلى أصحاب الحقوق حقوقهم بسعيه الخيّر ، وبشفاعته الحسنة .

وهكذا توجّه الآية أفرادَ المجتمع إلى فُرَص الخير، وصُوَر التعاون، لكى ينتهزوها مخلصين مصلحين محسنين ، وتصرفهم عن وجوه الشر ، فتحذرهم منها ، وتخوّفهم عواقبَها ، وتؤكد أن لهم كفلا محققاً من شرها وسوئها .

ونعم التوجيه ، ونعم التحذير .

* * *

(١٦) « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها - ٨٦ » .

وهذا أدبٌ عال يؤدب الله به عباده ، ومن شأنه أن ينشر بين الناس المحبة والسلام، فإن الذى يبدأ صاحبه بالتحية قد صار متفضلا على صاحبه، متقدّما تخطب وُدّه ، فإذا لم يقابل هذا الفضلَ بالشكر فإنه يكون قد جافى واجبَ الأدب ، وحق الأخوة ، أما إذا أدّى لصاحبه مثل تحيته فقد أدى إليه حقه عَدلا ، ولكن الذى يحيّيه بأحسن من تحيته يُشعره بأنه يَقْدُره ويعرف له جميله ، وما كان له من فضل البدء ، وأنه لذلك لا يكتفى برد تحيته ولكن يحيّيه بأحسن منها .

والقرآن يبدأ بأحسن الصورتين ، وهى التحية بما هو أحسن ، ليشعرنا بأن ذلك هو الأولى .

ولهذا الأدب إيحاء وتوجيه ربما كان اللفظ فى الآية ناطقا بهما فإن التحية ليست هى خصوصَ القول ولفظ السلام وما إليه من العبارات

التى جرت عادة الناس أن يتبادلوها فحسب ، ولكنها أوسع من ذلك ، فهى تشمل أىّ معروف يقدمه إنسان لآخر ، فإذا زارنى أخ مجاملا إياى ، كان علىّ أن أعرف له تلك الزيارة ، وأن أعدها تحية منه لى ، يجب علىّ أن أحيّيه بأحسن منها أو أردّها على الأقل ، وإذا اهْدَى إلىّ صديق هديةً تكريم ومودة عرفتُ له ذلك ، وإذا تحدث عنى بالخير عرفت له ذلك . . . وهكذا نجد هنا أساسا لأدب التعامل فى المجتمع ، ومظهرا من مظاهر الشكر والعرفان ، والعدل والإحسان .

* * *

(١٧) « ودّوا لو تكفرون كما كفروا ، فتكونون سواء - ٨٩ » تلك طبيعة الكافرين ، وليس ذلك فى الكافرين بالله فقط ، وإنما ذلك شأن كل كافر بأى شىء ، فإنه يوَد لو كان الناس كلهم مثله . حتى لا يكون لهم عليه فضل الإيمان بذلك الشىء ، وفى هــذا توجيه لأهل الإيمان يقضى بأن يكونوا دائما على حذر ممن يكفرون بما آمنوا هم به ، وألا ينتظروا منهم مسالمة لهم وتخلية بينهم وبين إيمانهم ، حتى لو تظاهروا بأنهم لا يهمهم ذلك ، أو بأنهم لا يعرفون التعصب ، ولا يصادرون حرّية العقيدة أو الرأى ، فإن طبيعتهم تأبى عليهم ذلك .

وهذا أيضا توجيه لأهل الإصلاح ، فإن بعضهم قد يغتر بما يبديه الكافرون بإصلاحه من مظاهر المودة ، ومن معسول القول ، وكاذب التأييد ، فيتقبلهم ويتقبل منهم ، ويُمَكّن لهم ، وإنما مَكّن فى الواقع لأعدائه على نفسه ، وقد علمتنا حوادث التاريخ أن الكافر بفكرة ما ، لا يمكن أن ينبعث فى تأييدها ويخلص لها ، فإن الانبعاث فرع الإيمان ، والإخلاص للشىء فرع الاقتناع به وإدراك أنه حق وخير ، فإذا التمست من غير المقتنع

أن يخلص لك فأنت كالمتطلب فى الماء جذوة نار ، بل يجب أن تتوقع منه دائما أن يحاول إفساد أمرك ، وإحباط سعيك .

ثم لا ينبغى أن يُفهم من تعبير الآية أن الأمر قاصر على إفادة أن الكافر يَوَدّ للمؤمن الكفرَ مثله ، ويقتصرُ فى هذا على المعنى النفسى الذى يدور بخلده ، فهى مودة قلبيةٌ فقط - لا ينبغى أن يُفهم ذلك ، فإن مودة الشىء وحبّه يبعثان على محاولة تحقيقه وإبرازه فى الوجود فعلا ، فكذلك نرى أن أهل الباطل الذين يحبّون زلزلة أهل الحق ، لا يكتفون بإبطان ذلك فى نفوسهم ، ولكن يعملون ، ويجدّون ، ويَفتَنّون فى خلق أسباب الفتنة والإرجاف واجتلاب السوء والشر ، وما جاء بعد هذه الجملة فى الآية يدل على أن المراد اجتنابهم والحذر منهم ومعاملتهم معاملةَ العدو المبين ، إذ تقول « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » أى حتى يقيموا الدليل بهجرتهم إليكم ودخولهم فيما دخلتم فيه على أنهم قد آمنوا بمثل ما آمنتم به حقاً .

والواقع أن الحق والباطل عَدُوّان ، والخير والشرّ عدوّان ، والصلاح والفساد عدوّان ، والإيمان والكفرَ عدوّان ، والعداوةُ فى ذلك كله عداوةٌ أصلية وبالذات ، وليست لأمر عارض يمكن أن يزول أو يُغَض عنه ، فكيف يكون بين النقيضين معاونة أو مهادنة ؟

والمصلحون ، وأصحاب المبادئ والمثل ، أولى الناس بأن يعرفوا ذلك ، وبأن لا يُعرّضوا أفكارهم القويمة ودعواتهم الإصلاحية ، إلى أن تصاب بالشلل أو الخلل بالتماس نصرتها ممن لا يستطيعون نصرها ، ولا يصلحون جنداً — فضلا عن أن يكونوا قادة — لها .

* * *

(١٨) «ومن يُهاجرْ فى سبيل الله يجدْ فى الأرض مُرَاغماً كثيراً وَسَـــعة — ١٠٠».

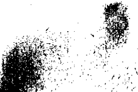
المرَاغَـم : السّعه والمضطرَب ، أو المذهب والمَهرَب فى الأرض .

والمراغمة : الهِجرانُ والتباعد يقال رَاغَـم أهلَـه إذا هجرهم ونبذهم .

ومن شأن الإنسان أن يَـكره الخروج عما ألف ، وأن يستكين ويستنيم إذا وجد أنه يعيش عيشاً رتيباً ، ولولم يـكن خصيباً ، فهولذلك يكره الهجرة ولا يكاد يلجأ إليها إلا مضطراً ، فالقرآن الـكريم يريد أن يخلع الناس من هذه الاستكانة ، وأن يبعث فيهم خلقَ النشاط والتحرك والتماس فضل الله بالسعى والتنقل ، ولا سيما الذين يكونون فى ضيق ، فيجب عليهم أن يتطلبوا الخروج من ضيقهم إلى السعة ، والذين يـكونون فى ضعف وذلة فيجب عليهم أن يلتمسوا مكاناً يكون بالنسبة لهم مُرَاغَـماً ، أى موضعاً يراغمون به الذين استضعفوهم واستذلوهم ، ويبتعدون فيه عنهم .

والشعوب تتفاوت فى هذا الجانب ، فترى شعوباً يميل أفرادها إلى الهجرة والسعى فى الأرض ، والذهاب كل مذهب ، ولذلك يُـفيدون سعةً فى الرزق وفى العلم ، وفى آفاق التفكير ، وفى الإشادة بأوطانهم : والدّعاوَة لأفكارهم ، وتجد شعوباً أخرى لايحب أفرادها الهجرة ، بل يـكرهونها ويخافونها ولايجرءون عليها ، فهؤلاء قد أخلدوا إلى ماهم فيه ، فلا يحبون أن يحيدوا عنه ، وربما كره الواحدُ منهم أن ينتقل ولو فى دائرة إقليمه إلى بلد آخر يبعد عن بلده عدة أميال ، ومن هنا نجد الموظف إذا نقل من بلد إلى بلد قريب منه أو بعيد كره ذلك واشتكى منه ، وعدّ ذلك إيذاء له ، وملأ الدنيا صياحا وجَلبةً حتى يعود .

والهجرة مادمت تقصد بها الخير والصلاح لنفسك أو لوطنك



أو لدينك فهى فى سبيل الله ، ولابد أن يعينك الله عليها ، ويفرّج ضائقتك فيها .

وهناك لون من الهجرة ـ هو الهجرة المؤقتة ، أو هو بتعبير آخر ، الرحلة والتنقل من بلدك إلى بلاد أخرى لغرض شريف ـ ولهذا اللون قيمته العملية فى شأن الأفراد والأمم ، وقد وجدنا كثيرا من الرجال والنساء فى شعوب أوربا وأمريكا يتركون بلادهم، حيث الخير الكثير، والمال الوفير، والحضارة والنعيم ، إلى بلاد أفريقيا وآسيا وغيرهما من القارات التى يغلب عليها الخشونة والتقشف ، وما حملهم على ذلك إلا رغبتهم فى أن يؤدوا لبلادهم أو لأفكارهم ، أو لمطامعهم ، خدمات كبرى ، ونراهم يعيشون بين أهل الصحراء ، أو فى القرى الريفية ، ويقلّدون أهلها فى مطعمهم ومشربهم وملبسهم ولغتهم وتقاليدهم ، ليصبحوا مِثلهم ويقدروا على التأثير فيهم ، وكم قدّم أمثال هؤلاء لشعوبهم من فوائد ، وكم حوّلوا مجرى الحوادث لمصلحتهم ، وكم أثروا فى البلاد التى عاشوا فيها لمصلحة قومهم .

ولذلك يجب على المسلمين أن يتحولوا عن مواقفهم السلبية ولو بالنسبة إلى إخوانهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأن يكثروا من الرحلة والهجرة إلى بلاد المسلمين ، فإنهم بذلك يحيُون روابط الأخوة الإسلامية ، ويتعارفون ويُلقِى بعضُهم إلى بعض بما عنده . ويَرسُمُون لبلادهم وشعوبهم خطط التعاون والمحبة .

إن الشعب المصرى مثلا يستطيع أن يبعث بكثير من أبنائه إلى باكستان وإيران ، وأفغانستان ، والملايو ، وإندونيسيا ، والصومال ، وغرب أفريقيا وغيرها ، يبعثهم الى هذا البلاد ليبيّنوا لهم موقف مصر وما الذى تقوم به لخدمة العروبة والإسلام ولحرية الشعوب ، وما الذى تلاقيه من الاستعمار

فى سبيل تعويقها والحيلولة بين الشعوب الإسلامية وبينها ، ونحو ذلك ، ولكن على شريطة أن يذهب هؤلاء إلى تلك البلاد ليعيشوا بينهم مواطنين لهم ، أو ليمكثوا فيهم سنوات طويلة ، وأن يُختاروا من الأقوياء فى علمهم ، وعقولهم ، وإخلاصهم ، وصبرهم ، ومثابرتهم ، ليستطيعوا أن يعطوا عن مصر صورة كريمة .

ويقال مثل هذا فى شأن الشعوب الإسلامية الأخرى بينها وبين مصر ، وبينها وبين غير مصر من البلاد ، وبذلك تقوى الروابط العلمية ، والدينية ، والتجارية ، والثقافية ، والسياسية ، ويَشْعُرُ الذين لا يحبون للشرق أن ينهض ويقوى بأننا جادّون ، وبأننا نسير فى الاتجاه السليم ، والخط المستقيم للوصول إلى غاياتنا الشريفة ، فيكفّون عن حربنا ، ويلتمسون صداقتنا ، ويُلقون إلينا بالسَّلَم ،

* * *

(١٩) « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتاً - ١٠٣ » .

جاءت هذه الجملة ختاما مشعرا بالتعليل لما تقدم من تشريع صلاة الخوف ، ولا شك أن الفريضة التى لا تسقط حتى فى ميدان القتال ، وعند ترقب المعمعة ، فريضةٌ مؤكدة ذاتُ منزلة خاصة فى الدين ، وهذا شأنُ الصلاة ، فإنها هى روح الإيمان وشعاره ، وأساسُ الدين وعماده ، « مَنْ أقامها فقد أقام الدين ، ومَنْ هدَمها فقد هدم الدين » و « بين العبد وبين الكفر تركُ الصلاة » .

والآية الكريمة موجّهة إلى هذه المنزلة ، وقد صيغت بأسلوب مشتمل على عدة توكيدات :

* فجاءت كما قلنا تذييلا وتعليلا لإيجاب أدائها حتى فى وقت

الخوف ، وذلك مُؤْذِن بمكانتها من الدين .

* وجاء الكلام عنها مؤكداً بلفظ « « إن » .

* وعُبِّر فيه بقوله تعالى « كانت » ومعناها ثبت لها ذلك واستقرّ شأناً لها ، ولفظ « كان » بهذا المعنى هو الذى جرى التعبير القرآنى فى مئات المواضع على أن يقرر به صفاتِ الله من العلم المحيط ، والقدرة التامة ، والخبرة بما يفعله خلقه ، إلى غير ذلك ، من مثل : « وكان الله عليما حكيما » « إن الله كان غفوراً رحيما » « وكان الله بما يعملون محيطاً » « وكان الله على ذلك قديراً » .

وفى سورة النساء نفسها من هذا الأسلوب فى جانب الله جل جلاله ، آياتٌ كثيره ذ يلت مثل هذا التذييل ، وقد تقدم الكلامَ فى هذا الكتاب عن سرّ من أسرار ذلك (١) .

والغرض أن الصلاة قيل فى تأكيدها أيضا « كانت » لإفادة أن ثبوتها وتقررها أمر لازم لاينفك عنها .

* ثم جاء التعبير أيضا بقوله تعالى « كتاباً » أى فرضاً مؤكدا مقررا كالكتاب المكتوب ، واللوح المحفوظ ، والقرآن الكريم يعبِّر بهذا التعبير عادة فى شأن الأحكام التى لها طابع خاص يستدعى لونا من ألوان الطاعة والتقبل فوق المألوف ، كقوله تعالى فى شأن فريضة الصيام « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم (٢) » وفى فرض القتال « كتب عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم » (٣) وفى الوصية للوالدين والأقربين « كتب

---

(١) راجع ص ٧٣ من هذا الكتاب .
(٢) الآية ١٨٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

عليكم - إذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيرا - الوصيةُ للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين »(١) .

ولما كانت إقامة الصلاة والمحافظة على أدائها متكررة بشروطها وفى أوقاتها أمرا لا يحتمله إلا أقوياء الإيمان ، أشداءُ العزم ، عُبّر عن فرضيتها بالكتابة كما هو شأن القرآن ، ولذلك يقول الله عز وجل فى آية أخرى تقريرا لعظم أمر الصلاة ، وأنها تكليف يقتضى تقبله تمام الإيمان والخضوع : « واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين »(٢) .

وقد عرضنا لهذا الأسلوب من أساليب القرآن الكريم فى كتابنا « دعائم الاستقرار فى التشريع القرآنى »(٣) .

وجاء بعد ذلك وصفُها بقوله تعالى « موقوتا » أى أن لها أوقاتا محدّدة لا بد من فعلها فيها ، وعدم تأجيلها وتأخيرها عنها ، فلذلك نُظّمَ لها هيئة خاصة فى حالة الحرب والخوف ، تجعل من المستطاع أداءَها وقتئذ ، حتى لا تؤخر عن وقتها ، وقد قررت الشريعة تمشيا مع هذا الروح ، روح المحافظة على الصلاة : أن الصلاة تؤدى فى كل حال ، فمن لم يستطع أداءَها قائما ، أدّاها قاعدا ، ومن لم يستطع أداءَها قاعدا ، أدّاها مُومِياً برأسه ، فمن لم يستطع أدارها فى قلبه ، وهكذا مما يدل على بالغ العناية بها ، وتشريع ألوان التخفيف حرصا عليها ، وقطعاً للأعذار من نفوس المتلكئين عنها ، والمفرّطين فيها .

وهذا كله توجيه لأفراد المجتمع ، بل دفعٌ لهم بقوة إلى الحرص كل الحرص ، والعناية كل العناية ، بشأن هذا الركن الأساسى من أركان الإسلام .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٤٥ من سورة البقرة .
(٣) راجع ص ٢١ من الكتاب المذكور .

٢٠ — « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم - ١٨٠ »

من شرّ ماتُبتَلى به المجتمعاتُ خُلق الرياء والمصانعة، وذلك لأن المرائى غيرُ مؤمن بما يرائى به، ولكنه يفعله تظاهراً واجتلاباً لغرض عند الناس، وذلك يؤدى إلى ألوان من الفساد والخلل فى المجتمع، فإن الأعمال التى تعمل رياء لا يمكن أن تكون أعمالا قوية ثابتة، فالمؤمن بجدوى عمل من الأعمال وصلاحه لذاته، يعمله فى إخلاص وقوة وإتقان، والمرائى يكتفى بالمظهر دون المخبر، ولا يهمه أن يتقن العمل بمقدار ما يهمه أن يظهره، ثم إن المرائى يضرب للناس مثلا سيئا ربما احتذاه بعضهم وقلده، فيشيع فى المجتمع هذا الخلق، ويكثر فى الأمة تناول الأعمال تناولا سطحيا، يعتمد الظواهر، ويهمل الحقائق، فتضعف وتقل ثمراتها، وتتخلف فى ميادين الحياة.

ونستطيع أن نلمس هذا المعنى إذا راقبنا الإنتاج مثلا فى مصنع من المصانع، فإذا كان هذا المصنع قائماً على الإخلاص، وكان عماله وموظفوه ومديروه مؤمنين بفكرته، حرصاء على أن تنجح وتؤدى الغرض المقصود منها، فإننا نراهم متعاونين فى جد ومثابرة وحسن تفاهم، ونرى لذلك آثاره السريعة المنظمة فى تقدم مصنعهم ونجاح فكرتهم، أما إذا كانوا غير مؤمنين بفكرتهم، بل يأخذونها أخذاً صورياً، ويرائى بعضهم بعضاً فى شأنها، ويراءون الناس كذلك مظهرين أنهم يعملون ويجدّون، فإنهم لا يكادون يصلون إلى شىء، ولا يكادون يتقدمون إلى الأمام خطوة، وإذا فعلوا شيئاً فإنه يكون شيئاً هزيلا ضئيلا، لا يصلح عليه شأن، ولا ينهض بمثله مجتمع.

وقل مثل هذا موازنا بين الزوجة المخلصة فى بيت زوجها، والزوجة التى تعيش فى المظاهر وأساليب الرياء وليس لديها الإيمان والإخلاص فى الواقع.

وقل مثل هذا فى الموظفين والفرق بين مصلحة من المصالح يتعاون رئيسها ومرءوسوها فى إخلاص ، ومصلحة أخرى كلٌّ من فيها يتظاهر ويرائى الناس أو الرؤساء أو المفتشين ، ليخدعهم عن حقيقته ، ويصرفهم عن إفساده أو إهماله أو عبثه .

وهكذا نجد أن الإخلاص هو أساس النجاح ، وهو الباعث المنشّط ، والقائد المطاع ، أما الرياء فهو مبعث التخاذل والضعف والتضييع .

وبذلك يظهر ماللآية من توجيه للمجتمع ، وحث لأفــراده على الإخلاص والإيمان بأن الله معهم يراهم ويعلم مايفعلون ، ومافيها من إنكار على الذين يكون قصاراهم فى أعمالهم وأقوالهم مراقبة الناس ومراءاتهم دون أن يستشعروا مراقبة الله ، ويخافوا حسابه .

* * *

هذه عشرون آية من الآيات الموَجِّهة فى سورة النساء ، تحدثنا عن كل منها حديثاً مختصراً نريد به أن نلفت إلى مافيها من توجيه إصلاحىّ للمجتمع ، وتقويم لسلوك أفراده ، كما نريد به التمثيل لفكرتنا فى هذا النوع من آيات القرآن المنبثة فى جميع سوره ، والتى لاتكاد تخلو منها بضع آيات متتابعة فى أى موضوع من الموضوعات ، مما هو خاصة من خواص القرآن الكريم ، ومظهر من مظاهر قوله تعالى فى شأنه : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »

وحسبنا أن نورد هنا بعض مابقى من الآيات الموجهة دون تعليق ، فلسنا بعد ذلك بحاجة إلى التعليق .

وها هى ذى :

(٢١) « ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب — ٢ »

(٢٢) « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة — ٣ »

(٢٣) « وليَخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضِعافاً خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً — ٩ »

(٢٤) « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيَصْلَوْن سعيرا — ١٠ »

(٢٥) « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً — ١١ »

(٢٦) « وأن تصبروا خير لكم — ٢٥ »

(٢٧) « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا — ٢٨ »

(٢٨) « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا — ٤٩ »

(٢٩) « أم لهم نصيب من الملك ، فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا — ٥٣ »

(٣٠) « ذلك الفضل من الله — ٧٠ »

(٣١) « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى — ٧٧ »

(٣٢) « أينما تكونوا يُدركُكم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة — ٧٨ »

(٣٣) « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا — ٩٤ »

(٣٤) « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم — ٩٥ »

(٣٥) « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون - ١٠٤ ».

(٣٦) « هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة - ١٠٩ ».

(٣٧) « ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه - ١١١ ».

(٣٨) « لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس - ١١٤ » .

(٣٩) « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا - ١٢٠ » .

(٤٠) « ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب ، من يعمل سوأ يُجز به - ١٢٣ » .

(٤١) « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفا - ١٢٥ » .

(٤٢) « وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما - ١٢٧ » .

(٤٣) « والصلح خير - ١٢٨ » .

(٤٤) « وأحضرت الأنفسُ الشحَّ - ١٢٨ » .

(٤٥) « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلقة - ١٢٩ » .

(٤٦) « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته - ١٣٠ » .

(٤٧) « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديراً - ١٣٣ » .

(٤٨) « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا - ١٣٥ » .

(٤٩) « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم - ١٤٠ » .

(٥٠) « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا - ١٤٠ » .

(٥١) « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا - ١٤١ » .

(٥٢) « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء - ١٤٣ » .

(٥٣) « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار - ١٤٥ » .

(٥٤) « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكرا عليما - ١٤٧ » .

(٥٥) « لا يحب الله الجهرَ بالسوء من القول إلا من ظلم - ١٤٨ » .

(٥٦) « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن - ١٥٧ » .

(٥٧) « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل - ١٦٥ » .

(٥٨) « يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق - ١٧١ » .

(٥٩) « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقرَّبون — ١٧٢ » .

(٦٠) « ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما — ١٧٤ — ١٧٥ » .

٧ – الآيات المبشرة

تمهيد :

١ – قديما تصوّر أحدُ الفلاسفة ماسماه « المدينة الفاضلة » أو « المجتمع المثالى » وفهم بعضُ الذين انساقوا مع الخيال أن تلك المدينة ، وهذا المجتمع ، هما أمل الإنسان الذى يصبو إليه « وأن الحياة البشرية على هذا الكوكب ربما وصلت إلى تحقيقه يوما ما ، فيصبح الناس ولا أخطاء ولا ذنوب ولا جرائم ولا عقوبات ولا حدود ، لأن كل فرد يعمل مايجب عليه دون مُوجِب إلا من ضميره ، وينتهى عما ليس من شأنه وعما يضر غيره ، أو يفسد شأنا من شئون الحياة ، ولا وازع له إلا من نفسه ، وحينئذ تكون الحياة متعة صافية خالية من كل مايكدرها أو يجعل الناس على حبهم إياها يألمون منها ، ويودّ بعضهم لو استطاع التخلى عنها .

والحقيقة أن هذا خيال فيه تسلية للنفوس ، وأمل حلو قد يراود بعض الناس فيستريحوا إليه من لأواء الحياء حيناً ، كما يستريح المرء عادة إلى الآمال التى لاتكون ، فشأن الإنسان وطبيعة تكوينه أنه إنسان ، ركبت فيه عوامل الإساءة والإحسان ، والخطأ والصواب ، والشر والخير ، والفساد والصلاح ، وهكذا من المتقابلات والأضداد ، ولولا ذلك ما صلح للحياة على الأرض ، ولا استحق أن يكون هو الخليفة فيها ، المخلوق لعمارتها بإذن الله ، دون غيره من الملائكة الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ودون الجان الذين خلقوا من مارج من نار ليمثلوا قوى العصيان والشر والتمرد .

إن الإسلام قد صوّر الإنسان على هذه الطبيعة الجامعة بين الصلاح

والفساد فيما جاء به القرآن من قصة آدم حين أراد الله أن يخلقه وأن يجعله خليفة فى الأرض من دون الملائكة ، فتساءل هؤلاء قائلين « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم مالا تعلمون »[1] فقولهم « من يفسد فيها ويسفك الدماء » معناه من يقع منه ذلك أحيانا ، وفى ذلك دلالة على أن أمر هذا الإنسان وطبيعة تكوينه ووظائف جسمه وأعضائه كانت منبئة بحاله ، مفصحة عما سيكون من أمره فى عمل الشر والفساد أحيانا ، أما الخلق الآخر - الذين هم الملائكة - فإن طبيعة خلقهم ووظائفهم التى هيئوا لها ، تجعلهم على حالة لايقع معها الخطأ ، ولا يقترف معها الإثم ولا العصيان والتمرد ، وإذن فبمقتضى علمهم وتفكيرهم قالوا إنهم أصلح لعمارة الأرض ، والخلافة فيها ، ولكن الله تعالى ردّ عليهم بأنه يعلم مالا يعلمون، وأجرى أمامهم من مُقَدّرات هذا المخلوق وإمكانياته مادلهم على أنه أليق منهم بعمارة الأرض على حاله التى خُلق عليها ، ومع ماوصفوه به من أنه يأتى الفساد ، ويسفك الدماء : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »[2] .

فتعليم آدم الأسماء كلها هو عبارة عما ركب فيه من غرائز وقوى يستطيع بها أن يعرف الخواص ويفحص الأشياء ويتتبع بالتجارب دخائلها ومنافعها وما فيها من قوى ظاهرة وباطنة ، فالإنسان بطبيعته طُلَعَة ، ولذلك نرى

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة .
(٢) الآيات من ٣١ إلى ٣٣ من سورة البقرة .

الطفل إذا أمسك بيده لُعْبة أو شيئا من الأشياء يقلبه ويديره ويتأمله ويحاول أن يحطمه ليعلم ما فيه ، أو ما ينتهى إليه ، ولا يستريح حتى يصل فى ذلك إلى حدّ يرضى شهوته الطبيعية فى التطلع والتعرّف . وبذلك كان الإنسان مخترعا مبتدعا ، وكان خرّاجا ولاّجا طموحا مجازفا فى سبيل إرضاء نفسه التواقة إلى الاستطلاع والكشف والمعرفة .

وما كان تعبير ابن عباس وغيره فى هذا المقام ـ بأن الله علم آدمَ أسماء كل شيء حتى القصعة وحتى كذا وكذا الخ ـ إلا تمثيلا على ما يتصوّرون ، وإلا تقريباً لما خلق عليه الإنسان من إمكانه تصوُّر الأشياء وتمثُّلها تمثُّل من يعرفها بأسمائها وأعلام أشخاصها .

وقد اختلف الناس قديما وحديثا فى أن هذه الآيات تصور واقعا قد كان حسًّا بين الله والملائكة، أو تصوّر حقيقة الأمر ومعناه فى صورة أخذورد على النحو القولى ، وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك ، فإن الذى يهمنا هو أن القرآن الذى هو كتاب الإسلام، يصور الإنسان من أول عهده بالأرض على صورته التى تؤذن بأنه مخلوق يصيب ويخطئ ، ويصلح ويفسد ، وبأن خلقه على هذه الطبيعة مقصود ، وملائم لوظيفته التى ندب لها، وأوثر بها على غيره ، وأن هذا كله إنما وقع من الله تعالى بمقتضى علمه وحكمته وتمام مشيئته .

٢ — وهذا التصوير القرآنى لمبدأ الخلق ولطبيعة الإنسان الأول هو جزء من بيان الحقيقة الكونية الكبرى ، وهناك أجزاء أخرى فى بيان هذه الحقيقة : منها ماورد فى سورة الحِجْر ، وفيه تصوير جانب العداوة بين الإنسان والشيطان ، وأن هـذا الأخير يتوعد غريمه الأبدىّ فيقول : « رب بما أغويتنى لأزَيِّنَنَّ لهم الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال هـذا صراط علىّ مستقيم ، إن عبادى ليس لك

عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين »(١) .

وقد جاء هذا الحوار على الأسلوب نفسه الذى جاء عليه الحوار فى سورة البقرة ، وفُسّر بالتفسيرين السابقين ، والذى يعنينا من ذلك هو أن هناك بمقتضى الخلق ومشيئة الله تعالى الصادرة عن الحكمة والعلم ، عوامل إغواء بجانب هذا المخلوق المعهود إليه بالخلافة فى الأرض .

وقد جاء مثل ذلك أيضاً فى سورة الإسراء حيث يقول الله عز وجل : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقتَ طيناً ، قال أرأيتك هذا الذى كرّمتَ علىّ لئن أخّرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكن(٢) ذريته إلا قليلا ، قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلبْ عليهم بخيلك ورَجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدْهم ، وما يعدُهم الشيطان إلا غروراً ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا »(٣) .

وقد عرضت سورة النساء نفسها إلى هذا الشأن حين تحدثت عن بعض الصور التى كانت تمثل ضلال المشركين ، وذلك حيث تقول « إن يَدْعُون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مَريداً ، لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ، ولأضلنّهم ولأمنينهم ولآمُرَنّهم فليُبَتّكُنّ آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرُنّ خَلق الله ، ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً »(٤) .

---

(١) الآيات من ٣٩ إلى ٤٢ من سورة الحجر .
(٢) احتنكه : استولى عليه .
(٣) الآيات من ٦١ إلى ٦٥ من سورة الإسراء .
(٤) الآيات من ١١٧ إلى ١٢١ من سورة النساء .



والغرض من هذا هو أن نعرف أن هذا الإنسان :

* مخلوق على طبيعة تجعله مستعداً للخير والشر جميعاً .

* وأنه محاط بعوامل الإغراء والإغواء من الشيطان الذى يمثل قوة الشر والإفساد ، وقد أبقاه الله وخلده إلى يوم القيامة قائماً بهذا الدور ، مع التحذير منه وتحصين الإنسان من دعوته بالهداية والإرشاد .

* وأن هذا الخلق على هذا النحو ، وعلى إحاطته بتلك العوامل ، هو ما أراده الله عن علم وحكمة ، لأنه هو المناسب لمقدّرات الخلافة والمستخلَف وما استخلِف عليه .

٣ — وليس من سبيلنا أن نتوسع فى البحث لنصل إلى بيان تلك المناسبة ، أو بعبارة أخرى ـ إلى بيان كيف يناسب الأرض وعمارتها وإقامة الحياة ووجوه النشاط فيها ، أن يكون ساكنها والخليفة فيها على هذا الطراز الجامع بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ـ ليس من سبيلنا أن نتوسع ببيان ذلك ، وإنما نريد أن نصل إلى أن الإسلام ـ كما ينطق كتابه ـ يعرف وضع الإنسان حق المعرفة ، ولا يكلف الناس أن ينسَوْا هذا الوضع الطبيعى ، وأنه لذلك يسلك فى معاملته والتشريع له وتنظيم مجتمعه ما يتفق وهذه الحقيقة الواقعية من السبل .

فالإسلام لا يفرض أن الإنسان يمكن أن يكوّن مجتمعاً ملائكيا لا تقع فيه معصية ما ، ولا مجتمعاً مبرأ من كل عيب أو إثم فلا يقع فيه إلا الخير والصلاح والاستقامة وأداء الحقوق ، ونحو ذلك ، ولكنه فرض المجتمع الإنسانى مجتمعا إنسانيا ، فعامل الفرد فيه على أنه قد يخطىء ، وقد يميل عن الصراط المستقيم، وقد يأتى بالشر، ويقع فى الفساد، ولم يَضقْ بهذا، ولم ينظر إليه على أنه أمر يثير اليأس ، ويبعث على القنوط والإبلاس ، وإنما نظر إليه فى كثير من السماحة والرفق والإيناس والتبشير والمعالجة التى تعتمد

الاعتراف بحقوق الفطرة ، وتتقبل المعذرة عما لا يمكن أن يجتنب دائماً بحكم الطبيعة .

رسـالة الإسلام فى المجتمع

رسالة رحمة وتبشير وتيسير :

لهذا كله كانت رسالة الإسلام فى بناء المجتمع رسالة رحمة وتبشير وتخفيف وتيسير ، لا رسالة قسوة ولا تيئيس ولا تشديد ولا تحجير ولا تزمت ، ونستطيـع أن نجد ذلك فى أيات من سورة النساء تصور أهداف التشريع الإسـلامى للمجتمع تصويراً واضحا رائعاً ، وهى قوله تعالى :

« يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » [١].

وكأنى بهذه الآيات الثلاث تصوّر لنا دعوة إلهية توجه إلى الناس يقول الله فيها :

ياعبادى : إنما أريد بما أشرعه لكم من الأحكام ، وبما أوجهكم إليه من المبادىء والمثل والإرشاد ، أن أبيّن لكم ، فإن رحمتى تأبى أن أكلكم إلى مجرد تفكيركم ، فإن الإنسان قد يلتوى به التفكير ، وقد يرى حسناً ماليس بالحسن ، وقبيحاً ماليس بالقبيح ، وللعقول خداعها ، كما للحواس خداعها ، وللنفوس شهواتها وإملا آتها دون أن يشعر أصحابها فى كثير من الأحيان أنهم متأثرون بهوى أو نازعون عن شهوة ، فأنا أريد معاونتكم بالبيان والتوجيه لآخذ بأيديكم إلى الطريق القويم ، والحق المبين .

(١) الآيات من ٢٦ إلى ٢٨ من سورة النساء .

ياعبادى : إن رحمتى تأبى أن تتركـكم وتُخَلى بينـكم وبين المرور بعصور من التجارب واستكشاف مامر به الذين من قبلكم من سنن الحياة، فأنا أقربها لكم ، وأهديكم إليها ، وأوفر عليكم أحقابا طوالا تقضونها فى تتبعها ودراستها وإعادة تجربتها ، تأخذوها منى مُصَفَّاة مهيَّأة فى صورة تشريع وتنظيم وإرشاد وتوجيه .

ياعبادى : إنما أريد أن أتوب عليكم وأطهركم من كل ماعسى أن يدنسكم أو يلوث أعمالكم ، وأنا أعلم بأنكم مخلوقون على وضع يجعلكم تذنبون أحيانا ، وتخطئون أحيانا ، ومن رحمتى وحكمتى أن أطهركم من الذنوب ، ولا أتركـكم تسترسلون فيها ، وتغوصون فى حمأتها ، وان أفتح لكم باب التخلص من الأخطاء ، والتنقى من الأدناس والأرجاس ، فأريد أن أتوب عليكم، أى أرجع لكم بالتطهير والتنقية والتنظيف ، بما أشرعه لكم من الشريعة ، فتطهروا بذلك أطهركم ، وتوبوا أتب عليكم .

ياعبادى : إن لى دعوة ، ولأعدائكم دعوة : إن دعوتى هى تطهيركم، وإفساح المجال أمامكم لتعودوا إلىّ فأعود إليكم ، وذلك لايكون إلا بأن تتوجهوا إلىّ ، وأن تأخذوا عنى ، وأن تقبلوا منى ، وأن تستمعوا إلى ندائى وتوجيهى ، وإن هناك دعوة أخرى تصدر عن إرادة أخرى هى إرادة عدوكم الذين يتبعون الشهوات ، ويُؤثرونها تلبية لدعوة الشيطان المتربص بكم ، الذى آلى على نفسه ليغوينكم ، إن هذه الدعوة تقابل دائماً فى كل مجتمع دعوتى - أنا ربكم - فما من مجتمع إلا وفيه صوتان يناديان . صوت الفضيلة والحق ، وصوت الرذيلة والباطل ، صوت الإصلاح والخير ، وصوت الإفساد والشر ، صوت التماسك والاعتصام ، وصوت الانهيار والانحلال ، فأنا ربكم ومصدر كل خير وكل دعوة إلى الحق والصلاح

فإلىّ إلىّ ، وهؤلاء أعداؤكم ومصدر كل دعوة إلى الباطل والفساد فدعهم عنهم .

ياعبادي : إنى أنا ربكم أريد لكم التوبة والتطهر ، ولا تكون التوبة والتطهر إلا من ذنب ومن خطأ تقعون فيه ، وأنا لم أفرض أنكم ملائكة أبرار لاتعصون ولا تذنبون ، فأنا الذى خلقتكم ، وأنا الذى ركبت فيكم طبائعكم ، فإذا أذنبتم أو أخطأتم فذلك هو الشأن فيكم ، وكل ما أريده منكم هو أن تعودوا إلىّ ، وأن تستغفرونى وتتوبوا ، وعندئذ أقبلكم مرحباً بكم ،ولا أتركم تستمرئون العصيان ، وتغوصون فى أعماق الرذيلة والكبيرة ، أما أعدائى وأعداؤكم فيريدون لكم بدعوة التحلل والتفريط أن تميلوا ميلا عظيما ، فإذا ملتم هذا الميلَ العظيم ، فسد مجتمعكم واضطرب وعمتكم الفتن ، وخالطتكم عوامل الشقاء ، وتغلغلت فيكم مظاهر السوء ، فتحق عليكم كلمتى وسنتى فى الأمم : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »[1] .

ياعبادي : إنكم ضعفاء ، خلقتكم محاطين بالشهوات والرغبات والحاجات ، وطبعتكم على طابع التلبية لهذه الملكات البشرية الحيوانية ، ولذلك لم أشرع لكم من الأحكام مايتنافى وتلك الطبيعة التى خلقتها بيدى ، وسويتها ونفخت فيها من روحى ، لحكمة أعلمها ، ومصلحة أقدُرها ، وما أريد بتشريعى إلا تنظيم هذه الطبيعة ، والإشراف على إعطائها حظوظها فى نَسَق منظم يعينها ولا يصادرها ، ويُهذبها ولا يَخـرمها ، ويجذبها دائماً إلى الوسط فلا تفريط ولا إفراط .

تلك هى دعوة الله ! « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »[2] .

---

(١) الآية ١٦ من سورة الإسراء .   (٢) الآية ٢٥ من سورة يونس .

حقُّ الإنسان فى أن يُخطىء ،

وفى أن يُعْفَىَ عن خطئـــه :

٤ ـ يتجلى مما ذكرناه فى هذا التمهيد أن القرآن يريد للمجتمع أن يكون متمسكا بأهداب الأمل دائماً ، لا ييأس من روح الله ، ولا يشعر أفراده بأنهم مكبَّلون مترصَّدة عليهم الهَفَوات ، محاسبون على الصغيرة والكبيرة حساباً عسيراً فيه كثير من القسوة ، وكثير من الصرامة .

كما يتجلى مما ذكرناه أن القرآن يريد المجتمع فى الوقت نفسه متماسكا غير متحلل ولا منساق مع الغرائز دون أن يعدّلها ، ولا مع الدعوات المنحرفة دون أن يقاومها .

ولذلك نجد دعوة القرآن دائما ، فى سورة النساء وفى غيرها ، دعوة وسطا ، فلا هى بالدعوة التى تعتمد التخويف إلى درجة التيئيس والإقناط اللذين يفضيان بالمرء إلى الإبلاس والتحيّر والبلبلة ، ولا هى بالدعوة التى تطلق للإنسان عنان شهواته وآماله ورغباته ، إلى حد الانبعاث والاندفاع اللذين يفضيان به إلى الارتطام والتردى والعجز عن مكابدة مالا بد منـــه من الصعاب .

فالإنسان فى نظر الإسلام مخلوق له قيمته وله كرامته ، وله حق الاعتراف بميـــوله ، وحق الاعتراف بغرائزه ، وحق الصفح عن أخطائه ، والتقبل منه ، ولكنه مع هذا ليس بالمدلل المرفَّه المتروك سدى ، وإنما هو مسئول مخاطب مكلف فى حدود ما يطيق ، وما يتلاءم مع طبيعته ومكوناته الخِلقية والخُلقية .

وسورة النساء تأخذ قسطا عظيما من تركيز المجتمع على هذين المبدأين ، وقد تقدم فى الفصلِ السابق : «الآياتِ الموجِّهة » وفيما قبله : «الآياتِ المحذِّرة»

بيان هذا القسط فى ناحية المسئولية والتوجيه ، وهنا نبين قسطها من الناحية الأخرى ، ناحية التبشير وبث روح الأمل فى المجتمع ، والقضاء على عوامل القنوط والخوف المفسدين :

* * *

الآيات المبشرات خير لهذه الأمة

مما طلعت عليه الشمس أو غربت :

٥ — نجد فى كتب التفسير روايات متعددة تشير إلى اشتمال سورة النساء على آيات مُبَشِّرات ، من شأنها أن تملأ قلوب الناس بمحبة الله ، وأن تحيى فيهم الآمال ، وأن تنفى عنهم عوامل اليأس والانقطاع عن الله .

فمن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه من أنه قال : إن فى سورة النساء لخمسَ آياتٍ ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها :

(١) « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنةً يضاعِفها ويُؤتِ من لدنه أجراً عظيما — ٤٠ » .

(٢) « إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفِّرْ عنكم سيئاتِكم ونُدْخِلْكم مُدْخَلا كريما — ٣١ » .

(٣) « إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء — ٤٨ ، ١١٦ » .

(٤) « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما — ٦٤ » .

(٥) « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما — ١١٠ » .

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : ثمان آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت : أولهن « يريد اللهُ ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » والثانية « والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » والثالثة « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » - ثم ذكر قول ابن مسعود سواءً فى الخمس الباقية .

دراسة الآيات المبشرات :

وقد قدمنا ما نكتفى به من الحديث عن الآيات الثلاث الأولى التى جاءت بها رواية ابن عباس ، أما الخمسُ الباقيةُ التى جاءت بها رواية ابن مسعود ، فنتكلم عنها هنا حسب ترتيب السورة :

الآية الأولى :

« إن تجتنبوا كبائر ما تُنْهَوْن عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدْخلاً كريماً - ٣١ » .

١ - إن الصلاح والفساد مرتبطان بالأعمال والنوايا وما لأفراد المجتمع من اتجاهات . فإذا استقام أفراد المجتمع ، وعملوا الصالحات وكفوا عن السيئات ، وكانت لهم نوايا طيبة واتجاهات طيبة ؛ استقام المجتمع على الطريقة ، وكان مجتمعاً صالحا راشدا سعيدا .

والعكس بالعكس : فإذا كان المجتمع يغلب على أفراده عمل السيئات ، وفساد النيات والاتجاهات ، وعدم الرغبة فى الأعمال الصالحة ، فإن هذا المجتمع لابد أن يضطرب ، ولا بد أن يصبح العيش فيه ضنكا وشقاء ، وأن يكون من المجتمعات الفاسدة التى لا يستطيع الفرد الوسط إن يطمئن إليها ، أو ينال القرار والرضا النفسى فيها .

اجتناب الكبائر يكفر الصغائر
ويدخل الناس مُدخلا كريما :

غير أن هذا الارتباط بين الحالة الخلقية والعملية والنفسية للأفراد ، وبين سعادة المجتمع أو شقائه ، لا يمكن أن يُتجاهل معه مالابد منه من الأخطاء الجزئية ، أو المؤقتة ، أو الصغيرة ، أو مايعبَّر عنه بالهفوات ، فلا يمكن أن نتصور مجتمعاً خاليا من الهفوات ، ومن الهنات الهينات ، ولا يمكن أن يكون أفراد المجتمع كلهم على الطريقة المثلى فى كل شىء ، لذلك لم يكن هدف القرآن الكريم أن يقيم مجتمعاً لا يخطىء أفراده ، ولم يكن من شروط التقوى فى المؤمن ألا يقع منه الذنب أصلا ، ولو كان الأمر كذلك لما كان المجتمع صورة ممكنة واقعية متمشية مع طبيعة الخلق ، وغرائز البشر ، وإنما يرمى القرآن إلى تخفيف ذلك ، ووضع الضوابط والقيود التى تهذب من هذه الغرائز ، وتحول بينها وبين الاندفاع الثائر المشتط المؤذى ، وهو فى سبيل ذلك ينظر إلى الصغائر والهفوات نظرة فيها كثير من التسامح والرحمة والعطف على الإنسان الذى خلق ضعيفاً ، والذى هو محل لتأثيرات داخلية نفسية ـ وهى الشهوات والمطامع ـ وخارجية شيطانية ـ ومنها المغريات الحسية أو الأدبية ـ ولذلك يعلن فى صراحة ووضوح أنه يغفر الصغائر لمن انتهى عن الكبائر ، بل لايقف عند هذا الحد ، ولكنه يعد بجزاء إيجابى لمن ترك الكبائر ، أى تعفف عن مواقف الإثم الكبرى ، وذلك أن يدخله مُدخلا كريماً ، وليس فى الكلام ما يدل على أن هذا المُدخَل الكريم هو الآخرة فحسب ، حيث الجنة وما أعده الله للصالحين من نعيم ، ولكن الوعد صالح لأن يراد به أيضاً المُدخل الكريم فى الدنيا ، حيث النجاحُ فى الحياة ، وأن يتبوأ الفرد فيها منزلة كريمة ، ومركزاً محترما .

عمر بن الخطاب وجماعة من المصريين المتزمّتين :

وقد أدرك ذلك عمر بن الخطاب على ما كان يُعرَف عنه من الشدة والحفاظ والتمسك ، فقد روى أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمَرَ أن يُعمَل بها فلا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك ، فقـدم وقدموا معه ، فلقى عمر رضى الله عنه فقال له عمر: متى قدمتَ ؟ فقال: منذ كذا وكذا ، قال : أبإذن قدمت ؟ ... ، فقال يا أمير المؤمنين . إن ناساً لقونى بمصر فقالوا : إنا نرى أشياء فى كتاب الله أمَرَ أن يُعمَل بها فلا يُعمَل بها ، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك . قال : فاجمعهم لى ، قال : فجمعتهم له . . فأخذ أدناهم رجلا فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك : أقرأتَ القرآن كله ؟ قال : نعم ، قال : فهل أحصيته فى نفسك ؟ فقال : اللهم لا ، قال : فهل أحصيته فى بصرك ؟ فهل أحصيته فى لفظك ؟ فهل أحصيته فى أثرك ؟ - ثم تتبّعهم حتى أتى على آخرهم فقال : ثكلتْ عمرَ أمُّه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ قد علم ربنا أنْ ستكونُ لنا سيئات ، وتلا : «إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ونُدخلكم مُدْخلا كريماً» ثم قال : هل علم أهل المدينة ، أو قال: هل علم أحد بما قَدِمتم ؟ قالوا : لا ، قال : لو علموا لوَعظتُ بكم [1] - أى أى لعاقبتكم على هذا التزمُّت والتشدد عقوبة تكون عظة لغيركم -

وهذا إنصاف عظيم من الإسلام ، وحكمة ولباقة فى السياسة والتوجيه.

أما أنه إنصاف ، فذلك لما فيه من ملاحظة الطبائع والفطر والمؤثرات التى

---

(١) رواه ابن كثير فى تفسيره وصحح إسناده ومتنه — انظر ص ٤٢٤ ج ٢

لاينفك عنها إنسان ولا مجتمع مؤلف من أفراد الإنسان ،

وأما أنه حكمة ولباقة فى السياسة والتوجيه ، فذلك لأنه يرمى إلى عدم فصل الرابطة التى تربط الإنسان بالدين وقيادته وتأثيره ، فالله تعالى يقول بهذا لعباده : إذا كنتم أخطأتم باقتراف بعض الصغائر فلا تيأسوا ولا تقنطوا ، فإن ترككم للكبائر هو فى ذاته عمل صالح من شأنه أن يطهر مجتمعكم ، وأن يدرأ عنكم كثيراً من ألوان الفساد ، بل من شأنه أن يجعلكم صالحين لأن تتلقوا فضل الله وتكريمه بإدخالكم فى الدنيا والآخرة مُدخلا كريماً ،

ولاشك أن هذا يبعث فى الأفراد وفى المجتمع لوناً من الطمأنينة والاستبشار ، ويحول بين النفوس وما قد يعتريها من القنوط والهم والحزن وغير ذلك مما يفضى إلى الاسترسال فى فعل السيئات ، وارتكاب الموبقات ، وفيه من ناحية أخرى تقوية للإنسان على محاربة الرذيلة فى أقوى صروحها ، حيث تتوفر على هذه الحرب كرائم الجهود ، وتتجه إلى ميادينها العزمات فى قوتها ، دون أن تشعر بأنها إذ خسرت المعركة فى ميدان الصغائر ، قد خسرت كل شىء ، فلا تستطيع أن تنهض من بعد .

إن القائد الحكيم لايجزع ،ولايترك لجنوده أن يجزعوا ، لأنهم خسروا معركة جزئية ، بل يوجههم الى كسب المعارك الكبرى ، ولا يدع روح الهزيمة يتمكن من قلوبهم فيشغلهم ويضعفهم .

فهى إذن سياسة حكيمة ، وطريقة لبقة ، يسلكها المشرّع الإسلامى على بصيرة ، ويدرك علماء التربية مالها من تأثير إصلاحى نفسى وعملى ومالها من إيحاء بترك عظائم الذنوب التى من شأنها إفساد النفوس ، وإفساد البيئات والمجتمعات .

* * *

ماهى الكبائر :

٢ ــ والكبائر التى أشير إليها فى هذه الآية قد مرَّ كثير منها فيما تقدم قبل ذلك من سورة النساء :

فأكل أموال اليتامى من الكبائر ، وتعدّد الزوجات مع الخوف من عدم العدل بينهن من الكبائر ، والتفريط فى شئون الضعفاء والمحجور عليهم من الكبائر ، وتغيير ما فرضه الله فى المواريث من الكبائر ، وارتكاب الفاحشة بين الرجال أو بين النساء من الكبائر ، والإصرار على الذنوب وعدم التوبة منها من الكبائر ، وإساءة الرجال إلى النساء أو النساء إلى الرجال فى العشرة من الكبائر ، وظلم أحد الجنسين للآخر واهتضام حقه من الكبائر ، وتعدى حدود الله فى المحرمات من النسب أو من الرضاع ، أو من غيرهما من الكبائر . . . وهكذا . .

ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » ، بعد ثلاثين آية من سورة النساء ذكر فيها حكم الله تعالى فى كثير من المسائل التى تتصل اتصالا وثيقاً بصلاح المجتمع ، ودرء المفاسد والموبقات العملية عنه .

ولهذا ورد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها » ثم تلا « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ، نُكفِّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدْخَلا كريما » .

والواقع أن الكبائر لاتقف عند ما ذكر فى هذه السورة قبل هذه الآية ، وأن ابن مسعود لا يقصد هذا ، وإنما يقول ابن مسعود مايقول بيانا لأن هذه الآية جاءت فى ترتيب السورة بعد ذكر جملة من الكبائر ،

مجىء القاعدة العامة التى تطبق على جزئيات كثيرة ، منها هذه الجزئيات التى مرت فى آيات السورة .

وقد ورد فى بيان الكبائر كثير من الروايات ، ونذكر منها — بحسب ما يؤخذ من الروايات — :

الإشراك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ظلما ، والفرار من الزحف ، ورمى المحصنات ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، والزنا ، وشرب الخمر ، واليمين الغموس — وهى التى يحلفها صاحبها عالما بكذبه — وأن يعرّض الإنسان أبويه للّعن بلعنه الناس — قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسبّ أباه ، ويسبّ أمه فيسب أمه » .

ومن الكبائر الخوض فى أعراض المسلمين ، والسّبّتان بالسبّة - أى إذا سب رجل آخر سبة ، فردّها إليه سبّتين — .

ومن الكبائر اليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله . والقنوط من رحمه الله ، وسوء الظن بالله . وتفضيل بعض الأولاد على بعض فى الوصية ، والوصية التى يقصد بها الضرر ، والغلول - وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ، وفى حكمه أكل أموال الدوله والأمة ظلماً - وغير ذلك .

والقاعدة أن كل ذنب من شأنه أن يترتب عليه فساد كبير ، أو أن يخرج بالمؤمن إلى دائرة الفسق والفجور ، أو الظلم والطغيان ، أو الجحود بنعمة الله تعالى ، فهو كبيرة من الكبائر التى يجب على المؤمن أن يكون قوياً فى مقاومتها والتحفظ منها .

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن الصغائر لا تقاوم ، ولا يُعتدّ بها ، كأنها

مباحات ، فإن الذنب ذنب ، والإصرار على الصغائر ربما كان من الكبائر أصلا ، وربما جرّ إليها فعلا ، وغاية ما نريده من هذا الفصل ، هو أن نبين ما فى الإسلام من سماحة ، وما للقرآن من تبشير وتيسير وإدراك لطبيعة البشر ، وتوجيه إلى عدم اليأس والإبلاس [1] ، وأن هذا من شأنه أن يجعل الإنسان قريب الرجوع إلى ربه ، سريع الإقلاع عن ذنبه ، وأن يحول بينه وبين أن يفقد ثقته بنفسه .

* * *

الآية الثانية : — من الآيات المبشرة —

إن الله لايظلم مثقالَ ذَرّة ، وإنْ تَكُ حسنةً يُضاعِفها ، ويُؤتِ مِن لدُنه أجراً عظيما — ٤٠ »

هذه مرتبة أخرى من مراتب الفضل الإلهى غير السابقة ، وفيها تبشير بأمرين عظيمين :

أحدهما : مايدل عليه قوله تعالى « إن الله لايظلم مثقال ذرة »

والذرة واحدة الذرّ ، وهو صغارُ النمل ، أو الهباء المنتشر فى الهواء ، والمراد أصغر مايتصور من الأشياء ، فالله تعالى لايظلم الناس شيئا ولو كان قليلا فى وزنه كالذرة ، وذلك العدل الإلهى واقع فى الدنيا ، وفى الآخرة :

لكلٍّ درجاتٌ مما عملوا :

أما فى الدنيا فإن لكل عامل جزاءَ ما عمل : وقد وضع الله تعالى من السنن الكونية ما يجعل النجاح والصلاح والفوز ، وأضدادَها ، مرتبطة

---

(١) أبلس الرجل إبلاساً : قل خيره ، وحزن وانكسر، وأبلس من رحمة الله : يئس ، وأبلس فى أمره تحير فهو مبلس .

بعمل العامل وجودا وعدما ، وإتقانا وإهمالا « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يَرَه ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يَره » .

فلا يمكن أبداً فى سنة الله وعدله الكونى أن يعمل إنسانٌ عملا صالحا إلا كان لهذا العمل الصالح نتائجه وثمراته الموازنة له بالقسطاس المستقيم ، فمن زرع أرضاً فبمقدار ما يعطيها من العناية وما يُوَفر لها من أسباب الصلاحية ، تعطيه من ثمراتها ، كثرة ، وجَوْدةً ، ومن أهملها فلم يعطها قسطها من العناية أو من البَذْر أو من العمل ، أو أهمل أسباب الصلاحية التى يجب أن توفّر لمثلها ، تجاوبه على ذلك بالنسبة نفسها ، قلةً فى الثمرات وضَعفا .

وقل مثل ذلك فى الذى يخلص فى نواياه ، وفى الذى يسلك الطريق المستقيم فى الحياة ، وفى الذى يحفظ أماناته التى ائتمنه الله أو الناس عليها ، وفى الذى يأخذ ويؤدّى ما أُسند إليه من عمل أخذاً قوياً ، وأداء قوياً : يأخذ الأعمال بقوة ، ويؤديها بقوة - والقوة فى ذلك هى الصدق والثبات والعناية الواجبة التى هى حقٌّ كل عمل ، وسِنادُ كل عمل ، وما به قِوام[1] كلِّ عمل - إن لذلك فى العدل الإلهى الكونىّ نتائجَه بالضرورة ، لا يمكن أن تنفك عنه ، أو يختل ميزان تقديرها.

وإذا كنا نرى صُوَراً غيرَ ذلك فى الحياة بين الحين والحين ، فننسب بعضها إلى الحظ الحسن ، وبعضها إلى الحظ السيء ، فإن علمنا هو القاصر ، ولو علمنا كل الظروف ، وتتبعناه فى حَيْدة ونَصَفَة ، لآمنا بأن سنة الحكيم العليم مطّردة لا تتخلف ولا تَظلم : « إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

والخلاصة أن الله تعالى لا يمكن أبداً أن يَنقُص العاملين أو يَبخَسَهم

(١) قوام الشيء : - بكسر القاف - نظامه وعماده وما يقوم به .

أعمالهم ، وأن الأعمال نفسها لها ثمراتها الطبيعية ، كالمقدّمات والنتائج ، فكما أن الإنسان لا يمكن أن يزرع عنبا ، فيجنى رمانا ، كذلك لا يمكن أن يعمل ويسعى على أصول صحيحة سليمة ، ثم يضيع عمله سدى ، ويذهب سعيه هباء .

هذا فى الدنيا بحسب النواميس التى هيأ الله عليها الكون والناس والأعمال والثمرات .

أما فى الآخرة فقد ورد من الآثار والأخبار ما يدل على مثل ذلك ، فالله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينقص عبداً من عباده فى دار الجزاء خيرا فعله ، غير أنه قد يَرُدّ على الفاعل فعله فلا يقبله لأنه لم يفعله ابتغاء وجهه ، أو لم يأت به على الصورة التى رسمها له ، وحينئذ لا يكون هذا الردّ نقصا للعبد ، وظلما لحقه ، فإن العبد فى الحقيقة لم يعمل الخير ، ولكن عمل ما صورته صورة الخير ، أو ما اعتبره هو خيراً وإن لم يكن خيراً .

ومما ورد فى السنة من التبشير بإيفاء العاملين أجر أعمالهم يوم القيامة ، ما روى فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذى جاء فيه: « فيقول الله عز وجل: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثال حبة خَرْدَل(١) من إيمان فأخرجوه من النار ، فيخرجون خلقاً كثيرا - ثم يقول أبو سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه : اقرءوا إن شئتم: « إن الله لا يظلم مثقال ذرّة . . . » الآية .

لاحَظَّ للكافرين من ثواب الآخرة :

وهنا يرد سؤال كثيرا ما يراود القلوب : هل الحكم فى عدم الظلم والنقص من جزاء الأعمال فى الدنيا والآخرة عامّ يشمل المؤمنين

(١) الخردل : نبات له حب صغير جداً أسود ، والواحدة من حباته (خردلة) .

والكافرين جميعاً ؛ فالكافر أيضاً لا يظلم مثقال ذرة ؟ أو هذا شيء خاص بالمؤمنين ؟ .

والجواب : أن الآية تقول « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » فقد حذف المفعول الأول للفعل ، فأفاد العموم ، ودل على ذلك تصريح الآية الأخرى التي تقول «إن الله لا يظلم الناس شيئاً » فقد ذكرت المفعولين، وكان المفعول الأول هو الناس ، والناس لفظ يعم المؤمن والكافر .

وهذه الدلالة - بالنسبة للجزاء الدنيوى - لا معارض لها نقلا ولا عقلا ، فقوانين الحياة وسننها الطبيعية لا تفريق فيها بين مؤمن وكافر ، فمن استقام لشيء وأعطاه حقه ؛ استقام له ذلك الشيء وتجاوب معه على قدر استقامته له ، وما وَفىَّ إليه من حقه ، لا فرق فى تلك السنّة الكونية بين مؤمن وكافر .

أما فى الآخرة فالقرآن الكريم صريح فى أن أعمال الكافرين هباء ، ومن ذلك قوله تعالى « أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » (١) و « أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » (٢)

وقد اختلف المروى من السنة فى هذا الشأن : فجاء فى بعض الأحاديث أن المشرك الذى فعل الخير يُخفّف عنه العذاب يوم القيامة ، ولكن لا يخرج من النار ، فيكون التخفيف عنه هو جزاءَ حسناته ، وجاء فى حديث آخر : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة: يثاب عليها الرزقَ فى الدنيا ، ويُجازَى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيَطعَم بحسناته فى الدنيا ، حتى إذا أفضى

(١) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ٣٩ من سورة النور .

إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا » (١).

وإذن فهناك قدر متفق عليه بين الحديثين ، وهو أن الكافر لا ينال فى الآخرة ثواباً على عمل عمله فى الدنيا ، وإن جاز أنه سيخفف عنه من العذاب .

سر التفرقة فى ذلك بين المؤمن والكافر :

والتفرقة بين المؤمن والكافر على هذا النحو أو ذاك ، قد تثير سؤالا خر : هل الله تعالى يحابى المؤمنين على الكافرين ؟

والجواب عن هذا السؤال : أن الأمر فى ذلك جاء على تمام العدل ، وأن التفرقة بينهما مما يقتضيه العدل نفسه ، وذلك أن المؤمن يعمل الخير والصلاح مبتغيا جزاءين : جزاءَ الدنيا ـ الذى هو نتيجة إحسان الأعمال وإقامتها على سنن الصلاح ـ وجزاءَ الآخرة الذى هو الثواب فى الجنة ، فهو مؤمن بأن هناك إلها يجازى ، وأن هناك دارا أخرى ، وأن بها جنة ونارا ، الجنة للمتقين ، والنار للعاصين ، أما الكافر فإنما يعمل ما يعمل ابتغاء الدنيا فقط ، وليس مؤمنا بالله ربا ، ولا بالآخرة دارا للجزاء ، حتى يتوجه فى عمله إلى قصد ذلك .

فالله يعطى كلَّ إنسان الجزاءَ الذى تطلبه وابتغاه دون أن ينقصه منه شيئا .

ومَثَل ذلك كمثل رجلين : أحدهما باع سلعة بثمن بعضُه مُعَجّل ، وبعضُه مؤجّل ، فاذا لم يُعطَ المؤجَّلَ كالمعجّل ؛ كان قد بخس حقّه ،

---

(١) راجع تفسير الإمام البغوى ص ٤٤٩ ج ٢ .

والثانى باع سلعته بثمن معجل فقط فليس له حق فى أن يأخذ شيئاً بعد هذا المعجل ، ولا يقال انه بُخس ، ولا أن صاحبه حُوبِىَ ، فكلٌّ منهما نال حقه ، وحصل على ثمن سلعته كاملا .

هذا تقريب للأمر ، وبيان للسر ، يتضح منه أنه لامحاباة لمؤمن ، ولا ظلم لكافر .

ثم إن الكافر الجاحد بربه وبدار الجزاء ، قد ارتكب بهذا الكفر أشنع الجرائم التى تنافى العقول وتكابر الدلائل الواضحة فى الكون ، ومثل هذا فى الواقع لايرجى منه خير ولا نفع ولا عمل صالح فى شئون الحياة ، ولو أنا أحصينا عدد الذين ينكرون الله ولا يؤمنون برسله ، ولا بالدار الآخرة ، لوجدناهم على حالة من الاضطراب فى حياتهم العملية ، وعلى نحو من الفساد النفسى الذى لا يكاد يصلح معه عمل ، فافتراض نجاح الملحد فى الحياة افتراض لصور قليلة ، ومع ذلك فإن للحياة قوانينها وقد طبّقت عليه ، أما افتراض أن يعمل الملحد الجاحد بربه عملا من أعمال الخير والبر والصلاح ، يستحق به ثواب الآخرة ، فهو افتراض لمالا يكاد يكون ، ولو أنه حدث لكان دليلا على اتجاه إلى الإيمان بدأ يراود نفس صاحبه ، وحينئذ يكون من عدل الله معه أن يحبّبه فيما اتجه إليه ، ولذلك ورد أن أعمال الخير تختم لصاحبها بخاتمة الخير ، فلو علم الله من إنسان صدقا وبرا واتجاها إلى فعل الخير ، وكان كافرا ، فإنه كثيراً مايوفقه إلى الإيمان ، وهذا على السنّة المستفادة من قوله تعالى « قل من كان فى الضلالة فليمدُدْ له الرحمن مَدّا »[1] « والذين اهتدَوْا زادهم هدى وآتاهم تقواهم »[2] .

* * *

(١) الآية ٧٥ من سورة طه

(٢) الآية ١٧ من سورة محمد .

الإحسان فوق العدل :

الأمر الثانى : من الأمرين المبشر بهما فى هذه الآية ، هو ما يدل عليه قوله تعالى : « وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيما » .

وهذا إحسان فوق العدل ، ولا تنافى بينه وبين العدل ، فالعدل يقتضى ألا يظلم العامل مثقال ذرة من جزاء عمله ، وهذا ما قرره الجزء الأول من الآية وسبق بيانه ، ولكن العدل لا يقتضى منع الزيادة فى جزاء الخير على سبيل الإحسان ، كما لا يقتضى منع العفو عن السيئة على سبيل الغفران ، وإذن فمقتضى « لا يظلم » ، غير مناف لمقتضى « يضاعف » .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن الله تعالى يعامل عباده بمقتضى الإحسان حين يجزى بالحسنة ، ولا يزيدهم عما يستحقون حين يجزى بالسيئة ، ومن ذلك قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يُجزَى إلا مثلَها ، وهم لا يظلمون[1] » ، « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم[2] » .

وقوله تعالى فى هذه الآية الأخيرة « والله يضاعف لمن يشاء » مثل قوله فى آية النساء : « ويؤت من لدنه أجراً عظيما » وذلك أن عطاءه تعالى واسع غامر من جهتين ، فهو أولا يضاعف الحسنة فيجعلها حسنات عشرا ليعطى الجزاء على عشر ، ثم هو يمنح بعد ذلك أضعافا كثيرة من لدنه لمن يشاء ، فآية البقرة تقرر ذلك حيث تقول : « يضاعف لمن يشاء » فلا تذكر مفعول « يضاعف » كما قالت سورة النساء « يضاعفها » ، ولكن سورة النساء تكمل

---

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة .

هذا المعنى فتقول « ويؤت من لدنه أجرا عظيما » فيدل قوله تعالى « من لدنه » على أنه يضاعفه غير مضاعفة الحسنة ، وأما تسمية ذلك أجرا فلأنه ملحق بأجر الحسنة تابع لها ، وإن كان « من لدنه » ، أى زيادة بدون مقابل .

معنى مضاعفة العذاب للمجرمين ،

وتبديل السيئات حسنات للمؤمنين :

ويرد هنا سؤال : إذا كان الله لا يضاعف السيئات ، ويضاعف الحسنات، فما معنى قوله تعالى : « والذين لايدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يَلقَ أثاما ، يُضاعَفْ له العَذابُ يوم القيامة ، ويَخلُدْ فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما [1] » .

فإن فى هذه الآيات « يضاعف له العذاب » ، ومضاعفة العذاب تتنافى مع قاعدة : « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » .

وفى هذه الآيات أيضا « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » وتبديل السيئات حسنات شىء غير مضاعفة الحسنات المفهوم من قاعدة « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » « وإن تك حسنةً يضاعفْها » .

والجواب - كالسؤال - يتألف من نقطتين :

الأولى : أن « مضاعفة العذاب » لم ترد فقط فى هذه الآيات من سورة الفرقان ، وإنما وردت فى عدة مواضع من القرآن الكريم ، ونحن نجمعها هنا لنعرف مواقعها المعنوية فيساعدنا ذلك على إدراك مَراميها وتَبَيُّن السر فى تلك المضاعفه على الذنوب فيها :

---

(١) الآيات من ٦٨ إلى ٧٠ من سورة الفرقان .

فى سورة هود : « الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ، أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يُضَاعَفُ لهم العذابُ ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون »[١] .

وفى سورة الأحزاب : « يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يُضَاعَفْ لها العذاب ضِعْفَيْن ، وكان ذلك على الله يسيراً »[٢] .

وفيها أيضاً : « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً »[٣] .

وفى سورة الأعراف : « قال ادخلوا فى أمم قد خلتْ مِن قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادّاركُوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال لكلّ ضِعْفٌ ولكنْ لا تعلمون »[٤] .

وفى سورة الإسراء خطاباً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ، إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيراً »[٥] .

وفى سورة (ص) : « قالوا ربنا من قدَّم لنا هذا فزده عذاباً ضِعفاً فى النار »[٦] .

---

(١) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة هود .
(٢) الآية ٣٠ من سورة الأحزاب .
(٣) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة الأحزاب .
(٤) الآية ٣٨ من سورة الأعراف .
(٥) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ من سورة الإسراء .
(٦) الآية ٦١ من سورة (ص) .

وهذه المواضع كلها تتحدث عن نوع خاص من الذنوب، هو الذنوب التى ليس ضررها قاصراً على المذنب فى نفسه، ولكنه يتعداه إلى غيره، لأنه قدوة أو متبوع أو متصد لإضلال غيره، فعليه إثمان: إثمٌ كسبه لنفسه، وإثمٌ احتمله بإفساد غيره.

وهذا هو شأن الصادّين عن سبيل الله الذين تذكرهم سورة هود، وشأن نساء النبى اللواتى هن فى مركز القدوة، وشأن السادة والكبراء الذين ضلوا وأضلوا، كما حدثتنا عن هؤلاء وأولئك سورة الأحزاب، وسورة الأعراف وسورة (ص)، أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله، فهو القدوة العظمى، وركونه إلى المشركين لو وقع فعلا — وحاشاه، فقد صانه الله وعصمه — لكان أكبر كارثة تحق على الدعوة، وتصيب صميم الإسلام، فماذا يحدث لو ضعف حامل لواء الدعوة، وسقط صريعاً أمام الشرك؟

وإذن فالمضاعفة، فى هذا كله إنما هى جزاء وفاق لذنب له صفة التكرر والتعدد وتجاوز النفس إلى الغير، وهذا على ما جاء فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» «وما من جريمة قتل نفس بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول وزرٌ منها» — يريد ابن آدم الذى قتل أخاه بغير الحق، فكان أول من سنّ هذه السنة السيئة — .

وآية الفرقان تتحدث عن ذوى جرائم مزدوجة فتقول: «ومن يفعل ذلك» والإشارة إلى ماتقدم من دعوة آله آخر مع الله. وقتل النفس بغير الحق، والزنا، وذلك أن الشرك ظلم للنفس، بمافيه من إضلالها، وسوءُ أدب فى حق الألوهية، وقتلُ النفس فيه هدم لبناء أقامه الله، وفيه اعتداء

على حق المقتول فى الحياة ، والزنا فيه تلويث لشرف الزانى ، وتلويث لشرف من زنى بها ، فالمضاعفة جزاء وفاق فى هذا كله ، وليس فيها ظلم ، ولا تجاوز عن سنة المجازاة بالمثل .

النقطة الثانية من نقطتى الجواب عن السؤال : أن تبديل السيئات حسنات جاء فى آية الفرقان جزاء على ثلاثة أشياء : التوبة ، والإيمان ، وعمل الصالحات ، وذلك قوله تعالى « إلا من تاب ، وآمن ، وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » فالتوبة تمحو الذنب ، والإيمان يمحو الشرك وَيَجُبُّه ، وعمل الصالحات حسنات مُنشَأة تحل مكانَ السيئات الممحوّة ، فبعد أن كان الشخص مشركا داعياً مع الله إلها آخر مرتكباً للفواحش ، تاب من شركه فآمن ، وتاب من عمله واستأنف أعمالا صالحة جديدة ، فحلت هذه مكان السابقة ، فهذا هو تبديل سيئاتهم حسنات ، وليس معناه أن الله يقلب السيئة نفسها ويغير حقيقتها إلى العكس ، فإن الحقائق لاتتغير ، وليس معناه كذلك أن الله يجزيهم عن السيئة جزاء الحسنة فإن الجزاء من جنس العمل ، ولكن المعنى كما أوضحنا أن التوبة تمحو السيئات ، والعمل الصالح الجديد يأتى مكان العمل السيء السابق ، وقد جاء بعد آية الفرقان هذه مايشبه أن يكون إشارة إلى هذا ، وذلك قوله تعالى « ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا » ، فمعنى « ومن تاب » : ومن رجع عن ذنبه واستبرأ منه وتطهر ، ومعنى « وعمل صالحاً » : استأنف جديداً من الصالحات بعد توبته وتطهّره ، ومعنى « فإنه يتوب إلى الله متاباً » فإنه يرجع بهذا إلى ربه رجوعاً قوياً مخلصاً ، فيكون أهلا لأن يقبل ويتحول بذلك من حال إلى حال .

*

وفى مواضع أخرى من القرآن الكريم : « ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة » .

« وإذا بدلنا آية مكان آية » « وليُبَدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمناً » وفى ذلك تصريح بمعنى التبديل الذى ذكرناه ، من أنه وضع شىء مكان شىء ، لا قلب الحقائق ، ولا قلب الجزاء على الأعمال .

* * *

الآية الثالثة : — من الآيات المبشرة —

« إن الله لايغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء — ٤٨ ، ١١٦ »

تقدم طرف من الكلام على هذه الآية ، وأنها جاءت فى سورة النساء مرتين فى موضعين :

وقد كان مجيئها فى الموضع الأول بين الكلام عن اليهود وما كانوا يرتكبونه من الأعمال فى سبيل مقاومة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ومحاربة دعوة الإسلام ، بتحريف الكلم عن مواضعه ، وبلَيّ ألسنتهم سباً للرسول وطعناً فى الدين ، وبتفضيل الوثنية على الإسلام حينما استشهدت بهم قريش .

هذا هو الموضع الأول الذى جاءت فيه هذه الجملة ، فهى تفيد فى موضعها هذا أمرين :

الأمر الأول : تهديدى إنذارى لليهود ، ويرشح له ماجاء قبلها مباشرة من دعوتهم إلى الإيمان بما أنزل الله ، قبل أن ينزل الله بهم لعنته كما لعن أسلافهم من أصحاب السبت ، وذلك ما جاء فى قوله تعالى : « يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا »

ويؤيده ما جاء بعد ذلك فى السياق نفسه من قوله عز وجل : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين

كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » .

فالآية تضع أمامهم هذه الحقيقة ، وهى أن الله قد يغفر الذنوب مالم تصل إلى الإشراك به ، وتفضيل أهل الجبت والطاغوت عليه .

والأمر الثانى : تبشيرى توجيهى ، فإن الله تعالى طلب منهم الإيمان فى الآية السابقة قبل أن تحلّ بهم اللعنة ، ولما كانوا قد ارتكبوا ذنوباً خطيرة منها اللىّ والطعن والتحريف والإضلال ، كان الشأن فيهم — وقد أوتوا نصيباً من الكتاب ، وعرفوا عاقبة اقتراف السيئات ومحاربة دعوة الحق — كان الشأن فيهم أن يظنوا فى دخيلة أنفسهم أنه لاتوبة لهم ، ولا يمكن أن يقبلهم الإسلام ولا رسول الإسلام بعد ما فعلوا ، فالله يغريهم بالرجوع والتوبة ، ويمهد لهم سبيل التراجع، ويطمئنهم على أنهم إذا رجعوا فهو خيرلهم ، فإن كل ذنب سوى الشرك قد يغفر ، وفى ذلك إيحاء لهم بأن يكفوا عن محاربة الدعوة ، ومقاومة الرسول فيجعلوا أنفسهم بذلك صالحين لأن يغفر لهم ماقد سلف من الإيذاء والمقاومة .

الشرك حجاب :

أما الموضع الثانى الذى جاءت فيه هذه الجملة ، فهو موضع الكلام عن مشاقة الرسول والخروج على سبيل المومنين بعد تبين الهدى ، وقد كان ذلك بعد إيراد قصة طعمه بن أبيرق ، ذلك الذى سرق الدرع واتهم بها اليهودى، فلما افتضح أمره فر إلى المشركين، ورضى بهم بدلا من النبى والمؤمنين ، وكانت آيات القصة قد ذكرت أن هذا المذنب « طعمة » ، والذين أيدوه وتآمروا على كتمان حقيقته عن الرسول ؛ لو أنهم استغفروا الله وتابوا من هذا الإثم، لوجدوا الله غفوراً رحيما ، فكيف يفرون من ذلك ، ويذهب مُقترفهم

إلى المشركين ، ويرضى بهم بديلا من المؤمنين ، مع أن الله يغفر الذنوب جميعاً سوى الشرك ، فقد فر من موقف يرجى له فيه الغفران ، إلى موقف لا يرجى له فيه ، وهو الشرك وإيثار المشركين ، فالجملة ذكرت فى هذا الموضع كقاعدة تنطبق على كل من يفر من ذنب فيقع فيما هو أعظم منه ، وفيها لون من التبشير بغفران كل ذنب لا يصل إلى حد الشرك .

وقد وردت فى ذلك أحاديث كثيرة مبشرة أىّ تبشير ، ومنها ما روى عن جابر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب » قيل : يانبى الله ، وما الحجاب ؟ قال: « الإشراك بالله » وفى الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : قلت « يارسول الله ، أى الذنب أعظم » قال « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » ، ومصداق ذلك قوله تعالى : « ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً » « إن الشرك لظلم عظيم[1] » « إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار »[2] .

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الله يقول : ياعبدى . ما عبدتنى ورجوتنى فإنى غافرٌ لك على ما كان منك ، ياعبدى إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة » .

وفى القرآن الكريم: « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم »[3] .

وينبغى أن يلتفت إلى أن غفران الذنوب الذى أوجبه الله على نفسه

---

(١) الآية ١٢ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٧٢ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

إنما يكون بالتوبة ، اما من لم يتب ومات على الذنب وكان مؤمناً ، فإن أمره إلى الله ، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه .

وفى هذا يقول صاحب الجوهرة :

ومن يمت ولم يتبْ مِنْ ذنبهِ فأمرُه مفـــوضٌ لربه

وبذلك يتبين أن الإسلام يملأ الناس رجاء ، ويحيى فيهم الآمال التى من شأنها أن تبسط إلى الأعمال ، وأن تدفع إلى النشاط ، وأن تربط بين العبد وربه برباط وثيق ، لا ينحلّ من قريب .

* * *

الآية الرابعة :

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما — ٦٤ » .

١ً — هذه الآية جاءت فى سياق الحديث عن الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل على الرسول وما أنزل من قبله ، ومع ذلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، فهؤلاء ينساقون مع الدوافع الشيطانية التى يزينها لهم أرباب الأغراض الخبيثة ، وأصحاب الدعوات المعارضة لحكم الله ، « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً » .

تمويه المتحاكمين إلى الطاغوت :

ومن شأن هؤلاء أن يزعموا أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت — أى بالخروج عن حكم الله إلى ماسواه — إلا الإحســـان والتوفيق ، فهم يعتذرون بذلك تمويها به على المؤمنين ، وتظاهراً بقصد السوء ، ولكنهم بهذا يظلمون أنفسهم ، ويتعرضون لما تأذّن الله أن يصيب به الذين يخرجون

على حكمه من مصائب الفساد والبؤس والشر ، ومن الفقر والآفات والأزمات ، وهذا ما أجملته السورة قبل الآية التى نحن بصددها إذ تقول :

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ، فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً ، أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا »[1] .

٢ ـ ولهذا اللون من اعتذار المتحاكمين إلى الطاغوت ، الخارجين على حكم الله ، شبيه بلون آخر فى عصرنا الحاضر ، حيث ترى بعض الدعاة إلى التخفف من أحكام الإسلام يقولون : نريد أن نبين للناس أننا نحكم بالمبادىء الحديثة ، وأن نعرف الأوربيين أن الإسلام لا يأبى التطور ، وأن نوفق بين ديننا وحضارتنا ، إلى غير ذلك من أساليب الاعتذار عن الخروج على حكم الإسلام .

والواقع أن الإسلام لا يأبى أى صلاح ، ولا ينفر من أية مدنية خيّرة مستقيمة الأوضاع ، لها أهداف شريفة ، وأحكامه كلها ، وتوجيهاته كلها ، ترمى إلى ذلك وتحققه على أحسن صورة ، ومن أقرب طريق ، فلا يصح أن يُتَعَلل بذلك للخروج عن أحكامه ، والتمسك بأهداب أحكام ما زال أهلها فى تجارب وتطور ، وهم يؤمنون بها حينا ، ويكفرون بها حينا ، حسَبَ الغلبة والتسلط والأوضاع السياسية ، لا المصالح الحقيقية ، ولا المنطق ، ولا العدل ، فكم رأينا من نظم وأحكام أقامتها السياسة والقوة ، ثم عادت فسقطت بالسياسة والقوة ، لأنها لم يكن لها سناد من العدل ، والحكمة ، والرحمة ،

---

(١) الآيات من ٦٠ إلى ٦٣ من سورة النساء .

كيف ندفع هذا التمويه :

وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يعرض عن هؤلاء الذين يعلم الله مافى قلوبهم ، وأن يعظهم ويقول لهم فى أنفسهم قولا بليغا ، وأن يسير فى طريقه ، فإن شاءوا أن يؤمنوا آمنوا ، وإلا فقد جنوا على أنفسهم ، وتعرضوا لعواصف القلق والاضطراب والتفكك والانحلال ، فذلك قوله تعالى : « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ، وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله »[1] .

وهذا نفسه هو السبيل لمحاربة هذه الدعوات التى تحاول أن توجهنا إلى حكم غير الله : علينا أن نعرض عن أصحابها ، فلا نولهم سمعنا ، ولا نوجه إلى دعواتهم قلوبنا واهتمامنا ، وعلينا فى الوقت نفسه أن نبين بالقول البليغ ، والعرض الجذاب ، والنصح الهادئ الرقيق، مالدينا من شريعة الله ، وأحكام دينه ، ومبادئ الإسلام وعقائده عامة، وسيرة الرسول وأصحابه الراشدين ، فإن الدعوة يجب أن تكون قائمة دائماً ، ذات صوت مسموع فى المجتمع ، ويجب أن تُتَعهد المبادئ والمثل فى الحين بعد الحين ، وإلا تعرضت لأرجاف المرجفين ، وتشويه المشوّهين .

وقد علمتنا التجارب أن المواظبة على البيان والكشف وإقامة الحجة ، والدفاع ضد هجمات أهل الباطل ، هو من خير الوسائل للمحافظه على قلوب الناس وعقولهم ، ولتحصين الشباب خاصة من بريق الدعوات الخلابة الخبيثة التى تعتمد على الرغبات والشهوات والتطلع إلى الحرية والانطلاق من القيود ، فى محاولاتها لإفساد الناشئة ، وجرّهم إلى حمأة الرذيلة والإلحاد .

---

(١) الآيتان ٦٢ ، ٦٣ من سورة النساء .

إنْ ينتهوا يغفرْ لهم ماقد سلفَ :

٣ — بعد هذا يأتى الجزء المبشر من الآيات وهو قوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما » .

واستغفار الله فى هذا يكون بالكف عن الخروج على حكمه ، واستغفار الرسول يكون بالرضوخ لسنته ، فالذين فى عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مكلفون بالقدوم إليه ، واستغفار الله لديه ، ليثبتوا أنهم عادوا ورجعوا عن طريقتهم وتابوا وأنابوا ، وعندئذ يتوب الله عليهم ويرحمهم فإنه تواب رحيم .

والذين يدعون بالدعوات المعارضة للإسلام أمامهم أيضاً هذا الباب المفتوح وهو باب الرجوع عن ذلك ، والإقلاع عن الصد عن سبيل الله ، وعن تزيين أحكام الطاغوت ، ورجوعهم يجب أن يكون ذا مظهر عملى يتبين به إقلاعهم وندمهم ، وذلك بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ومحاولة خدمتهما خدمة فيها صدق وإخلاص ، وفيها مثابرة وقوة ، إن الله تعالى يقبلهم إذا فعلوا ذلك ويغفر لهم ماضيهم فى محاربة الإسلام ، وفى الصد عن أحكام الإسلام ، ومُثُل الإسلام ، وفى الدعوة إلى حكم الطاغوت ، ومبادئ الطاغوت ، وفى ذلك ردٌّ لاعتبارهم الدينىّ ، وقبول لهم فى محيط المؤمنين : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما ، ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكراً عليما »[1] .

---

(١) الآيات من ١٤٥ إلى ١٤٧ من سورة النساء .

وبهذا يتبين أن الإسلام يتسع صدره حتى للذين قاوموه ، وعاشوا دهراً من حياتهم يناصبونه العداء ، وأن هؤلاء إذا أحسوا بخطئهم وظلمهم لأنفسهم ، فرجعوا معلنين التوبة ، مصلحين ما أفسدوا من قبل ، آخذين بكتاب الله وسنة رسوله ، فإنهم يجدون الله تواباً رحيما ، يرحمهم ، ويغفر لهم ماضيهم ، ويثيبهم كما يثيب المؤمنين .

وهذا تبشير عظيم ينفرد به الإسلام ، فلم يعهد أن دعوة من الدعوات تغفر للذين آذوها وصدّوا عنها ووضعوا العراقيل فى سبيلها ، ولكنه الإسلام وعدالته ، والله ورحمته ، والقرآن ومبدؤه المنصف السمح : قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف »[1] ، « فإن انتهوا فلا عُدْوانَ إلا على الظالمين »[2] .

* * *

الآية الخامسة :

« ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما — ١١٠ » .

وهذه آية عامة فى عمل السوء وظلم النفس ، بيان أن الله تعالى قد كتب على نفسه أن من استغفره وتاب إليه قبله ورحمه وغفر له .

تجاوب الرحمة الإلهية مع التائبين :

ومعناها واضح ، وفيما سبق كفاية لمن وعى ، غير أننا نوجه هنا إلى التعبير بقوله « يجد غفوراً رحيما » وقد جاء قبله أيضاً فى الآية السابقة « لوجدوا الله تواباً رحيما » ، وهو تعبير جميل ، فإن وجود الله على هذه الصفات أزلى

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

وليس متوقفاً على رجوع العبد وتوبته ، ولكن المراد هو وجدانهم الله كذلك ، أى معرفتهم بهذه الصفات فيه عن علم وثقة إذا توجهوا إليه تائبين مستغفرين ، كأنهم وجدوا شيئاً كان قد غاب عنهم .

ثم إن وجدان التائب لله هو تصوير بارع لتجاوب الرحمة الإلهية وحضورها رهن مشيئة من تاب واستغفر ، فالله يقول لعباده : أنا موجود على صفاتى من الرحمة ، والتوبة ، والغفران ، فلو جئتم إلىّ لوجدتمونى ، وكأنى أنتظركم ، وأرقب عودتكم « ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم »[1] .

* * *

الخلاصة : أن آيات التبشير

تفتح سبعة أبواب للرجاء :

بهذا كله يتبين أن هذه السورة الكريمة تبشر المجتمع تبشيراً عظيما ، وأن تبشيرها يفتح أبواباً سبعة من أبواب الرحمة الإلهية ، يتلخص الحديث عنها فيما يلى :

(١) الاعتراف بالحقيقة الواقعة فى شأن الإنسان ، وأنه خلق على هيئة وطبيعة تجعله يصيب ويخطىء ، ويأتى بالخير وبالشر ، ويصدر منه الصلاح والفساد ، وبأنه مخلوق ضعيف لا يمكن أن يحمّل فوق طاقته ، وأن يكلف ما يصيبه منه الحرج والضيق .

(٢) أنه تعالى قد شرع أحكامه على أساس ملاحظة ذلك ، فجاءت تكاليفه وشرائعه لمعاونة الإنسان والبيان له ، لا للتحكم فيه ولا للإثقال عليه ، وجاءت تكاليفه ميسرة مخففة بريئة من التشديد والإعنات والإرهاق .

---

(١) الآية ٦٠ من سورة النحل .

وجاءت معاملته للناس متمشية مع العدل ، والرحمة ، والفضل ، والإحسان .

(٣) أن الله تعالى لا ينقص أجر عامل ، ولا يبخس أحداً حقه ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .

(٤) أن الله تعالى يغفر الصغائر والهنات بمجرد البعد عن الكبائر أى عظائم الذنوب .

(٥) أن العبد إذا ارتكب الكبيرة لم يُقنطه الله من رحمته ، ولم يتركه يحتمل فى نفسه مرارة الشعور بأنه مطرود يائس ، ولكنه يدعوه إلى التوبة ، ويطلب منه أن يطرق بابها ، ويعده بأن يتقبل توبته الصادقة ، ولو تكرر منه الذنب ، وتكررت منه التوبة .

(٦) وأنه جلّ شأنه يرجّى عباده ترجية أخرى إذ يُنَبِّئهم أنه هو الغفور الرحيم ، وأنه يجوز فى حقه أن يغفر لأهل الكبائر ولو ماتوا دون أن يتوبوا ما داموا غير مشركين .

(٧) أنه تعالى يضاعف الحسنة فيجعلها عشر أمثالها ، ثم يضاعف الجزاء لمن شاء أضعافاً كثيرة لا تقف عند حد .

* * *

كل ذلك يحيي الآمال ، ويفتح أمام المؤمنين آفاق الرجاء ، ويدفعهم إلى العمل خفافاً غير مُثقَلين بشعور الأثم ، ولا مُكَبَّلين بأغلال اليأس .

فسبحان ربنا العليم الحكيم ، التواب الرحيم ، ذى الفضل العظيم . « له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون »[1] .

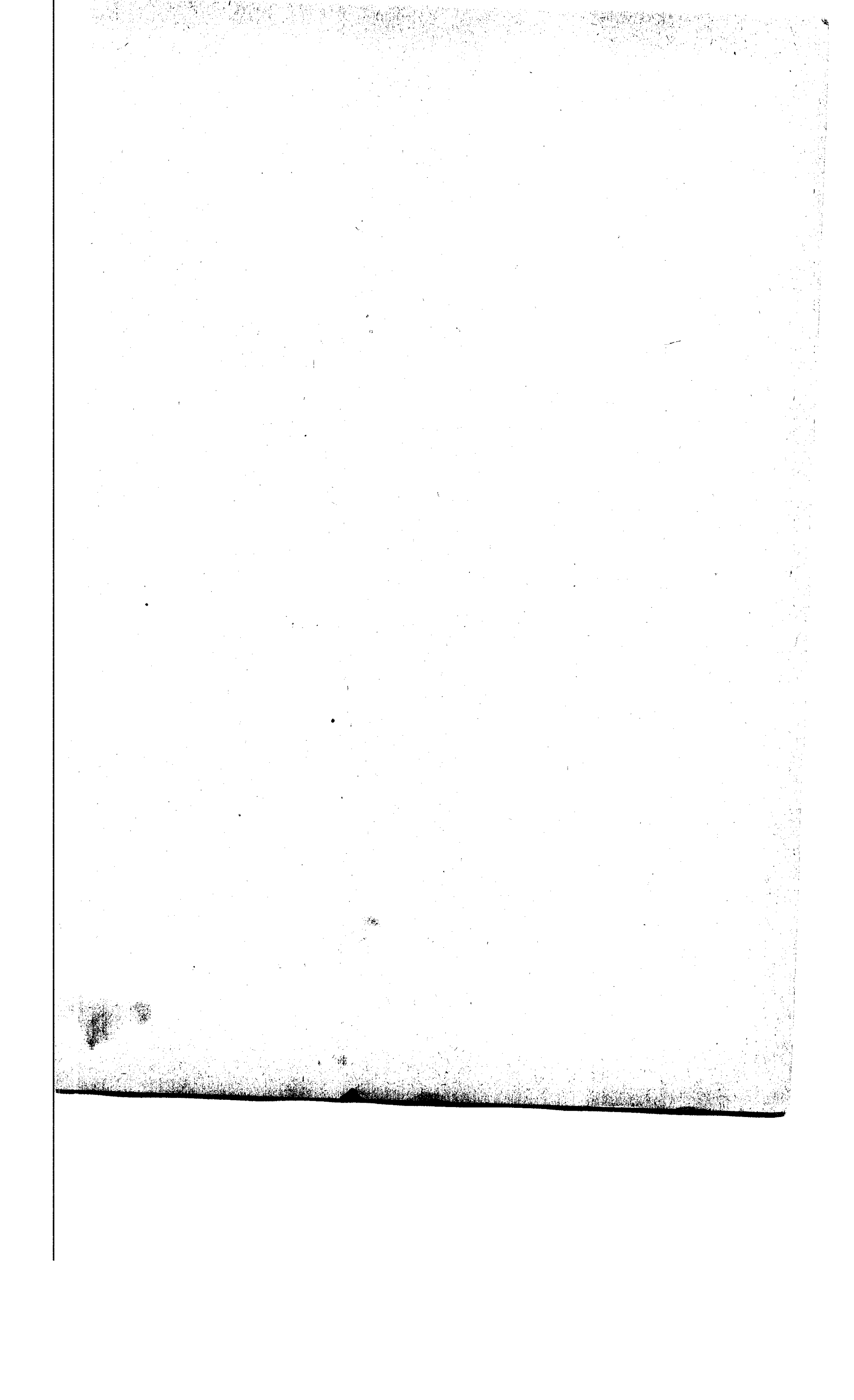
---

(١) الآيه ٧٠ من سورة القصص .

القسم الثاني

أهم الأحكام

التى تضمنتها « سورة النساء »



١ ــ أحكام اليتامى

عُنى القرآن الكريم فى مكيّة ومدنيّة باليتامى ، ولكننا نستطيع أن نقول : إن سورة النساء كانت هى أبرز سور القرآن الكريم فى هذا الشأن .

وذلك أن السور المكية التى عرضت لليتامى إنما كانت تعرض لهم من جانب تربية العطف عليهم فى نفوس الناس . والتحذير من إهانتهم ، ونحو ذلك ، نعم إنها وصلت فى هذا إلى حد أن جعلت دَعَّ اليتيم مَظهراً من مظاهر التكذيب بالدين : « أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم »[١] ولا يحض على طعام المسكين »[٢] . وإلى أن صوّرت الإنسان وبينه وبين الغاية السعيدة عقبةٌ عليه أن يقتحمها . وجعلت من صور اقتحام هذه العقبة إطعام اليتيم فى وقت الشدة : « وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ؟ فكُّ رقبة ، أو إطعامٌ فى يوم ذى مَسغبة، يتيما ذا مقربة، أو مسكيناً ذا متربة »[٣] وإلى أن ذكرت الرسول فى أول عهده بماضيه حين كان يتيما فآواه الله ، وضالا فهداه ، وعائلا فأغناه ، ونهته لذلك أن يقهر يتيما ، أو ينهر سائلا ، أو يكتم نعمة : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث »[٤] .

ولكن هذا كله لم يخرج عن التوصية باليتيم ، وإثارة عاطفة الناس إليه ،

---

(١) أى يدفعه بعنف وجفوة .

(٢) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة الماعون .

(٣) الآيات من ١٠ إلى ١٦ من سورة البلد ــ والمسغبة : الجوع ، والمتربة : الفاقة والفقر ، وهو تصوير المسكين بأنه لاصق بالتراب .

(٤) الآيات من ٦ إلى ١١ من سورة الضحى .

وتوجيهم إلى الإحسان به ، كما وجهوا إلى الإحسان بغيره من المسكين ، وابن السبيل ، والأسير . . . الخ ، وكذلك فعلت بعض السور المدنية ، مثل سورة الإنسان التى تقول : « ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيما وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا »(١) .

ولم يتعرض من السور المكية لمال اليتيم إلا سورتان ، هما سورة الأنعام ، وسورة الإسراء ، وكلتاهما نهت عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، ضمن ما جاءت به من وصايا : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده »(٢) .

أما سورة البقرة ، وهى مدنية ، فقد عرضت لليتامى على أسلوب ما نزل بمكة ، فوجهت إلى العطف عليهم فى مثل قوله تعالى : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين »(٣) ثم أمرت فى شأن اليتامى بقانون عام إجابة على سؤال سأله المسلمون ، وهذا القانون العام هو ابتغاء الإصلاح لليتامى ، والتخفيف عن الناس بنفى الحرج من مخالطتهم ما دام القصد هو الإصلاح : « ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاحٌ لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم »(٤) .

أما سورة النساء ، فهى السورة التى عنيتْ بالتشريع لليتامى ، وجعلت المجتمع متكافلا فى القيام على أموالهم ورعاية شئونهم ، كما سيتضح مما يأتى :

* * *

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الإنسان .
(٢) الآية ٣٤ من سورة الإسراء ، والآية ١٥٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٧٧ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة .

٢ — إن أول ما عنيت به سورة النساء من الأحكام ، هو أحكام اليتامى ، فقد جاء ذلك من أول الآية الثانية من آيات السورة ، ولم يسبقه إلا تقرير مبدأ المساواة العامة بين أفراد المجتمع .

وهذا أمر طبيعى منطق ، فإن اليتيم هو أضعف اللبنات فى بناء المجتمع ، فمن حقه أن تسبق العنايةُ به كلَّ عناية بمن سواه ، وليس من الحكمة أن يُهتم أولا بالقوىّ الذى يستطيع أن يباشر شئون نفسه ، وأن يدافع عن حقه ، ويُؤخَّر الاهتمامُ بالضعيف الذى لا يملك وسائل الدفاع والتدبير .

والتشريع الذى جاءت به السورة فى شأن اليتامى ؛ يرجع إلى ما يأتى :

(١) حفظ أموال اليتامى :

(٢) إصلاح هذه الأموال بالقيام عليها ، وحسن التدبير لها .

(٣) الإنفاق على اليتامى من أموالهم ، والعمل على أن يكون هذا الإنفاق من ربحها وثمراتها ، لا من أصلها ورأسها .

(٤) إصلاح اليتامى فى أنفسهم بتربيتهم تربية صالحة قائمة على تكريمهم والاعتداد بشخصيتهم وتعليمهم كل ما به يكونون مواطنين صالحين ، وأعضاء فى المجتمع نافعين .

(٥) ارتسام النوايا الصالحة فى جميع شئون اليتامى ، أى الإخلاص لهم فى رعاية أموالهم وأخلاقهم ومصالحهم بحيث لا تنطوى النفوس على نية اغتيال أموالهم ، ولا مبادرتهم بتضييعها قبل أن يكبروا ، ولا الخروج عن المعروف فى تقاضى أجور أو نفقات للأوصياء منها ، وبحيث يكون الوصىّ بالنسبة لليتيم كأنه أبوه أو رائده المخلص الذى لا همّ له إلا أن يوفر له جميع أسباب الصلاح المادىّ والأدبى ، والتربية القويمة .

(٦) الإشهاد عند دفع الأموال إلى اليتامى بعد بلوغهم الرشد .

* * *

هذه هى النواحى التى دارت حولها أحكام اليتامى فى سورة النساء إجمالا ، فلنتتبع ذلك بشىء من التفصيل :

(١) حفظ أموال اليتامى :

يقول الله تعالى فى الآية الثانية من سورة النساء : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوبا كبيرا » .

ا — وقد اختلف المفسرون فى المراد بالأمر الأول فى هذه الآية ، وهو قوله تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم » فمنهم من قال : إن المراد إيتاء اليتيم ماله حين يبلغ سنَّ النكاح ، ويُؤْنَسُ منه الرشدُ ، وعلى هذا فالإيتاء هو الإعطاء ، أى تسليمهم الأموالَ ودفعُها إليهم ، وقد احتاج أصحاب هذا التفسير إلى أن يُؤَوِّلوا معنى « اليتامى » بما يتفق وتفسيرهم ، فقالوا : إن لفظ اليتامى هنا مجاز مرسل ، والمراد به الذين كانوا يتامى ، وذلك لأنهم حين تُدفع إليهم الأموالُ لا يكونون يتامى ، بل يكونون بالغين راشدين ، وأيَّدوا ذلك بأن هذا اللون من التعبير باليتامى عن الكبار الراشدين معروفٌ عند العرب ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقال له « يتيم أبى طالب » استصحاباً لما كان .

وهذا التفسير فى نظرى ليس بجيد ، لأن هذا المعنى سيأتى فيما بعد ، إذ يقول الله عز وجل : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » وعلى هذا يكون فى الكلام تكرار لمعنى واحد مرتين فى آيتين متقاربتين ، أضف إلى ذلك ما فى هذا التفسير من تكلف تأويل اليتامى بالذين كانوا يتامى ، مع إمكان حمل اللفظ على معناه الحقيقى كما سيأتى فى الوجه الذى نقرره .

ومنهم من قال : إن المراد بقوله « وآتوا اليتامى أموالهم » هو إجراء النفقة على اليتامى من أموالهم ماداموا تحت الولاية ، فهو بمثابة أن يقال للأولياء : أنفقوا على اليتامى من أموالهم ، أو آتوهم أموالهم بإنفاقها عليهم طعاماً وكسوة ونحو ذلك .

وهذا المعنى أيضاً لا أرتضيه ، لأنه سيأتى فيما بعد ، حيث يقول جل شأنه « وارزقوهم فيها واكسوهم » ، ولا داعى لأن نفسر الإيتاء بمعنى يقتضى نسبة التكرار إلى هذه الآيات المشرّعة لأحكام اليتامى ، فليس من شأن مواد التشريع أن تتكرر ، فيؤتى بالحكم الواحد مرة فى مادة ، ومرة فى مادة أخرى ، وهذا مع أنه لا يقال آت فلاناً ماله بمعنى أنفقه عليه ، إلا على ضرب من التكلف والتخريج .

هذان هما الرأيان اللذان فسربهما الأمر فى هذه الآية بإيتاء اليتامى أموالهم .

وعندى أن لفظ « اليتامى » باق على حقيقته ، والمراد بإيتائهم الأموال هو تمليكهم إياها ، والاعتراف لهم بميراثهم الذى ورثوه ، وحفظه لهم نيابة عنهم ، فقد كان العرب لا يُوَرِّثون إلا كبارَ الأولاد ، أما اليتيم الذى فقد أباه وهو صغير فلا يورثونه من المال شيئا ، ويقولون لا يرث إلا من يحمل السلاح ويقاتل ، ويدافع عن العشيرة ، فأمَرَ الله تعالى بإبطال ذلك ، وبأن يُؤتى كل ذى سهم فى الميراث سهمه ، فالأموال أموالهم استحقوها بحكم صلتهم بآبائهم أو أمهاتهم أو أقاربهم فهى مملوكة لهم لا يجوز أن يسلبهم إياها أحد ، ولا يجوز أن يُمنعوا تملكها ، وكلّ مافى الأمر على هذا التفسير أن قوله « وآتوا » ليس هو الإيتاء الفعلى أى دفع الأموال إليهم ، وإنما هو الإيتاء التمليكى ، إلى أن يستحقوا تسلمها والتصرفَ فيها بأنفسهم ، وهذا

المعنى قريب ، فإنك تقول آتيت فلاناً حقه ، وإن كان الذى قبض هذا الحق وكيله أو نائبه أو وصيه .

فهذا هو الحكم الأول ، وهو حفظ المال على اليتيم ، أى حفظ حقه فى تملكه وأن يُحاز عنه . ويُقبَض له ، وإبطالُ ما كانوا يفعلونه من حرمانه ، واقتسام التركة دونه .

٢ — وقوله تعالى « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » حكم ثان من أحكام الحفظ ، ينهاهم عن أخذ الطيب من أموال اليتامى لأنفسهم وتبديلهم به ما هو خبيث ، وقد كانوا يفعلون ذلك ، فكان الوصى ربما أخذ من مال اليتيم الشاة السمينة ، وأبدله بها شاة هزيلة ، فهو يحفظ العدد ، ويختلس فى الصفة ، وذلك يحدث فى زماننا أيضاً ، فإن بعض الأوصياء يبدّلون أرضاً بأرض ، أو بيتاً ببيت ، لا يريدون بذلك مصلحة اليتيم ، وإنما يريدون مصالحهم الخاصة مع ما فى ذلك من ظلم اليتيم والحيف عليه فى ماله .

فكما أمر الله تعالى فى الحكم الأول بإيتاء اليتامى أموالهم ، وحفظها عليهم أصلا وملكا ، نهى فى الحكم الثانى عن التحايل على نقصها باختلاس الجيّد منها ووضع الردىء مكانه .

٣ — وقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » حكم ثالث ، نُهى فيه الأوصياء أن يضمّوا أموال اليتامى إلى أموالهم ثم يشتركوا فى الانتفاع بها على وجه يكونون فيه هم الفائزين بالقسط الأكبر من النفع ، فمعنى « الضم » يفهم من التعبير بقوله : « إلى أموالكم » أى مضمومةً ، ومعنى انتفاع الأوصياء بالقسط الأكبر ، يفهم من إسناد الأكل إليهم وتعديته إلى أموال اليتامى ، لأن اليتامى لو كانوا هم الأكبر قسطاً ، والأكثر انتفاعاً

وإفادةَ من هذا الضمّ ، لكانوا هم الآكلين أموالَ الأوصياء ، أى أنهم أكلوا مالهم وازدادوا من مال غيرهم .

٤ — وقوله تعالى : « إنه كان حوباً كبيراً » راجع إلى كل واحد من الثلاثة السابقة : فأكل مال اليتامى بحرمانهم من نصيبهم فى الميراث حوبٌ كبير ، أى إثم عظيم ، وتبديل الخبيث بالطيب من أموالهم حوب كبير ، وخلط أموالهم تحايلا على الجور فيها ، والحيف عليها ، حوب كبير .

وقد شدّد الله النكير على من يفعل ذلك ، فجاء فى سورة النساء : « إن الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً »[1] وجاء فى سورة الأنعام المكية : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشُدّه »[2] .

ولذلك خاف المسلمون خوفاً شديداً من هذا التهديد وتحرّجوا من معاملة اليتامى ، ومن مخالطتهم فى الطعام والشراب ، وقد روى عن ابن عباس ، وسعيد بن جُبير ، وعطاء ، وقتادة : أنه لما أنزل الله تعالى قوله « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » وقوله « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا » انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه ، وشرابه عن شرابه ، فجعل يَفْضُل له - أى لليتيم - الشىءُ من طعامه ، فيُحبَس له حتى يأكله أو يَفسد فيرمى به ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله تعالى قوله فى سورة البقرة : « ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير ،

---

(١) الآية ١٠ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٥٢ من سورة الأنعام .

وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح »[١] فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم[٢] .

* * *

(٢) إصلاح أموال اليتامى والسفهاء :

ويقول الله عز وجل : ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » .

١ — وقد اختلف المفسرون فى المراد من « السفهاء » فى هذه الآية ، وذلك أن المعنى الأصلى للسفه فى اللغة ، هو خفة البدن ، ضد الثقل والرجاحة ، ولما كانت خفة البدن يتبعها كثرة الحركة والاضطراب ، بخلاف الثـقـل الذى يتبعه الثبات وقلة الحركة ؛ فقد أخذوا من السفه صيغة للمضطرب فى رأيه وفكره ، أو فى تصرفه وأخلاقه تشبيها له بالمضطرب فى حركاته لخفة بدنه ، فقالوا « سفيه » كما أخذوا للراجح عقلا ، المنضبط فكراً وتصرفا ؛ وصفا من الرجحان والوزانة والرزانة فقالوا « رجيح » و « ووزين » و « رزين » تشبيها له بالراجح وزنا وجسما .

هذا فى اللغة والاستعمال المبنى عليها ، وقد رأى المفسرون أن هذا المعنى ـ وهو الخفة فى الرأى والفكر ، واضطراب التصرف ـ من شأنها أن تكون فى الصغير ، لأن الصغر هو فترة نقص التجارب ، وضعف الرأى ، ومن شأنها أيضا أن تكون فى الضعيف عقله بجنون ونحوه ، فلذلك قال بعضهم إن المراد بالسفهاء الصبيان عامة ، والمجانين وأشباههم .

إلا أنه قد ورد فى بعض الآراء أن المراد بالسفهاء مايشمل النساء ،

---

(١) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة .

(٢) ص ٢١٠ ج ، من تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائى طبع مطبعة الحيدرى بطهران

وهذا غير مقبول ، لأن القائلين به متأثرون بأن المرأة كائنة ما كانت ، سيئة التصرف بطبيعتها ، والحقيقة أن سوء تصرفها أحيانا أو نقصه ، إنما يرجع إلى أنها لم تكتسب من التجارب مثل ما يكتسبه الرجل ، بسبب بعدها واحتجابها ، فليس ذلك نقصاً طبيعيا فيها حتى يقال إن لفظ السفهاء يشمل النساء عامة ، فكم من امرأة بذّت الرجال علما وعقلا ورجاحة وحسن تصرف ، ولو كانت « الأنوثة » تصلح علة للحجر ، ومظهراً للسفه ، لكان الإسلام منع المرأة دائما من أن تتصرف فى مالها ، لأن الأنوثة صفة ملازمة لها ، ولكنه على العكس من ذلك أعطى المرأة حريتها التامة فى التصرف المالى ، واعترف لها بحق الملك ، والبيع ، والشراء ، مهما كانت الصفقة ، وسواء أكانت المرأة متزوجة أم غير متزوجة ، وإذن فالقول المشار إليه لايعتد به لمنافاته لمبدأ الإسلام فى ذلك ، وإنما الأنثى فى هذا كالذكر ، فكما لا يعد الذكر سفيها إلا إذا كان صغيرا أو مجنونا أو معتوها ، فكذلك لا تعد الأنثى سفيهة إلا إذا كانت صغيرة أو مجنونة أو معتوهة .

فليبق هذا معنا فقط ، ولنطرح القول بأن النساء من السفهاء .

٢ — وقد اختلفوا فى هذا الموضع أيضا من جانب آخر : هل المراد بالسفهاء فى هذه الآية اليتامى فحسب ، أو السفهاء عامة ولو كانوا غير يتامى ؟

وسبب هذا الاختلاف أنهم رأوا الآية تقول : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » ، فتجعل الأموال أموال المخاطبين ، ولذلك قال بعضهم : إن هذا حكم عام ، فليس للناس أن يؤتوا أموالهم لصغارهم أو من عرفوا من أبنائهم بسوء التصرف ، لأن هذه الأموال غالية ذات قيمة ، وهى قيام الناس

وقيامهم ، أى عليها يدور أمرهم فى الحياة وبها يقومون وتقوم معايشهم ، ويترتب صلاحهم .

ولكن هذا المعنى - وإن كان حسنا فى ذاته ، وموافقاً لأحكام الشريعة وأهدافها فى حفظ الأموال عامة - لكنه غريب عن السياق الذى سيق له الكلام ، فالحديث إنما هو عن اليتامى وأحكام اليتامى ، ولذلك يقول آخرون : إن المراد النهى عن تمكين اليتامى من أموالهم ومنحهم حقّ التصرف فيها ، ويتبع ذلك أن يكون على هذه الأموال أوصياء يحفظونها ، ويدبرون إصلاحها ، وإنما اختير التعبير بالسفهاء بدل التعبير باليتامى ، للإيحاء بالعلة التى من أجلها اعتبر الحجر ، وهى السفه .

٣ - واختلفوا أيضا فى المراد من قوله تعالى « أموالكم » فقيل : المراد أموال المخاطبين بالكلام ، وهذا يتلاقى مع الذين يقولون إن الحكم عام فى الصغار سواء أكانوا يتامى ، أم كانوا ذوى آباء - وقيل المراد أموال اليتامى أنفسهم ، وإنما عبر عنها بقوله « أموالكم » إيحاء بأن مال اليتيم هو مال المجموع ، وأنه يجب إصلاحه والمحافظة عليه بهذا الاعتبار أيضا ، لا بمجرد أنه مال أفراد ضعفاء لا يحسنون التصرف .

والمعنى الأخير أجود وأقرب إلى القبول .

ولكنّ هناك معنى ثالثا يظهر لى : وهو أن الله تعالى يقول : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » ، فيخاطب بذلك الأوصياء ، مفيداً أن الأموال التى تُسند إليهم نوعان : أموال لهم ملكا ، وأموال لهم تصرفا وقياما ، فالأولى أموال اليتامى التى يقومون عليها ، فمعنى « التى جعل الله لكم قياما » ، التى جعلها الله لكم ، أى تحت أيديكم ، على جهة القيام بها ، والإصلاح لها ، والتصرف باسم اليتامى فيها ، لا على جهة المِلْكية

والاختصاص وهذا المعنى له إيحاءان :

أحدهما : أنه يدل على أن الله تعالى يريد أن يوجه الأمة إلى أن تعتبر أموال اليتامى شبيهة بالأموال العامة ، التي لا يجوز المساس بها ، ولا التفريط في إصلاحها ، وتدبير أحسن الوجوه لها ، وهذا قد تقدم في القول الثاني .

والآخر : أن الله تعالى يوحي إلى الأوصياء بأن يعتبروا هذه الأموال أموالهم من حيث الحرص عليها ، والإخلاص في إصلاحها ، وألا ينسوا في الوقت نفسه أنهم قُوّام عليها لا مالكون لها ، وذلك يدعو إلى التحرج من أخذ شيء منها على أي وجه ، وبذلك يقف الوصي من مال اليتيم موقفين خالصين لمصلحة اليتيم ، موقفَ المخلص لهذه المصلحة كأنها ماله ومصلحته الخاصه ، وموقفَ المتحرّج من التماس أي مصلحة له ، لأنه مجرد قيّم ووصيّ .

* * *

(٣) الإنفاق على اليتامى والسفهاء :

ويقول الله عز وجل : « وارزقوهم فيها واكسوهم » ، والرزق إذا أسند إلى الناس ، هو إجراء النفقه المرتبة في أوقات معلومة ، يقال : يرزق الأمير جنده كل شهر كذا ، أي يُجرى عليهم ذلك .

والله تعالى يأمر بأن يُجرَى على اليتامى ما يصلحهم من المال في مختلف شئونهم من طعام وشراب ومسكن وتعليم ورياضة ومداواة ونحو ذلك ، فإن لفظ الرزق عام ، وإنما خصّ الكسوة بالذكر لأنها مظهر العناية التي يراها الناس ، فقد يأكل اليتيم أكلا حسناً ، ويُراعى في سائر شئونه ، ولكنه لا يظهر بمظهر حسن نظيف في ملابسه ، فيؤخذ من هذا المظهر أنه غير مكرّم ، أو أنه مُهمَل ممن يرعاه ، والملابس والزينة في كل زمان

هي مظهر العناية والتكريم ولا سيما بالنسبة للصغار ، ثم إن اليتيم إذا تعود أن يلبس الملابس الحسنة أحس بكرامته وقيمته وغطى ذلك على ما عسى أن يراوده في نفسه من أنه يتيم ، فكان ذلك علاجا نفسياً له ، فهذا هو السر في تخصيص الكسوة بالذكر من بين جميع نواحي الرزق والإنفاق .

والآية تعبر بلفظ « فيها » لإفادة أن الوصى مطالب بأن يعمل على أن تكون النفقات التي تنفق على اليتيم مما يثمره المال ويربحه ، لا من أصله ورأسه ، فعلى الأوصياء أن يتجروا لهم ، أو يشتروا من الأرض أو نحوها ما يدر لهم ربحاً وكسبا مناسبا ، وألا يتركوا رءوس أموالهم معطلة فتأكلها النفقات وتأتي عليها بعد حين .

ولو كان التعبير : وارزقوهم منها ، لما أفاد المعنى الذي شرحناه ، وفي ذلك يقول صاحب الكشاف : « وارزقوهم فيها واكسوهم » أي اجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا ، حتى تكون نفقتهم من الأرباح ، لا من صلب المال . فلا يأكلها الإنفاق . اه .

وهذا المعنى المستفاد من الآية قد أشارت إليه السنة المطهرة ، فقد روى الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب الناس فقال : « ألا مَنْ وَلِي يتيما له مالٌ فليتَّجِرْ فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة » أي الزكاة .

فإذا كانت الزكاة التي هي ربع عشر المال مؤدية إلى ذهاب المال بعد حين ، فإن الإنفاق أظهر في ذلك وأدنى إلى تضييعه ، ولذلك يجب تثمير المال وتحريكه .

(٤) بمَ نُصلح اليتامى ،
ومتى ندفع إليهم أموالهم

ويقول الله عز وجل « وقولوا لهم قولا معروفا ، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم » .

١ – يأمر الله تعالى بتربية اليتامى تربية حسنة حتى يكتسبوا شخصية قوية فى الحياة ، وذلك يكون بأمرين :

أحدهما : إحسان مخاطبة السفيه واليتيم بالقول الحسن الذى تعرفه البيئات الكريمة ، والنفوس المهذبة ، فإن ذلك له تأثيره الطيب فى تطييب القلوب ، وتكوين الأفراد ، وتنشئتهم على خلق الاعتداد بأنفسهم ، والشعور بأن لهم قيمة ذاتية ، والصبىُّ إذا رأى مَنْ حوله مهتمين به ، يعاملونه معاملة كريمة ، ولا يخرجون فى مخاطبته ولو حين العقوبة والتأديب ، عن حدود الكرامة والأدب العالى ، فإنه يطيب بذلك نفسا ، ويتوجه إلى تكميل نفسه ، ويعلم أن الأمل معقود عليه ، وقُلْ مثل ذلك فى السفيه ، فإن كثيراً من الناس يخطئون إذ يعاملونه بروح السخرية والإهمال والإهانة ، فيزيدون بذلك عقدته النفسية تمكنا ، ويهيجون عليه أعصابه ، فيظل فريسة لمرض « فقدان الشخصية » ، فالقرآن يرشد إلى أن الأولى والأقرب إلى إصلاح المحجور عليه ، لسفه أو صغر ، أن يعامَل معاملة كريمة ، وأن يقال له القولُ المعروف ، فإن فى ذلك صلاحه أو – على الأقل – احترام شخصه ، والإبقاء على كرامته . والابتعاد عن مضاعفات شعوره بالنقص .

وبهذا يتبين أن القول المعروف هنا هو كل ما به تصلح نفس

اليتيم أو السفيه ، ولا حدّ لذلك ، ولا ألفاظ معينةَ تُطلبُ فيه ، والمفسرون حين يذكرون ألفاظا خاصة فى ذلك لا يريدونها بذاتها ، ولكنهم يذكرونها على سبيل التمثيل لما يقال ، ومن ذلك وعدُه بأن يعطَى ماله حينما يكبر ويرشد ، وتعريفه بأن المال محفوظ له ، وبأن الوصى لا يبغى التحكم فيه ، وإنما يعمل لصالحه ، ومن ذلك نصحه وتهذيبه ... الخ .

ولا شك أن رعاية الصبى والسفيه وتطييب نفسيهما بالقول المعروف ، يجب ألا تخرج إلى حد التدليل فإن التدليل مفسد ، ولهذا جاء التعبير بالمعروف ، وهو ما يعرفه أهل اللباقة والتربية والتجربة السليمة فى معاملة أبنائهم أو تلاميذهم أو مريديهم ، من كل ما فيه إيناس وتوجيه ، دون ميل إلى ناحية الإفراط أو التفريط .

الثانى : تربية اليتيم تربية عملية بتعويده مباشرة بعض شئونه ، والتدرج به فى ذلك على سبيل الاختيار والابتلاء ، فإذا كان فتى أُعطِىَ بعض المال الصالح للنفقة فى وقت معلوم ، لينظر كيف يدبر إنفاقه ، وإن كان فتاة عُلمت كيف تقوم على شئون البيت فى بعض الأوقات ، وهكذا .

إن التجربة العملية هى الفرصة التى تهيء للقاصر أن يتعلم ، وأن يجبر قصوره ، وإن الأخطاء التى تقع فيها لا بأس بها ، فهى تعلم صاحبها ، وتعرّف وليه بأسباب النقص حتى يعالجها .

وقد يكون من ابتلاء الوصى لليتامى وتعويدهم الحياة العملية ، أن يجعلهم فى بعض أوقاتهم معه ، وأن يحضرهم معاملاته وبيعه وشرائه وعقوده ونحو ذلك ، وأن يلفتهم إلى الأعمال ، وإلى المتاجر ، وإلى المصانع ، ويرحل بهم أحيانا إلى بعض البلاد والنواحى التى يفيدون من الرحلة إليها . . وهكذا من كل ما يُبَصِّرهم بشئون الحياة ، ويكوّن ثقافتهم العملية ، ويوجههم إلى احتذاء الصالح ، واجتناب الفاسد .

٢ — وقد ذكرت الآية بعد الأمر بالتربية والإصلاح الوقت الذى تُدفع إليهم أموالهم فيه ، فبينت أنه هو الوقت الذى يبلغون فيه سنّ النكاح ، مع تبين أنهم أصبحوا راشدين محسنين للتصرف فى أموالهم .

أما سنّ النكاح فهى البلوغ والاحتلام ، وقد عرف من أطوار الحياة الإنسانية أن هذه السن يصاحبها الرشد عادة ، ويصبح الإنسان فيها ذا شخصية كاملة ، ولذلك يوجه إليه التكليف ، ويُعقد له الحساب ، ويطالب بما يطالَب به الراشدون المالكون لأمر أنفسهم .

وأما إيناس الرشد ، فإنما اشتُرط مع سن البلوغ والنكاح ، لأن بعض الأفراد قد يبلغون سفهاء غير راشدين وقد يسبق النضجُ الجسمىُّ النضجَ العقلى ، فترى شخصاً قوياً فى بنيته صحيحا فى أعضائه ، بالغا مبلغ الرجال أو النساء فى جسمه وتكوينه ، ولكنه على ذلك غير قوى فى تصرفه ، ولا راشد فيما يزاول من عمل ، فلهذا كان من الحكمة الاحتياط قبل تسليم المال لليتيم ، وإلا ضاع الجهد الذى بذل من قبل فى حفظه وتنميته .

وبعض المفسرين يفسر الرشد المراد بما يشمل الصلاح فى العقل والدين ، وأخذ من ذلك بعض الفقهاء أنه يجب الحجر على من كان فاسقاً فى دينه ، ولكن آخرين من الفقهاء لا يرون الحجر على الفاسق ، وذلك هو الأظهر فإن الله يقول « فإن آنستم منهم رشداً » فى مقام الابتلاء والاختبار ، ولا صلة لذلك بمقام التقوى أو الفسق ، ثم قد جاءت كلمة « رشداً » منكرة لإفادة أن المراد نوع من الرشد ، وذلك هو الرشد فى الأموال وإدارتها وحسن تصريفها ، وليس هو الرشد بمعنى التقى والاهتداء .

نعم إذا كان الفاسق عربيداً مسرفا على فسقه ، مبذراً مضيعا ماله فى أبواب الفجور ، فإنه يكون بذلك سفيها ويجب الحجر عليه ، ولكن

هذا ليس لمجرد الفسق، وإن كان الفسقُ يسقط منزلته الأدبية ، ولكن للتبذير والسفه ، وكم من مُلابس لأنواعٍ من الفسق ، ولكنه فى المال وإدارته وإصلاح شأنه راشد ، وكم من صالح تقى قائم بما يجب عليه فى دينه ، ولكنه قاصر فى شئون المال محتاج إلى أن يُحجر عليه .

فالخلاصة أن الرشد المقصود فى الآية هو ما يتعلق بالمال وإحسان التصرف فيه ، وإدارته على وجه سليم فيما يعرف الناس ، وفيما تجرى به العادة .

* * *

(٥) ارتسام النوايا الطيبة

فى شـــئون اليتامى :

ويقول الله عز وجل : « ولا تأكلوها إسرافاً وبِداراً أن يَكبَرُوا ، ومن كان غنياً فليستعففْ ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » .

١ً — ينهى الله تعالى عن لون من ألوان التضييع لأموال اليتامى ، وذلك هو ما نراه من مبادرة بعض الأوصياء أموالَ اليتامى بالإنفاق على وجه التبذير والإسراف ، حتى إذا كبروا لم يجدوا لهم مالا ، والذين يفعلون ذلك من الأوصياء لهم أهداف خبيثة ، منها أن أحدهم يكره أن يرى اليتيم فى حياته شخصاً قوياً غنياً قد ينافسه فى رياسته على قومه ، أو يخرج على طاعته ورعايته ، فلذلك يحرص على أن يبدد ثروته قبل أن يبلغ ، وربما أحالها إلى نفسه أو إلى بعض أقاربه وأوليائه بألوان من الحيل ، فتئول إليه ، ويصبح هو صاحبها مباشرة أو بالواسطة ، ويظل اليتيم طول حياته يشعر بمرارة ذلك وحسرته فى نفسه .

ومن الأوصياء من يزوِّج اليتيمة بابنه مثلا لكى يضم مالها إليه ، ويأمن

أن يخرج من سلطانه ، وهو لا يبغى بذلك زوجاً صالحة لابنه ، ولكن يبغى ما لها وثروتها وتطويعها والسيطرة عليها .

ومن الأوصياء من إذا أراد قضاء مصلحة لليتيم أنفق على نفسه فى سبيل تلك المصلحة نفقة طائلة من مال اليتيم ، فيسافر على حسابه فى أعلى درجة ، وينزل على حسابه فى أفخم نُزُل . ويبعثر فى هذا يمينا وشمالا دون حساب ، ولو أنه كان يسعى فى مصلحة لنفسه خاصة لالتمس أيسر السبل ، وأهون النفقات ، وتدبر كل وسيلة من وسائل الاقتصاد .

ويدخل فى ذلك ما يفعله بعض الأوصياء من الإنفاق على الأب الميت إنفاقاً فيه سَرَف وفيه مفاخرة تعود عليه فيما يظن بفوائد أدبية ومعنوية من الجاه ومظهر الغنى ، فتراه يقيم السرادقات فى ليالى العزاء ، وفى مواعيد الذكرى ، ويذبح فى هذه الليالى الذبائح ، فيطعَم هو وأولادُه وأصحابه ، وكل ذلك على حساب مال اليتيم .

وقد رأينا من الأوصياء من ينفق أموالا طائلة احتفالا بعيد ميلاد اليتيم ، ويبذر فى سبيل هذا المظهر ، ويَطعَم هو وأولادُه وأهله من مال اليتيم ، مع أنه لا يفعل ذلك بالنسبة لأولاده .

كل ذلك ظلم لليتيم ، واغتيال لماله ، وانطواءٌ على الغش ونية السوء فى أمره . فالله تعالى ينهى عن ذلك كله .

٢ — ويأمر الله بعد ذلك أن يكون الأوصياء ذوى رفق وإحسان وعفاف ، فمن كان منهم غنيا فليستعفف عن أخذ أجر أو مكافأة ، أو عن تلمس أى نفع من وراء اليتيم ، ومن كان فقيرا ذا حاجة ، أو كان لا بد له أن ينقطع لشأن اليتيم ، ويتفرغ لإدارة ماله والقيام بمصالحه ، فليأكل بالمعروف . والمعروف غنى عن التعريف .

وقد تكلمنا فى « الآيات الموجهة » عن هذا التوجيه ، فليُرجَع إلى ذلك [١] .

ومن توجيه السنة المطهرة فى ذلك ما رواه أحمد وأبو داود وغيرهما من أن ابن عمر رضى الله عنه سأل النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ليس لى مال وإنى ولىٌّ يتيم ، فقال « كلْ من مال يتيمك غيرَ مُسرف ، ولا مُتَأثّلٍ مالا [٢] ، ومن غير أن تَقِىَ مالك بماله » .

* * *

(٦) الإشهاد على اليتامى

عند دفع أموالهم إليهم :

ويقول الله عز وجل : « فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » .

والغرض من هذا الإشهاد مزدوج : فهو إعلانٌ للناس وإظهار لأن هذا اليتيم قد أصبح راشدا صالحا للتعامل معه ، فهو بمثابة تقديمه إلى الهيئة الاجتماعية كعضو راشد جديد ، وهو إبراء لذمة الوصى ، وتعريفٌ بأنه قد أدَّى إليه ماله ، فلا يعود اليتيم إلى منازعته .

وقد يفهم من قوله تعالى « فأشهدوا عليهم » معنى عرض المال ، أصله وثمراته وما أنفق منه ، على خبير يُراجع ذلك ويشهد على صحته ، وذلك لأن « الإشهاد » لا يتم بمجرد أن الوصى يسلم اليتيم مبلغا من المال ، أو بعض الممتلكات ، فمن أين يعلم الشهود بأن هذا المال هو كلُّ ماله ، وأن هذه الممتلكات هى كلُّ ما يملك ، وإنما يعرف ذلك بأن يحاسَب الوصىُّ

(١) ص ١٧٩ من هذا الكتاب .
(٢) تأثل المال : تأصله واكتسبه .

ويراجع حتى تتبين براءة ذمته على وجه يمكن معه الشهادة بذلك ، والشهادة بشيء إنما تكون مع العلم به والتأكد من واقع أمره .

وحكمة هذا التشريع جليلة ؛ فإنه مع ماقدمنا يبعث فى الأوصياء المحاذرة ، ويجعلهم متوقعين لأن يحاسبوا عند تسليم الأموال ، فلا يحاولون اغتيال شيء منها ، ولا إنفاقه فى وجه غير مشروع .

ولما كانت محاسبة الناس عادة ، وشهادتهم عادة ، إنما هى على ما يعلمون ، ومن الممكن أن يموه على الشاهدين والمحاسبين ، فإن الله تعالى يحذرهم حسابه هو ، فيقول : « وكفى بالله حسيباً » أى محاسبا ، فمهما أخفيتم فإنه به عليم ، وعليه شاهد ورقيب ، وفى هذا تخويف عظيم للأوصياء ، واحتياط بعد احتياط لليتامى .

* * *

ضريبة التركات :

٣ — وقد عرضت سورة النساء لليتامى فى أحكام أخرى مشتركة بينهم وبين غيرهم :

أ — فعرضت لهم فى قوله تعالى : « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً »[1] .

وواضح أن هذه الآية فى غير الوارثين ، ويمكن أن يؤخذ من ذلك أصل لما تقرر أخيراً من « ضريبة التركات » فى القانون المصرى ، فإن الدولة تحصل باسم اليتامى والمساكين ما يحقق « فارزقوهم منه » أى من المال الذى يقتسمه المستحقون للتركة ، وهى بذلك حاضرة دائماً عن هؤلاء المرزوقين تأخذ « رزقهم » فى صورة ضريبة ثم تقوم برعاية مصالحهم منها .

---

(١) الآية ٨ من سورة النساء .

٢ً — وعرضت لهم فى الآية التى شرحنا أهدافها فى القسم الأول من هذا الكتاب ، وهى قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى واليتامى والمساكين . . . » الآية [١] .

وبذلك جعلت على المجتمع حقاً لليتامى كما جعلت عليه حقاً لسائر الأصناف المذكورة فيها .

وينبغى أن نعلم هنا أن المأمور به فى هذه الآية هو « الإحسان » المطلق وأن الإحسان باليتامى لون خاص غير الإحسان بذوى القربى ، وبالمساكين ، وبالجيران ، وبابن السبيل ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فى كلامنا على هذه الآية من قبل [٢] .

٢ — تعدُّد الزوجات

٣ — وفى أثناء هذه الأحكام التى قررتها السورة فى شأن اليتامى ، جاء حكم « تعدد الزوجات » وحكم إيتاء النساء صدقاتهن :

وذلك فى قوله تعالى :

« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت إيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » [٣] .

اً — ولا بدّ لنا أن نعرف : لمَ ذُكر حكم تعدد الزوجات بين أحكام

---

(١) ٣٦ من سورة النساء .
(٢) راجع ص ٩٩ من هذا الكتاب .
(٣) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النساء .

اليتامى ؟ ولمَ ورد به التشريع هكذا جوابا لشرط فقيل « وإن خفتم ألا تُقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » الخ ؟ وهل هذا الحكم الأساسى الذى له شأنه الهامّ فى المجتمع يساق عرضا أثناء الحديث عن غيره ، ويؤتى به على نحو جانبى فيقع جوابا لشرط غريب عنه على ما يقول المفسرون ؟

فإذا أصرّ الناظر فى الكتاب الكريم على أن يجد الأجوبة المقنعة فى تفسير هذه الآية الأولى ؛ فإن هذا الإصرار سيجعله يقف أمام آراء المفسرين لها فى شىء من التردد والتحيّر .

ولنعرض هذه الآراء أولا ، ثم ننظر :

رأى أم المؤمنين عائشة :

(١) « فى الصحيحين وغيرهما عن عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن هذه الآية فقالت : يا ابن أختى ، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها ، يشركها فى مالها ، ويعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط لها فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهُوا أن ينكحوهن إلا أن يُقسطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى سُنَّتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، قال عروة : قالت عائشة : ثم إن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذه الآية فيهن ، فأنزل الله عز وجل « ويستفتونك فى النساء ، قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن » [1] قالت : والذى ذكر اللهُ أنه يتلى عليكم فى الكتاب الآيةُ الأولى التى قال الله فيها « وإن خفتم ألا تقسطوا

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة النساء .

فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء » قالت عائشة : وقول الله فى الآية الأخرى « وترغبون أن تنكحوهن » : رغبة أحدكم عن يتيمته التى تكون فى حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا فى مالها وجمالها إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن » .

هذه هى الرواية الأولى التى يوردها المفسرون حين يشرعون فى تفسير هذه الآية ، وهى رواية قوية السند ، رواها البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، والبيهق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وكما ثبتت عند أهل السنة ثبتت كذلك عند الأمامية ، فقد ذكر العلامة الطبَرْسىّ فى كتابه « مجمع البيان فى تفسير القرآن » هذه الرواية عن عائشة ثم قال : وروى ذلك فى تفسير أصحابنا ، وقالوا إنها متصلة بقوله تعالى « ويستفتونك فى النساء » ... الآية ، وبه قال الحسن والجبّائى والمبرّد [1] .

ولذلك يميل المفسرون إلى قبولها ، ويفسرون الآية على هداها .

وجملة ما جاءت به هذه الرواية هو ما يأتى :

(١) أن الله تعالى ينهى الأوصياء عن التزوج باليتامى إذا خافوا عدم الإقساط إليهم .

(٢) وأن هذا النهى مستفاد من أمره تعالى بتزوج غيرهن من النساء ، وذلك أن التقدير : وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى أى اللاتى تحت ولا يتكن ، فالتمسوا نكاح ما طاب لكم من النساء غيرهن اثنتين أو ثلاثا أو أربعاً ... الخ ، قال ربيعة : أى اتركوهن فقد أحللت لكم أربعاً فوسعت

---

(١) ص ٥ من الجزء الثالث من كتاب « مجمع البيان » طبع مطبعة العرفان بصيدا (لبنان) سنة ١٩٣٥ م .

عليكم فى غيرهن حتى لا تظلموهن . وهذا كما لو قال قائل : النساءُ غيرهن كثير ، ولكم أربع إن شئتم ، فدعوا هؤلاء والتمسوا غيرهن .

وإذن فالسبب فى مجئ هذا الحكم بين أحكام اليتامى أن الغاية منه صيانة حقوق اليتامى عامة فى أموالهم .

(٣) وأن هناك اتصالا بين هذه الآية ، وقوله تعالى فيما يأتى من سورة النساء « ويستفتونك فى النساء » ، وذلك أن قوله « وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء » المرادُ به هو « وإن خفتم ألا تقسطوا . . » الخ .

(٤) وأن المراد بقوله تعالى « وترغبون أن تنكحوهن » هو الرغبة عنهن ، لا الرغبة فيهن .

(٥) ولم تتعرض هذه الرواية لبيان المراد بقوله تعالى « اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن » ، وقد ذكر بعضهم عند تفسير هذه الآية من سورة النساء أن عائشة ، رضى الله عنها ترى أن المراد بذلك عدم إيتائهن صداقهن ، وهذا يتمشى مع قوله « فإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » حسب الرواية المروية عن عائشة لأنها جعلت عدم الإقساط هو الرغبة فى عدم إعطاء اليتيمة صداقها .

هذا هو رأى أم المؤمنين عائشة ، وقد أخذ به أكثر المفسرين ، لقوة سنده ومعناه فيما يرون .

نقد هذا الرأى :

ونحن نرى أن هذا مع قوة سنده ، ليس قويا من جهة المعنى ، وأنه يرد عليه اعتراضات منها ما يأتى :

(١) إذا كان الغرض نهى الأوصياء عن ظلم اليتامى بالزواج منهن دون إعطائهن مهر مثلهن ، فإن أسلوب التعبير عن ذلك ، إما أن يكون نهيا صريحا

عن هذا بأن يقال مثلا : لا تبخسوا اليتامى مهورَهن ، أو إيجابا صريحا لحقهن فى ذلك بأن يقال مثلا : آتوهن مهورهن كاملة ، أما أن يقال لإفادة هذا المعنى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » الخ ، فهذا بعيد :

أولا : لأن كلمة « تقسطوا » لا تختص بالإقساط فى دفع المهور فحسب ، فالإقساط هو القيام بالقسط فى كل شىء ، فحمله على ناحية معينة هى ناحية المهر فقط تَحكُّم .

وثانيا : على فرض أن يكون الأمر كذلك، فالمقام لا يستدعى مجيء جواب هذا الشرط على ما جاء به من التبرع بذكر الزواج من غير اليتامى باثنتين أو ثلاث أو أربع ، وأن ذلك عند الأمن ، أما عند الخوف من عدم العدل فالواجب الاقتصار على واحدة ، أو على ما ملكت أيمانكم ، كل هذا يكون مجتلبا من غير أن يستدعيه المقام ، وأسلوب القرآن وبلاغته وإعجازه فى المحل الأرفع ، وهو أسمى من أن يحمل على هذا التصيُّد لأبعد المناسبات ، وأنه يقرر حكما فى شأن اليتامى فينتقل إلى حكم اجتماعى أساسى هام وهو حكم التعدد فيجعله طرفا تابعا ، وحاشية مسوقة عن طريق المصادفة هكذا ارتجالا ومفاجأة .

(٢) ثم إن الأمر بإيتاء النساء صدقاتهن كاملة ، واعتبارها نِحلة لهن وحقا مكتسبا لا يجوز أخذ شىء منه إلا بطيب نفس ، قد جاء فى الآية التالية لهذه الآية : « وآتوا النساء صدقاتهن نِحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً » ، فهذا حكم عام فى مهور النساء ، يتيمات أو غير يتيمات ، فهل ترى الآية الأولى جاءت لتقرره أصالة ، فدارت حوله هـــذا الدوران الذى وصفوه ، ثم جاءت الآية التالية لها فصرحت

به تصريحا، ووضحته توضيحا؟ وما فائدة هذا التكرار مرة بِخَفِيّ الإشارة ومرة بصريح العبارة؟

(٣) ثم إذا كان الأمر كما يقولون فلِمَ جاء جواب الشرط «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع»، ولم تُبْدَأ الإباحة - كما هو مقتضى الحال - بالواحدة من غيرهن، فيقال «أَحَادَ ومَثْنَى وثُلاثَ ورباع»؟ أليس الكلام فيمن يريد أن ينكح اليتيمة غيرَ مُقسِط لها في صداقها، فليُقل له: اتركها وتزوج واحدة غيرها، ولا أظن أن المناسب أن يقال له واتركها وتزوج اثنتين، أو ثلاثا، أو أربعا، فلو أن الآية - إذ أرادت ذكر التعدد هنا - بدأت بالواحدة، ثم ثنت بالاثنتين، وهكذا؛ لكان أقرب إلى ما يقتضيه المقام على حسب ما يقولون.

(٤) ثم إن هذه الرواية تربط بين آية «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى» وآية «ويستفتونك في النساء»، وهذا الارتباط بين الآيتين مسَلَّم، ونحن لا ننكر ذلك على الوجه الذي سنبينه فيما بعد، ولكننا نرى تلك الرواية تفسر «وترغبون أن تنكحوهن» على معنى «وترغبون عن أن تنكحوهن»، مع أن المتبادر أن الكلام على معنى «في»، وهو المناسب لما ذكرته الرواية من الرغبة في نكاح اليتيمات في آية «وإن خفتم ألا تقسطوا».

ثم إن تفسير «اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن» بمنعهن مهورهن غير جيد، لأنه لا يقال في المهر عندئذ «ما كتب لهن»، والمفروض أن الكلام فيمن يرغب أو لا يرغب في نكاح اليتيمة، وهي مجرد رغبة لم تتم حتى يكون هناك ما يسمى صداقا كتب لهن.

وبهذا كله يتبين أن هذا الرأي غير مقنع، وأن الآية على تقديره

تكون ذات أسلوب عجيب فى عدم تماسكه ، وهو ما يجل القرآن عنه ، وترتفع بلاغته وإعجازه عن مستواه .

فلنتابع النظر فى الوجوه الأخرى :

وجوه أخرى مروية فى تفسير الآية : (١)

(ب) وعن ابن عباس ، والضحاك ، والربيع ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والسدّى ، وقتادة — فيما رواه ابن جرير — :

أنهم كانوا فى الجاهلية ينكحون عشرا من النساء الأيامى وكانوا يعظمون شأن اليتيم ، فتفقدوا من دينهم شأن اليتيم ، وتركوا ما كانوا ينكحون فى الجاهلية — فلم ينتهوا عنه — فقال تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ونهاهم عما كانوا ينكحون فى الجاهلية . قال ابن جرير : فقيل لهم كما خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى ؛ فكذلك فخافوا فى النساء ألا تعدلوا فيهن ، ولا تنكحوا منهن إلا من واحدة إلى الأربع ولا تزيدوا على ذلك ، وإن خفتم أيضا ألا تعدلوا فى الزيادة عن الواحدة ، فلا تنكحوا إلا مالا تخافون أن تجوروا فيهن من واحدة أو ماملكت أيمانكم . اه

(ح) وقيل : كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى وأكل أموالهم ، إيمانا وتصديقا ، فقال سبحانه : إن تحرجتم من ذلك ، فكذلك تحرجوا من الزنا ، وانكحوا النكاح المباح من واحدة إلى أربع .

---

(١) إقرا فى تحصيل هذه الوجوه مثل كتاب « مجمع البيان » للطبرسى ، فقد عد خمسة منها غير الوجه الأول الذى جاءت به الرواية عن عائشة — ص ٦ ج ٣

(د) وقيل : المعنى وإن كنتم تتحرجون من مؤاكلة اليتامى فتحرجوا من الجمع بين النساء وألا تعدلوا بين النساء ، ولا تتزوجوا منهن إلا ماتأمنون معه الجور . .

وهذه الأوجه التي ذكرت بعد الوجه الأول الذي روي عن عائشة ، هي أشد من الوجه الأول تهافتا ، ويبدو فيها كلها التحايل على الربط بين الشرط والجزاء على نحـــو لا يفيد القارىء اقتناعا ، ولا يبعث في نفسه ارتياحا .

ولذلك نميل إلى رفض هذه الأوجه كلها .

* * *

رأى جـديد :

(هـ) أما التفسير الصحيح في نظرنا ، والذي لا يرد عليه أي اعتراض ، والذي نقرره مطمئنين إليه ، وإن لم ترد به رواية ، ولم يعرف عن أحد من قبل ، فيتلخص فيما يأتي :

(١) إن العرب في الجاهلية كانوا يستضعفون اليتامى والنساء ، وكان من مظاهر هذا الاستضعاف :

* أنهم كانوا يحرمون الصبي والمرأة من الميراث .

* وأنهم كانوا يطمعون في أموالهم إذا كانت لهم أموال غير الميراث أيضا ، فكانوا يخلطونها بأموالهم ، ويتبدّلون رديئهم بالجيد منها إذا شاءوا ، ويميلون عليها في أزماتهم ولا يتحرجون من إنفاقها في مصالحهم الخاصة .

* وأنهم كانوا يعضلون النساء كلما وجدوا سبيلا إلى ذلك ، كي ينتفعوا من هذا العضل ، فإذا ورث الرجل زوجة أبيه أو زوجة أخيه ، كان له أن يعضلها حتى تفتدى منه بمال تدفعه له ، وإذا كره زوجته التي معه ، علّقها

فلم يطلقها، ولم يعاملها معاملة الزوجة وذلك حتى تفتدى منه بمال تدفعه له، وإذا كانت تحت يده يتيمة عضلها عن الزواج حتى لا تفلت أموالها منه .. وهكذا.

(٢) وقد جاء الإسلام بإبطال ذلك كله ، وجعل لليتامى حقوقا، وارتفع بهم عن أن يكونوا فى المجتمع محلا للاستضعاف فى صورة من الصور ، فلما أخذ المسلمون بتلك الأحكام و شُدِّد النكيرُ على من يظلم اليتامى والنساء ، أصبح هناك روح عام متغلغل فى المجتمع الإسلامى ، ذلك هو الخوف من مخالطة اليتامى لئلا يصيبهم الوعيد بالعذاب، فجاء القرآن بالرخصة فى ذلك فأباح لهم أن يخلطوا أموالهم بأموال اليتامى ما داموا لا يبتغون إلا الإصلاح ، وعرّفهم بأن اليتامى ما هم إلا إخوانهم ، والأخ مساو لأخيه ، ويجب أن يكون بينهما كل مظاهر التعاون بين الإخوة . فانتهت بذلك مشكلة الخلط حيث استجازوه بعد أن كانوا يتحرجون منه ، وبرزت مشكلة أخرى هى : كيف يمكن أن يقوموا لليتامى بالقسط فى كل شىء؟

(٣) ولذلك كان الرجل ربما تحرج من ولاية شئون اليتامى ، وقد يكون مضطرا فى سبيل رعايتهم إلى أن يداخلهم ، وفيهم فتيات ، أو يرى أمهاتهم الأيامى وهو يدخل عليهم ويخرج ، وذلك فيه من الحرج ما فيه ، حيث لا تؤمن الدواعى النفسية من رجل يدخل على أيِّم من النساء ، وعلى بناتها ، وله الحق بحكم وصايته أن يراهن ويتحدث إليهن ، ويجلس معهن ، فإذا أراد أن يبتعد عن ذلك ، وأن يصد عن نفسه عوامل الفتنة بالابتعاد ، أو بتقليل الزيارة والتعرّف ، فإنه سيكون مقصّرا غير قائم لليتامى بالقسط على الوجه الذى أمر الله به ، وعلى الوجه الذى يقتضى إصلاح أموالهم ، ومعرفة مشاكلهم ، وإصلاح أنفسهم بالمعروف .

(٤) فالأوصياء إذن كانوا بين نارين من هذين الواجبين : واجب

القيام بالقسط لليتامى على وجهه الصحيح ـ وهو يقتضى ملابستهم ومداخلتهم والجلوس إليهم ، وفيهم من هى صالحة للزواج، وبينهم ـ فى كثير من الأحيان ـ أمهم نفسها ، تلك الأم التى مات عنها زوجها ، ولعل فيها بقية من شباب وصلاحية للزواج ـ ومن واجب آخر هو واجب الاعتصام ، والابتعاد عن الفتنة ، والمؤمن لا ينبغى أن يضع نفسه وضعاً يكون فيه فاتنا أومفتونا، فما السبيل إلى الخلوص من هذا المأزق ؟

إنه هو الحكم التى شرعته الآية « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » أى ألا تقوموا فيهم ـ وأقول فيهم لأنى أفهم أن الضمير لليتامى عامة ذكورا وإناثا ـ فإن خفتم ألا تقوموا فى شأنهم بالقسط تحرجا من مداخلتهم ومجالستهم فى بيوتهم التى لا تخلو من يتيمات أو أيامى ؛ فالمَخلَصُ من ذلك هو : « تعدد الزوجات » :

إنه هو الذى يوجد فيه الحل لهذا الإشكال ، فقد أباح الله للرجل فى مثل هذا الظرف أن يكون له أكثر من واحدة إذا أمن الجور ، فليدخل الأوصياء من هذا الباب ، ومن كان منهم متزوجا بواحدة ، فلا بأس عليه أن يضم إليها ما طاب له من النساء ، فيتزوج إحدى يتيماته ، أو يتزوج الأمَّ نفسَها ، وبذلك يصبح دخوله هذا البيت دخولا مأمونَ العاقبة،فيجمع بذلك بين رعاية مصلحة اليتامى على الوجه المطلوب ، وبين وقاية نفسه ، ووقاية غيره ، من عوامل السوء والفتنة .

(٥) والآية الأخرى على هذا التفسير يبدو ارتباطها بهذه الآيةوبغيرها من آيات إصلاح اليتامى ، واضحا جليا ، وذلك أنها تحدثنا عن سؤال المسلمين للنبى فى النساء ، وعن بقايا تحرُّجهم فى شئونهن ، كرغبة الولى فى يتيمته ، ومن عرف المجتمع فى عدم توريثهن أو توريث الولدان عامة فتقول: « ويستفتونك فى النساء » ثم تحيل على ما سبق تقريره فى الكتاب من

أحكامهن وأحكام المستضعفين من الولدان . وما أمروا به من القيام لليتامى عامة بالقسط كاملا دون عبث أو تهاون فى إقامته ، فتقول : « قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء » ، وانظر إلى قوله « يتامى النساء » ، وكيف يشير إلى ما سبق من قوله « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » ، ثم تقول « اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن » ، وذلك هو نصيبهن فى الميراث فالتعبير بقوله « ما كتب لهن » لا يليق إلا بشىء مكتوب مقرر مفروض ، وقد وصف الله الأنصبة بقوله فى آية المواريث « فريضة من الله » ، وقد بينا أنه إذا فسر ذلك بفرض الصداق ، فإنه لا يناسب ، لأنه لم يتمّ زواجٌ حتى يقال صداقٌ وكتابٌ مكتوب ، ثم تقول « وترغبون أن تنكحوهن » ، وهى الرغبة فى نكاح الأيّم أو اليتيمة ، وهى المعبّر عنها فى الآية السابقة بقوله : « فانكحوا ما طاب لكم » أى أن إباحة التعدد ملاحظ فيها الرغبة وطيب المرأة فى نظر الراغب فيها إلى جانب الغرض الذى قررناه ، وهو التمكن من أن يُقام لليتامى بالقسط كاملا ، ثم تقول : « والمستضعفين من الولدان » ، فتعطف المستضعفين من يتامى الصبيان على المستضعفين من يتامى النساء ، لأن الولدان جمع وليد للصبى ، أما الأنثى فوليدة وجمعها ولائد ، وتختم بقوله تعالى : وأن تقوموا لليتامى بالقسط » أى لليتامى عامة بالقسط التام على ما أمر الله به فى مواضعه من الكتاب العزيز .

* * *

وبذلك يتبين :

١ — أن تعدد الزوجات إنما شرع لمثل هذه الغاية الشريفة ، التى هى الرغبة فى القيام لليتامى بالقسط ، تحقيقاً لأمر الله ، ورعايةً لمصلحة

اليتامى أنفسهم ، وأنه ليس مشروعاً لمجرد إرضاء النفس ، وتحقيق الرغبة فى النساء .

٢ — وأنه بهذا التفسير ليس غريباً عن موضوع اليتامى ولا دخيلا فى أحكامهم ، فإنه ذُكر حلا لمشكلة من مشكلاتهم فى المجتمع ، حين تقضى المصلحة بأن يقوم عليهم وصى بالقسط ، وتقضى الآداب الإسلامية بأن يتحرج الرجل من الالتقاء بمن هن أجنبيات عنه .

٣ — وأنه يمكن القياس على هذا الغرض ، بأن يباح التعدد إذا دعا داع إليه ، وأن يقيد التعدد إذا لم يكن له داع يشبه ما ذكره القرآن الكريم من « إقامة القسط فى شأن اليتامى » .

٤ — وأن هذا كله مشروط — مع توخّى الغاية الشريفة — بأن يأمن الزوج عدم الجور ، فإذا خاف الجور ، وجب عليه ألا يعدّد .

* * *

٢ً — ويتلاقى هذا مع ما نعرف من أن جميع زوجات النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، إنما تزوجهن لمثل هذا الغرض الشريف ، فمنهن من تزوجها خوف الفتنة عليها ، كسودة بنت زمعة التى كانت من المؤمنات المهاجرات ، ومات زوجها ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنها لو عادت إلى أهلها لعذبوها وفتنوها ، فكافأها على تضحيتها بأن تزوجها وصانها .

ومثل زينب بنت جحش التى تزوجها تحقيقاً لأمر الله ، وإبطالا لما كان عليه الجاهلية من التبنى ، وتحريم تزوج الرجل مطلقة مُتَبَنَّاه .

ومثل جُوَيرية التى تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنها كانت بنت سيد قومها الحارث من بنى المصطلق ، وكان المسلمون قد أسروها وأسروا من قومها عدداً كبيراً ، فأراد الرسول أن يحملهم على إطلاق

الأسرى بهذا الأسلوب ، فتزوجها فقالوا : ليس لنا بعد ذلك أن نبقى أصهار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الأسر ، فأعتقوهم جميعاً ، فكانت سياسةً موفقة رحيمة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وهكذا . كلُّ زوجية عقدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه ؛ كان لها هدف شريف ، ويمكن معرفة ذلك على وجه أكثر من التفصيل فى كتب السيرة ونحوها ، فلا داعى للإطالة بتفصيله .

كما يمكن معرفة الحكمة فى إباحة عدد أكثر من الأربع فى حق الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وسر القصر على أربع فى حق غيره .

وإنما هدفنا فى هذا الكتاب أن نبين الأوضاع العامة التى نظمتها سورة النساء للمجتمع الإسلامى دون توسع بإيراد سائر التفصيلات .

٣ — هذا ومعنى : « مثنى وثلاث ورباع » : اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً .

وأحسن من وضح معناه الزمخشرى فى تفسيره الكشاف حيث يقول : « فإن قلت الذى أطلق للناكح أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع ، فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع ، قلتُ : الخطاب للجميع فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له ، كما تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال ـ وهو ألف درهم ـ درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، ولو أفردت لم يكن له معنى ، فإن قلتَ : فلم جاء العطف بالواو دون أو ؟ قلتُ : كما جاء بالواو فى المثال الذى حذوته لك ، ولو ذهبت تقول : اقتسموا هذا المال درهمين درهمين ، أو ثلاثة ثلاثة ، أو أربعة أربعة ؛ علمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة ، وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القَسْم

على تثنية ، وبعضه على تثليث ، وبعضه على تربيع »(١) .

وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع . ولا عبرة بما خالف ذلك ، كما أجمعوا على أن زيادة الرسول خصوصية له .

التحقق من شرطي التعدد

حقٌّ مشروع لولي الأمر :

٤ — وقوله تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » هو تقييد لإباحة التعدد بأنها إنما تكون عند الأمن من عدم العدل ، أما من يخاف عدم العدل بين الزوجات ، فإنه لا يحل له .

والخوف من عدم العدل هو حالة وجدانية يشعر بها المرء إذا تدبر أمره ، وعرف مدى قدرته وطاقته المادية والأدبية وظروف حياته ، فإنه عندئذ يجد في نفسه معنى الخوف أو الاطمئنان ، أي يستطيع الحكم على نفسه وتقدير أمره تقديراً صحيحاً ، فيخاف إن علم قصوراً ، ويطمئن إذا علم كفاية واستعدادا .

وليس في الشريعة ما يمنع أن يُعهَد بتقدير ظروف الناس في هذا إلى هيئة رسمية اجتماعية أو قضائية ، وأن يقيد الناس في التعدد بحكم هذه الهيئة جوازا أو منعا ، فإن هذا أمر ربما طغت على الرجال فيه عوامل الرغبة فلم يحسن بعضهم تقدير ظروفه ، وتدبر قدرته أو عدم قدرته ، وربما ترتب على هذا ضرر يصيب غيره من زوجته الحالية أو المستقبلة ، ومن واجب ولي الأمر أن يحتاط للضرر فيمنع وقوعه ، ويتخذ لذلك من الوسائل ما يراه ، وليس ذلك من باب تحريم المباح ، فإن الذي معنا مباح مشروط بشرطين :

---

(١) ص ٢٤٤ ج ١ من تفسير الكشاف .

شرط فى الإقدام عليه ، وهو أن يكون له مبرِّر وداع شريف معترف به شرعاً ، وشرط آخر هو ألا يؤدى إلى الجور وعدم العدل ، فولىُّ الأمر لا يقول : أحرِّم ما أحله الله ، وأمنع ما أباحه ، ولكن يقول : أراقب تحقيق الشرطين اللذين قيد الله بهما هذه الإباحة لئلا يقع من عدم تحققهما ضرر يكرهه الله ولا يأذن به ، فهو بذلك خادم للحكم الشرعى، لامعطِّل له .

حكم التسرى بالمملوكات ودلالة الآية فى شأنه :

وللمفسرين فى هذه الآية كلام يتصل بقوله تعالى : « أو ما ملكت أيمانكم » فإنهم يفسرونه « بالتسرِّى » ، أى اتخاذ الإماء المملوكات سرارىّ يعاشَرْنَ معاشرة الزوجات[1] ، ويستنبطون من ذلك أحكاما منها :

(١) أن التسرِّى جائز ، لأن الله تعالى يقول : « أو ما ملكت أيمانكم » ، وقد جاء ذلك فى غير موضع من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين »[2] « لا يحل لك النساء من بعدُ ، ولا أن تبدَّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك »[3] « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم »[4] وغير ذلك .

---

(١) السرارى : جمع سرية ـ بضم السين وتشديد الراء مكسورة ـ وهى الأمة تتخذ كالزوجة بملك اليمين ، والأغلب أن اشتقاقها من السر ، لأن الرجل إذا كان يتمتع بها متخفيا من الزوجة ثم اشتهر ذلك بعد فلم يعد سرا عن الزوجات ، وبقى الوصف .

(٢) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ٥٢ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ٢٤ من سورة النساء .

(ب) وأنه لا يشترط الوقوف عند عدد معين فى التسرى، فمن شاء تسرّى من الإماء بأىّ عدد شاء، ويأخذون ذلك من أن الآية لم تقيّد بعدد، ومن أنها سوّت فى السهولة بين الحرة الواحدة وبين السرارى من غير حصر فى عدد، قالوا: وذلك لقلة تبعتهن، وخفة مئونتهن، وعدم وجوب القسم فيهن.

(حـ) وأنه لا يصح أن تحمل الآية على الأمر بنكاح المملوكات لأن المخاطبين بالكلام فى قوله «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» هم المخاطبون بالكلام فى قوله «أو ما ملكت أيمانكم» فلو كان المراد: أو فانكحوا ما ملكت أيمانكم؛ لاستلزم ورود النكاح على ملك اليمين؟ مع أنه لا يجوز أن يتزوج الرجل أمته ولا المرأة عبدها، لأن حقوق الزوجية لا تتفق وحقوق الملكية[1].

* * *

تحقيق وتخريج لرأى جرىء:

٥ - ومن المفسرين من يحمل الآية على معنى النكاح للإماء، بتقدير آخر، وقد نقل ذلك الألوسىّ فى تفسيره المسمى «روح المعانى» واستبعده وهذا نص كلامه:

«وزعم بعضهم أن هذا معطوف على النساء، أى فانكحوا ما طاب لكم من النساء، أو مما ملكت أيمانكم، ولا يخفى بُعدُه»[2].

ولم يذكر لنا الألوسىّ أسباب استبعاده هذا التفسير، اعتماداً على أن هذه الأسباب - فى نظره - لا تخفى.

---

(١) ولقائل أن يرد على ذلك فيقول: إن فى الأمر بنكاح الإماء المملوكات إيحاء من الشارع بعتقهن وتزوجهن لمن لم يستطع الحرة.

(٢) ص ١٧٤ ج ٤ من روح المعانى طبع المطبعة المنيرية بمصر.

وقد يكون فى تمهلنا عند هذا القول فائدة ، وذلك أن خلاصة هذا القول كما يبدو مما نقله الألوسى مجملا : أن هناك معطوفا عليه ومعطوفا ، فالمعطوف عليه هو النساء فى قوله تعالى « فانكحوا ماطاب لكم من النساء » ، والمعطوف هو ما ملكت الأيمان فى قوله تعالى « أو ما ملكت أيمانكم » ، وما جاء بينهما هو تقييد فى المعطوف عليه ، والظاهر أن صاحب هذا الرأى يجعل هذا التقييد منسحباً على المعطوف كالمعطوف عليه ، وأنه إنما ذكر فى جانب المعطوف عليه فقط اكتفاء ، على حد قولهم : حذف من الثانى لدلالة الأول عليه ، وعلى ذلك تكون نظرية هذا القائل هى : أنه يجوز للرجال أن ينكحوا من النساء الحرائر أو الإماء المملوكات ما طاب لهم فى حدود « مثنى وثلاث ورباع » ، وبشرط الاطمئنان إلى عدم الجور ، فإن خيف الجور وجب الاقتصار فى الزوجية على واحدة حرة أو أمة .

وعلى هذا لا يكون فى الآية حديث عن التسرى ، وإنما الحديث عن النكاح والتوسعة فيه ، بالتماس الزوجة أو الزوجات من أفق الحرائر إن استطاع ، أو المملوكات إن كان ذلك هو حدّ استطاعته ، وذلك هو المصرّح به فيما بعد من آيات السورة ، حيث يقول الله عز وجل « ومن لم يستطع منكم طوْلا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » [1] ثم إن هذا الأمر الذى جاء على وجه الإباحة والتيسير ، إما أن يحمل على نكاح أمة مملوكة للغير ، وبذلك تبقى لها صفة الملك وهى زوجة ، ويكون ذلك برضا مالكها وقبوله كما هو مستفاد من قوله فى الآية الآتية « فانكحوهن بإذن أهلهن » ، وليس للسيد حينئذ أن يتمتع بها تسرّيا ، وإما أن يكون إيحاء من الشارع بعتق الأمة المملوكة وتزوجها أو تزويجها ، فيكون مالكها قد أحسن إليها مرتين : مرة يعتقها ، ومرة

(١) الآية ٢٥ من سورة النساء .

بتزوجها أو تزويجها ، إذ هو إشعار لها بكرامة الحرية وتوابعها على وجه عملى ، وهذا يوافق ما هو معروف من غرض الشارع فى الحرية ، وأنه مُتشوِّف إليها كما يقول الفقهاء .

* * *

هذا هو شرح القول الذى نقله الألوسى مجملا كما فهمناه ، أما شرح وجهة الألوسى فى استبعاده فهى ـ كما يبدو ـ راجعة إلى ما يأتى :

أولا : ما سبق من أن المخاطبين بالكلام هم المالكون ، وأن ذلك يستلزم ورود النكاح على ملك اليمين ، وهما يتعارضان .

ثانيا : أن الكلام على هذا التقدير يكون فيه فصل كبير بين المعطوف عليه والمعطوف ، وذلك قوله تعالى : « مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وبما قيل إن ذلك إخلال بالنظم والبلاغة .

ثالثاً : أنه لم يأت فى جانب المملوكات بلفظ « مِنْ » ولو أراد ما فهمتموه لقال : أو مما ملكت أيمانكم ، كما قال فى الحرائر « من النساء » .

ويمكن الرد على هذه الوجوه بأن يقال :

* أما الأول فقد شرحنا المراد من إباحة النكاح ، وأنه إما للتيسير على ما فى آية « ومن لم يستطع منكم طولا » ، وأما للإيماء بعتق الأمة وتزوجها أو تزويجها ، وحينئذ لا يأتى الاعتراض بما بين الملك والزوجية من تعارض .

* وأما الثانى ، فإنه فَصْلٌ بين المعطوف والمعطوف عليه بغير أجنبى عن الكلام ، إذ القيود المذكورة من صميم الكلام ، وهى شروط فى الحكم ، والمعطوفُ عليه ـ وهو العمدة ـ أولى بأن تذكر فى جانبه ، ثم يأتى المعطوف فيأخذ حكم ما قبله بالتبعية له .

وقد جاء الفصل بين المتعاطفات لتوفية كل منها حقَّ معناه المراد ،

فى غير هذا الموضع من القرآن الكريم ، ومن ذلك المتعاطفاتُ الواردةُ فى قوله تعالى: « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » إلى قوله : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرّم اللهُ إلا بالحق ، ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يَلق أثاما ، يضاعفْ له العذابُ يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ؛ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متاباً » فبعد أن ألحق بهذا المعطوف كلَّ ما يتصل به على هذه الإفاضة ، قال « والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما »[1] الخ ، فأتى بمعطوف جديد بعد هذا الفصل الطويل ، وإذن فلا مانع من هذا الفصل الذى جاء فى سورة النساء ، لأنه فَصْلٌ بمتصل فى المعنى يقتضيه الكلام ، وله نظير بل نظائر كثيرة فى القرآن الكريم .

• وأما الثالث فإن تكرار حرف الجر ـ وهو لفظ « مِنْ » هنا ـ ليس بواجب ، وإنما أوجب النحاة ذلك إذا كان المعطوف عليه ضميرا ، فيجوز أن تقول : مررت بمحمد الذى كان عندنا بالأمس وعلىٍّ ، وهذا على حسب قواعد النحاة ، ومع ذلك قد وردت على خلاف هذه القاعدة شواهد منها قوله تعالى: « واتقوا الله الذين تساءلون به والأرحام» بجر الأرحام عطفا على الضمير فى « به » وقد أشرنا إلى ذلك من قبل[2] ، وإذن فلا بأس بالعطف من غير تكرير حرف الجر .

وبذلك يتبين أن استبعاد الألوسى لهذا القول إن كان سببه ما ذكرناه

---

(١) الآيات من ٦٣ إلى ٧٤ من سورة الفرقان .

(٢) راجع ص ٥٨ من هذا الكتاب .

فلا محلّ له ، وإن كان سببه شيئاً آخر فهو لم يذكره فلا مُعوّل عليه .

والغرض من هذا أن نصل إلى أن القول الذى أجمله الألوسىّ وفصلناه ، واستبعده وقربناه ، هو قول جدير بالقبول ، لأنه على أساسه لا يكون فى الآية أمر بالتسرّى ، وإنما يكون الكلام كله فى الزواج : زواج الحرائر أو الإماء .

ليس فى القرآن الكريم
أمر بالرق ولا بالتسرى

فإن قال قائل : ما فائدة هذا ، وقد ثبت أنه يجوز التسرّى بالإماء فى غير آية من القرآن الكريم ، وبفعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه والمسلمين من بعدهم ، فهل يُنكر ذلك أحد ؟

فالجواب: معاذ الله أن ننكر ذلك ، ولكننا نريد أن نقرر أن آية النساء بهذا الرأى تكون متفقة مع موقف القرآن الكريم كله فى مسألة الرق واتخاذ الإماء سرارى ، فإنه ليس فى القرآن الكريم أمر واحد بالاسترقاق ولا بالتسرى ، وكلُّ ما هنالك أنه سكت عن فعل المسلمين ذلك ، ورتب الآثار الحكمية على أساس أنه أمر واقع فعلا ، لا على أنه شىء مأمور به ولو على سبيل التخيير .

بيان ذلك أن القرآن يتحدث عما ملكت الأيمان فى نحو خمسة عشر موضعا ، فلا يقول أكثر من : « ملكت أيمانكم » أو « ما ملكت يمينك » أو « ما ملكت أيمانهن » .

نعم قد عبر فى بعض الآيات بقوله تعالى: « والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » (١) .

(١) الآية ٦ من سورة المؤمنون .

ولكن هذا لم يزد عن كونه نفياً للوم عنهم ، ملاحظةً لأنهم على واقع فعلى تقضى الحكمة بمسايرته حتى يغير .

للإسلام خطة يجرى عليها لتصفية الاسترقاق والتسرى :

كل ذلك - كما ترى - يحدث عن الواقع ، وليس فيه تعرض قولى للأمر به ، وأقول : ليس فيه تعرض قوليّ ، لأنى أعلم أن السكوت عليه ، أو الحديث عنه كواقع يستلزم إقراره ، وأنا لا أعارض ذلك ، بل أقرر أنه يستلزم هذا الإقرار ، ولكنه إقرار لا عموم له لا فى كل الأحوال ولا فى كل الأزمان، فإن من الجائز أن يكون هذا الإقرار السكوتى ملاحظا فيه ظروف خاصة يومئذ ، والدلائل تدل على ذلك ، فقد كان العالم كله معترفا بالرق ، وكان التعامل العام قائما على الاعتراف به ، فلم يكن من صالح المسلمين يومئذ أن يبطلوا هذا اللون من التعامل العام دفعة واحدة ، أو أن ينفردوا هم عن العالم بذلك ، فلا يعاملوا أعداءهم بالمثل ، فيتخذوا الأسرى أرقاء كغيرهم من الأمم ، فقضت الحكمة الإلهية بأن يُتدرج فى هذا الإلغاء ، ورسمت لذلك خطة محكمة تتألف من النقط الآتية :

(ا) لا يرد فى القرآن الذى هو النصوص الأصلية الأساسية ، أى نص يدل على الأمر بالاسترقاق أو اتخاذ الإماء سرارىّ ، وإن كان ذلك لا يمنع أن يتحدث القرآن عن هذا حديثَ من يعرفه ويقره كواقع ، ويرتب الأحكام التشريعية على أساس واقعيته التى تقضى الحكمة بأن تترك موقتا .

(ب) تتكفل النصوص من الكتاب والسنة ببيان أن الرق واقع مكروه ، وبتشريع ما يكفل تصفيته من العتق فى مناسبات متعددة ، كالكفارات وألوان القرب والزكاة والصدقات وعقوبة من يمثل بعبده بعتقه عليه ونحو ذلك .

(ح) يقصر مورد الرق على الأسر فى حرب لإعلاء كلمة الله تعالى ، وفى هذه الحرب لايجوز للمسلمين أن يتخذوا أسرى حتى يثخنوا فى الأرض أى حتى يظهروا فيها ويُعلوا كلمة الحق والتوحيد ، فإذا أثخنوا فى حرب وانتصروا كان لهم أن يأسروا حينئذ ، ثم كان لأولياء الأمر الخيار المقرر بقوله تعالى: «فإما منًّا بعد وإما فداء» أى: فإما أن تمنّوا عليهم منًّا ، فتطلقوهم تفضلا عليهم وإحساناً بغير مقابل ، وإما أن تأخذوا منهم فداء ، أى تطلقوهم بمقابل ، وعلى هذا فلا ذكر صراحة للاسترقاق ، وإنما يتكلف بعضهم فيجعل الاسترقاق داخلا فى المنّ ، لأن المن إما أن يكون كاملا ، بإطلاقهم دون أى مقابل ، وإما أن يكون جزئياً بإعفائهم من القتل مع استرقاقهم ، وبعضهم يحاول إدخال الاسترقاق تحت الفداء ، فيقول: إن فداء حياتهم إما أن يكون بمقابل يبذلونه ، أو بنفس الأسير حيث يستعبد ويسترق ثمنا لإبقائه حياً دون قتله ، ولا يخفى أن هذا وذاك تكلف ولىّ يراد به تبرير الاسترقاق ، ومحاولة إثبات أنه مخيرٌ فيه بنص القرآن .

* * *

تلك هى الخطة التى وضعها الإسلام لتصفية الرق : تضييقٌ فى مَداخله ، وتوسيعٌ فى مخارجه .

ولا ينبغى أن يؤخذ الإسلام بفعل المسلمين فيما بعد حينما كان الاسترقاق خارجا على هذه الخطة . أو كان الخلفاء من أمويين وعباسيين وغيرهم من الأغنياء يتخذون السرارىّ بغير تقيد ، بل بتوسع وإسراف ، فإن ذلك كله مناف لروح الإسلام ، وإن أُدخِل على النصوص بالآراء والأقوال ، وتأويل الرجال .

والآن وقد اتفق العالم على منع الرق ، فليس فى نصوص الشريعة ما يمنع

من مجاراة الدنيا فى هذا الاتفاق الإنسانى ، بل إن المسلمين إذا أبوا إلا استمراره والتعامل به فيما بينهم ، يكونون قد أساءوا إلى أنفسهم وإلى تعاليم شريعتهم ، لقاء التمسك بأمر لم يوجبه الله ، ولم يقره تشريعا دائما كما أوضحنا .

* * *

٦ — وجاءت الآية التالية لهذه الآية آمرةً بإتيان النساء صدقاتهن نحلة ، أى هبة وعطية ، مبينة أنه لا يحل للرجال أخذ شىء من هذه الصدُقات إلا عن طيب نفس من النساء ، وهنا ثلاثة أحكام :

أحدها : أن القرآن يعتبر الصداق حقا للزوجة تأخذه على سبيل النحلة والعطية ، أى بلا مقابل ، وفى ذلك يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : « وينبغى أن يلاحظ فى هذا العطاء معنى أعلى من المعنى الذى لاحظه الذين الذين يسمون أنفسهم « الفقهاء » من أن الصداق بمعنى العوض عن « البُضع » [1] والثمن له ، كلا إن الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من الصلة بين الرجل وفرسه أو جاريته ، ولذلك قال « نِحلة » ، فالذى ينبغى أن يلاحظ هو أن هذا العطاء آية من آيات المحبة وصلة القربى ، وتوثيق عرى المودة والرحمة ، وأنه واجب حتمٌ لا تخيير فيه كما يتخير المشترى والمستأجر » [2]

وهذا الذى يقوله الأستاذ الإمام حق ، وهو المناسب لقدسية عقد الزواج ، ومِنْ غير المسلمين مَنْ يجعل هذه النِحلة على الزوجة ، فهى التى تدفع ما يسمونه « الدُّوطة » ، وليس المقصود بها أن تكون عوضاً ومقابلا لشىء ، ولا يخفى أن الله تعالى جعل الاستمتاع مشتركا بين الزوجين ، فليس أحدهما آخذاً ، والآخر معطيا ، حتى يكون البذل فى مقابل الأخذ ، وكل ما فى الأمر إن الإسلام جعل الصداق على الرجل ، وأعفى منه المرأة تمشيا

---

(١) البضع : بضم الباء — : موضع الحرث من المرأة .

(٢) ص ٣٣٦ من الجزء الرابع من تفسير المنار .

مع سياسته فى ذلك من تحميل الرجال كل النفقات وإعطائهم سلطة القوامية على النساء .

الثانى من الأحكام التى أفادتها هذه الآية ، هو إبطال ما كانوا يفعلونه من أخذ الولىّ صداق من هى تحت ولايته ، يتيمة كانت أو غير يتيمة ،[1] أو من إخلاف الزوج وعده بما وعد من الصداق ، فأمر الأولياءُ أن يؤدوا للنساء صدقاتهن ، لأنهم إنما قبضوا ذلك باسمهن ، وبالنيابة عنهن ، وأمر الأزواج بأداء ذلك حتما لا تهاون فيه ولا إخلاف .

الثالث : أنه لايجوز للأزواج ولا للأولياء أن يأخذوا شيئاً من مهر النساء إلا إذا طبن عن ذلك نفسا ، وظهر هذا واضحا بلا إكراه .

وتلك عناية عظيمة بحقوق النساء يجب أن تقدر للإسلام ، ويعرف فضله فيها .

---

(١) قال صاحب الكشاف . كان الأولياء يأخذون مهور بناتهم ، وكانوا يقولون : هنيأ لك النافجة ــ لمن تولد له بنت ــ يعنون : تأخذ مهرها فتفنج به مالك ، أى تعظمه .

٣ — أحكام المواريث

١ — أحكام المواريث عامة ، وما اتصل بها من مبادىء استنبطها الفقهاء ، ومن دلالات على الحجب بالحرمان أو بالنقص ، وعلى درجات القرابة ، أغلب ذلك مأخوذ من سورة النساء[١] .

والآيات التى وردت فى سورة النساء تشريعاً لأحكام المواريث هى خمس آيات :

الآية الأولى هى قوله تعالى :

« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو أكثر نصيبا مفروضاً - ٧ » .

والآيتان الثانية والثالثة هما قوله تعالى :

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما - ١١ » .

---

(١) وفى غير سورة النساء آيات أخذ منها بعض أحكام الأرث والوصية ، مثل قوله تعالى : « واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا — ٦ / الأحزاب ، وقد جاءت الجملة الأولى إلى قوله تعالى « فى كتاب الله » فى آية أخرى هى الآية الخامسة والسبعون من سورة الأنفال ، وهى آخر آية فيها ، ومثل آيات الوصية بالوالدين والأقربين ، من ١٨٠ إلى ١٨٢ من سورة البقرة .

« ولكم نصف ما ترك ازواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الرّبُع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالةً أو امرأةٌ وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ، من بعد وصية يوصَى بها أو دين غيرَ مضار ، وصية من الله ، والله عليم حليم - ١٢ » .

والآية الرابعة هى قوله تعالى :

« ولكلّ جعلنا مَوالىَ مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدتْ أيمانكم ، فآتوهم نصيبهم ، إن الله كان على كل شىء شهيدا - ٣٣ » .

والآية الخامسة هى قوله تعالى :

« يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى الكلالة : إن امرؤٌ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوةً رجالا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم - ١٧٦ » .

والأحكام التى تفيدها هذه الآيات مفصلة فى كتب التفسير والفرائض ، ويمكن الرجوع إليها فى مواضعها ، غير أننا نتحدث عن النواحى التى يتبين منها موقف الإسلام الحكيم فى هذا المقام :

* * *

الملكية والتوريث حقان مشروعان :

٢ — إن مبدأ تنظيم أحكام الميراث مبنى على مبدأ الاعتراف بحق الإنسان فى أن يملك ، واختصاص قرابة معينة له فى أن ينتقل إليها ما يملك بعدموته .

وكلا المبدأين طبيعى ملائم للفطرة ، ولذلك قررهما الإسلام ، وبنى على أساسهما أحكامه فى الملكية والاختصاص والكسب والميراث وما يتصل بذلك كله .

١ — ومما جاء على اعتبار مبدأ الملكية ، نسبة الأموال إلى أصحابها فى مثل قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون »[1] فهو يقول « أموالكم » و « أموال الناس » ويجعل لها حرمة ، ويدل على اعتبار هذا أيضا تشريع حد السرقة ، والأمر بالتوفية بالعقود ، وإباحة التجارة والشركة ، وفرض الزكاة على أموال الأغنياء ، وأمرهم بالإنفاق فى سبيل الله ، إلى غير ذلك مما هو منبت فى آيات القرآن الكريم ، مؤيد بالسنة المطهرة ، والعمل الذى ترادف عليه المسلمون من العهد الأول إلى عهدنا هذا.

وآيات المواريث التى جاءت فى سورة النساء ، تعبر عن الأنصبة والفرائض بما يفيد انتقال ملكيتها إلى الوارثين ، فتقول « للذكر مثل حظ الأنثيين » بلام الاختصاص والملكية ، وتأتى هذه اللام فى كل نصيب : « فلهن ثلثا ما ترك » « فلها النصف » « ولأبويه لكل واحد منهما السدس » « فلأمه الثلث » « ولكم نصف ماترك أزواجكم » « ولهن الربع مما تركتم » . الخ

إنكار هذا المبدأ الطبيعى

مفسد للفرد والمجتمع :

٢ — ومن أصحاب المذاهب الحديثة من ينكر الميراث إنكارا تاما ، وذلك عندهم مبنى على إنكار مبدأ الملك والاختصاص ، فهم يلغون هذا وذاك ، ويقولون إن حق الإرث ينافى الحرية الاقتصادية ، لأنها تقتضى أن يولد

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة .

الناس متساوين ، فلا يمتاز أحدهم على الآخر بغير مميزاته الطبيعية ، كما يقولون إن الملك من شأنه أن يميز بعض الأفراد على بعض ، ويعطيه من الفرص فى الحياة ما يجعله متمكناً من تسخير غيره ، واستلاب حقه فى الحرية العملية والشعورية .

وهذا الذى يقولونه فاسد :

• أما فيما يتعلق بالملك ، فإن الملك معناه أن هناك جهداً بذل ، وعملا أدى ، استحق عليه الإنسان مقابلا ، فإذا زاد هذا المقابل ، عن حاجة الفرد الاستهلاكية بقى له ما يدّخره ، ولم يكن هذا الباقى إلا حقاً له ، لأنه هو أيضاً يقابل الجهود التى بذلها فوق حاجته ، فهذا قانون طبيعى إنسانى ، ولو أنتاخرمنا الإنسان هذا الفائض ووجهناه إلى غيره ممن لا فائض لهم لأنه لا جهود لهم ، لترتب على ذلك أمور : منها أن يتساوى المجدّ وغير المجدّ فى الثمرات ، وهو أمر مخالف لما تقضى به الطبيعة ، فالناس منهم الكسلان الذى لا يكاد يعمل عملا ، ومنهم الدائب السعى الذى لا يكاد يفتر ، وكل ما فى الحياة إنما يرجع إلى العمل والجهد المبذول ، فالأحجار متراكمة فى الجبال ، تحتاج إلى من يقتطعها ، وإلى من ينقلها من مواضعها ، وإلى من ينحتها ويسويها ، وإلى من يبنيها ، فهى فى الأصل بدون قيمة ، والذى يجعل لها القيمة إنما هو عمل العامل ، وجهد المجتهد ، فإذا ضيع هذا الجهد فذلك انحراف عن حكم الطبيعة ، وإذا سوّى بين من يبذل الجهد ليجعل للأشياء قيمة ، ومن لا يبذل جهداً ، كان ذلك انحرافاً عن حكم الطبيعة ، وهكذا .

ومنها أن يشعر الإنسان بأنه لا يفيد مما زاد فتفتر همته ، ويضعف سعيه ، ويُؤثر أن يوفر جهده ، وبذلك يخسر المجتمع ما يناله من نصيب فى سعيه وحركته ونشاطه ، ويتكررُ هذا الخسار بتكرر ضنّ الأفراد بأن يبذلوا

زيادة فى الجهود ، فينتهى الأمر بأن يكون المجتمع ضعيف الإنتاج ، قليل الثمرات .

ويجب أن نتصور هذا فى حدود الحرية المكفولة للمجتمع الطبيعى ، لا فى حدود التسخير واغتصاب جهود الأفراد فى ظل حكومات تسيطر وتضغط ولا يهمها إلا أن تنجح نظمها ، فإن التسخير قد يأتى بحصيلة كبيرة من الأعمال والإصلاحات ومظاهر القوة والاختراع ، ولكنه يكون على حساب الشعوب والأفراد ، وهو أشبه بأن يؤمر الناس بالصيام طول الدهر ، وأن يبذلوا مايتوفر من هذا الصيام لحكامهم كى يدبروا به مايزعمون أنه يسعد المجموع ، بينما المجموع لا يسعد إلا إذا سعدت الأفراد . وليس الصيام هنا صياماً عن الطعام والشراب فحسب ، وإنما هو صيام عن كل مايسعد به الإنسان فى الحياة من متاع أباحه الله ، ويسره لخلقه .

وبهذا يتبين أن المجتمع الطبيعى هو الذى يقوم على رعاية حق الإنسان فى أخذ ما يقابل جهوده المبذولة ، فإن هذا هو مبعث التنافس والتزاحم وتكثير الجهود ، وتجويد الأعمال ، فإذا قيل : إن بذل الجهود ، وجودة الأعمال . وكثرة الثمرات ، كل ذلك يحدث فى ظلال النظم التى تحرم الملكية ، بل ربما دلت المخترعات الأخيرة ، التى ظهرت من آفاق هذه النظم ، على أن الابتداع والاختراع والتوليد والتجويد والإتقان ، تجرى بها الريح رخاء فى ظل هذه النظم ، بدليل أنها تسبق ، وتسرع ، وتخيف . . . الخ .

فالجواب أن العبرة ليست بالسرعة ، ولا بالسبق ، وإنما هى بما يعود على الشعوب من سعادة ، واستقرار ، ورضا ، ومتاع حسن ، وحرية ، وأمن ، فقد يجهز جيش من الجيوش بأمضى الأسلحة وأقواها وأكبرها ، ولكنه يكون مع ذلك ضعيفاً معرضاً لأشنع الهزائم ، إذا كان جنوده

خسروا أنفسهم ، ولم يكن لهم روح الرضا والتقبل و الإقبال .

ثم كيف يسوّى بين الإنسان والحيوان فى مبدأ الاكتفاء بما يكفى حين يأخذ ، مع تكليفه بأن يبذل أكثر مما هو فى حاجة إليه حين يعطى . إن الحيوان الأعجم هو الذى يُسخَّر فى مصالح الإنسان طول يومه ، ثم لا ينال من جهده الشاق إلا ما يأكل ويشرب ، وإلا ما يأوى إليه من حظيرة ، نظيفة أو حقيرة .

فالإنسان له متاعه الروحى والمعنوى ، ومن حقه أن يشعر بأنه متفوق فى الثمرات ، لأنه متفوق فى العمل ، وحرمانه هذا الحق خروج على طبيعة البشر ، وتنكر لمقتضياتها .

وأما فيما يتعلق بالميراث ، فإن الذى ينتقل عنه الميراث هو المالك ، وهو صاحب الحق ، والطبيعة نفسها تنقل خصائصه وميزاته وكثيراً من شبهه الخلقى إلى وارثه ، فالوراثة قانون جرت عليه الطبيعة ، لأن الإنسان يرث صفات أبيه وجده وأمه .. الخ على نحو أو آخر ، فلماذا لا ينتقل إليه أيضاً حق الإرث المالى ، وقولهم إن ذلك من شأنه أن يمنع المساواة فى الحرية الاقتصادية ، لا يكفى فى تبرير إنكار الميراث ، فإن الله لم يسوّ بين الناس فى الخلق أيضاً ، فهذا ذكى ، وهذا غبى ، وهذا جميل ، وهذا دميم ، وهذا له موهبة فى تلك الناحية ، والآخر لا موهبة له فيها ، فليس القانون الطبيعى إذن هو المساواة فى كل شىء ، حتى فى الأشكال والصفات والأخلاق ، فإذا قالوا : ما ذنب الذى لم يرث ، وكيف يمتاز عليه الذى يرث ، وهذا وذاك إنما هو من قبيل المصادفة ، فإننا نطالبهم بأن يقولوا أيضاً : ما ذنب الدميم ، وما ذنب الغبى ، ولم ميز عليهما الجميل والذكى ، وكيف فرق بينهما ، فلم تتحقق لهما المساواة ؟

ثم إن المالك المورِّث هو صاحب الحق فى المال ، لأنه فائضه وثمرات جهده - كما بينا من قبل - فلا يخلو إما أن ينتقل إلى أهله وقرابته ، أو إلى الأبعد منهم ، أو إلى الدولة ، فإذا انتقل إلى الدولة فذلك هو التسخير والاغتصاب ، وأيلولة الفائض إليها بعد الوفاة ، كأيلولته إليها قبل الوفاة ، كلاهما تترتب عليه الآثار التى ذكرناها من قبل ، وإذا انتقل إلى الأباعد مع وجود الأقارب ، كان هذا مخالفاً لقضية العقل والمنطق ، فإن أقارب المرء هم الذين يحملون همه ، ويبادرون إليه فى كل مناسبة يحتاج فيها إليهم ، وهم الذين يرتبط بهم أكثر من غيرهم ، ولا سيما الأولاد والزوجة والأب والأم والأخوة والعصبة عموماً ، فكيف يقال : نترك هؤلاء الأقربين ، ونعطى أولئك الأبعدين ، وإذن فلم يبق إلا أن ينتقل المال إلى أقرباء صاحبه ومالكه ، وذلك هو المنطق الطبيعى ، والحكم الذى تصلح عليه كل المجتمعات الراشدة ، وما عداه فإنما هو التواء فى الطبيعة ، أو اغتصاب لما تقضى به من حقوق الأفراد ، أو انحراف عن هذه المقتضيات .

والإسلام لايعرف فى أحكامه ونظمه إلا الفطرة السليمة ، وما للفطرة السليمة من قضاء .

موازنة بين الإسلام وغيره

فى أهم تفاصيل الميراث :

٣١ — ومن الشرائع الوضعية أو المليّة ما يخالف الإسلام فى التفصيل مع موافقته فى مبدأ الملك والتوريث ، وترى فروع هذه المخالفة فى الشريعة اليهودية ، وفى الشرائع القديمة للعرب ، وللأمم الشرقية عامة ، وفى القانون

الروماني ، والقانون الفرنسى ، وفيما أخذ به بعض الشعوب من أحكام خاصة فى ذلك .

والإسلام فيما شرع حكمته وفلسفته ، وكلها مستندة إلى حكم الطبيعة ، متمشية مع دواعى الفطرة .

فمثلا نرى أن الشريعة اليهودية تعطى البكر من الأولاد نصيب اثنين من إخوته ، بينما الشريعة الإسلامية لا تفرق بين البكر وغيره ، وحكمها فى ذلك معقول وملائم للعدالة الطبيعية .

والعرب فى الجاهلية كانوا يحرمون المرأة من الميراث ، وكذا صغار الأولاد ، ويقولون : لا يرث إلا من يدافع عن العشيرة ، ويحمى الذمار ، وكذلك كان الأمر فى شرائع الأمم الشرقية القديمة .

وقد أبطل الإسلام ذلك ، وجعل للنساء حقاً مفروضاً كالرجال ، ولم يفرق بين الصغير والكبير ، وفى ذلك تقول سورة النساء :

« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قلّ منه أو كثر ، نصيباً مفروضاً »[1]

ومن إيحاء الأسلوب فى هذا أن الآية لم تجمع بين النساء والرجال فى جملة واحدة فتقول : للرجال والنساء نصيب ، ولكن أفردت كلا منهما بجملة ، لتوحى بأن حق النساء فى ذلك أصلى مستقل كالرجال ، وليست النساء فيه بتابعات ملحقات .

وكذلك أكد التصريح بقوله « مما قل منه أو كثر » أنه لا فرق بين مال كثير ومال قليل ، فربما قيل تأخذ المرأة من الكثير ، ولا تأخذ من القليل ، فصرح بقطع هذا الوهم .

---

(١) الآية ٧ من سورة النساء .

وحكم الإسلام فى ذلك أعدل ، لأنه لا فرق بين الصغير والكبير فى الواقع ، ولا فرق بين المرأة والرجل فى الانتساب إلى المورث ، وإذا كانت التفرقة بين الكبار والصغار من أجل أن الكبار سيصبحون رؤساء الأسرة بعد وفاة المورث ، فإننا نشاهد أن الأسرة تتفرق ، ويكون لكل عضو منها بيت وأسرة جديدة ، وذلك نفسه وحى توحى به الطبيعة ، وتبعث إليه ، وإذن فمن حق كل عضو أن يستولى على نصيبه ، وأن يوفره لنفسه ولأسرته الجديدة المتفرعة عن الأسرة القديمة ، والإسلام حكيم فى ذلك ، إذ أن هذا يترتب عليه تكثير عدد الأسر ، وتمكين النظام الأسرىّ فى الأسرة الجديدة على وجه أيسر وأدعى إلى رعاية المصالح وتقوية العاطفة المشتركة ، وهو أيضاً تفتيت للثروة وحيولة دون تجمعها لدى الأرشد من الأولاد ، واحداً كان أو متعددا ، ورعاية لمستقبل الصغير إذا كبر ، والمرأة إذا تزوجت وصار لها أولاد وبيت جديد .

* ومن النظم ما يسوّى بين الأقرباء فى أنصبة الميراث ، فيعطى بعيد القرابة ، كقريب القرابة ، دون تفرقة ، على زعم أن الجميع متساوون فى أصل القرابة ، وكذلك كان يفعل قدماء المصريين .

والشريعة الإسلامية تفرق بين البعيد والقريب فى القرابة ، كما تفرق بين القريب والأجنبى من الناس ، وهذا هو المنطق السليم ، فإن أقارب الميت ، إنما استحقوا أن يختصوا بميراثه دون من ليسوا من الأقارب بسبب القرابة ، فلا يعقل أن تكون القرابة هى سبب التخصيص بالإعطاء ، ثم لا تعتبر درجاتها ، ويسوّى بين الأدنى والأبعد فيها .

* وبعض القوانين يسوّى بين الذكر والأنثى فى الميراث، ويعيبون على الإسلام أنه يفرق بين الذكر والأنثى اللذين يتصلان بالميت على درجة

واحدة ، حيث يعطى الذكر مثل حظ الأنثيين ، ومنهم من يقول : إذا كان لا بد من التفرقة فلنعط المرأة ضعف الرجل ، لأن المرأة أضعف وأحوج إلى المعاونة .

وللإسلام فى ذلك حكمته ، فإنه قد درس الأمر من أوله وأساسه ، فأعطى الرجل حق الرياسة فى الأسرة ، وجعل عليه فى مقابل ذلك كل النفقات المالية ، فالرجل هو الذى يبذل للمرأة صداقها ، وهو الذى ينفق عليها جميع نفقاتها ونفقات أولادها منه ، من طعام وشراب وكسوة ومسكن ، وعليه أن يخدمها — أى يجعل لها خادماً إن كان ذا قدرة على ذلك ، فإن لم يكن قادراً على أن يجعل لها خادماً ؛ فمن العلماء من يوجب عليه خدمتها بنفسه ، ومنهم من يفرق بين ما تقوم به المرأة فى عادة النساء ، وما لا تقوم به ، فيلزمه بما لا تقوم به ، وكذلك القول فى الإرضاع فقد أوجب بعض الفقهاء على الأب أجرة الرضاع إذا أرضعت الصبى أمه ، أى أن لها أن تتمسك بأخذ الأجرة على إرضاع ابنها — إلا إذا كان الأب فقيراً .

فهل من الحكمة بعد هذا كله ، وبعد أن تكون المرأة منتفعة على طول الخط ، معفاة من كل نفقة على هذا الوجه ، هل من الحكمة مع هذا أن يكون نصيبها مساوياً لنصيب الرجل ؟

ثم إن الفرق الذى يمتاز به الرجل على المرأة فى الواقع هو « السدس » ، أى أننا لو فرضنا أن الرجل سينال أربعة أسهم ، فإن المرأة ستأخذ سهمين . ولو ضممناهما معاً لكان الجميع ستة ، فإذا قسما بالتساوى كان لكل منهما ثلاثة ، فالتشريع الإسلامى يأخذ واحداً من ثلاثة المرأة — أى سدساً — ويعطيه الرجل نافلة فى مقابل ما يجعله عليه من الحقوق والواجبات الكثيرة ، فأى ظلم فى هذا للمرأة ، وأى غبن عليها ؟

ولكن الذين يعترضون لا يفكرون إلا فى النصيبين ولا ينظرون إلى الأمر كله ، وإلى واجبات الرجل التى يؤديها ، وحقوق المرأة التى تؤدى لها - لا ينظرون إلى ذلك لجملة واحدة ، ولو نظروا إليه لجملة واحدة لرأوا أن المرأة هى الفائزة ، وهى التى حوبيت ، إن صح هذا التعبير ، والواقع أنه لا محاباة ، وأن فى ذلك تحقيقاً للتوازن بين كل من الجنسين ووضعه فى الحياة الاجتماعية ، وفيه مراعاة عملية لجانب الضعف فى المرأة حيث رفعت عنها جميع الأثقال والتكاليف ، ثم منحت فى الوقت نفسه نصيباً لا يقل عن نصيب الرجل الذى وضعت عليه جميع التكاليف إلا بنسبة ضئيلة هى « السدس » .

ومن الطريف أن الذين يعترضون على الإسلام فى هذا يذكرون ضعف المرأة واحتياجها إلى المعاونة حين يتحدثون عن الميراث ، بينما نراهم ينكرون أن بالمرأة ضعفاً أو قصوراً عن الرجل حين يتحدثون عن القوامة والرياسة وعن مساواة الرجل بالمرأة فى كل ناحية من النواحى الاجتماعية ، وما ذلك إلا لأنهم يتخبطون ويتجافون عن الواقع الذى تشهد به الطبيعة أى سنن الله فى هذا الكون .

* وبعض الشرائع والقوانين تحرم الزوجة من ميراث زوجها ، والزوج من ميراث زوجته ، وبعضها يعترف بالتوارث بين الزوجين ، ولكن يخالف تقدير الإسلام الذى قدره لكل منهما .

والإسلام هو الشريعة الوسط فى ذلك ، فهو لم ينس ما بين الزوجين من علاقة واشتراك فى الحياة الزوجية التى هى فى الغالب أصل فى بقاء فائض مدخر يبقى لمن يرث ، وأن لكل من الزوجين دوره فى ذلك ، ثم أعطى الزوج نصف المال الذى تركته الزوجة إن لم يكن لها ولد ، والربع إن كان

لها ولد ، وأعطى الزوجة الربع أو الثمن ، لأنه فى كثير من الأحيان يكون المال الذى ادخرته الزوجة فائضا من مال زوجها ، أو يكون قد توافر لها على حساب ما أنفق هو وما بذل فى سبيلها ، فدوره فى توفير المال لها رئيسى وأكبر فاعلية ، والفرص التى تتهيأ للزوجة على حساب زوجها أكثر ، أما دور الزوجة فى تنمية مال زوجها فهو يتمثل فى المحافظة عليه ، وفى إحسان تدبيره ، ولا تكاد تتهيأ للزوج فرص لتنمية ماله على حساب مال زوجته أو جهودها فيما وراء ذلك ، فلهذا كان نصيبها على النصف من نصيبه عدلا ، وكان نصيبه على الضعف من نصيبها عدلا ، وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة !.

ولا يخفى أيضاً ما فى نقص نصيب كل من الزوجين ، إذا وجد الولد ، من الحكمة ومراعاة الوضع الطبيعى ، لأن الولد أقرب إلى أبيه أو أمه من أحد الزوجين إلى صاحبه ، فوجوده لابد أن يلاحظ ، ولا بد أن يكون له أثر فى التقسيم يعود عليه بنصيب أكبر حتى تتحقق الفائدة من قربه إلى مورثه ، وهذا مثل مما يسمونه « الحجب بالنقص » ، وأساسه أن يكون هناك درجة من درجات القرابة أحق ، ولكن الدرجة التى معها وإن كانت أقل منها قوة ، لا يمكن أن تحرم حرمانا تاما ، فالعدالة تقضى بأن يلاحظ القرب القوى . فيكون له تأثيره ، وأن يلاحظ فى الوقت نفسه ، أن الأقل قربا بقيت له ناحية قوية ينتسب إلى الميت بها ــ وهى هنا الزوجية ، أو بتعبير أهل الفرائض : الصهر ــ فيبقى له حظ من الميراث يناسبها ، وقد تضعف القرابة نسبيا أمام وارث أخر مزاحم ، حتى تسقط فيكون مايسمونه حجب الحرمان ، كحرمان الأخ مع وجود الابن ، أو الأب .

* * *

وهكذا لو ذهبنا نتتبع كل حكم من أحكام الميراث لوجدناه على أساس من الموازنة العادلة بين كل عضو فى الأسرة وما يؤديه للمجتمع من نفع ، وهذا هو المعنى الذى يشير إليه قوله تعالى فى آخر الآية الأولى من آيتى المواريث الأساسيتين : « آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضةً من الله ، إن الله كان عليما حكيما »(١)

٤ — جريمتان فاحشتان

اختلافٌ بين المفسرين
وبيان الراجح من الآراء :

عرضت سورة النساء لجريمتين من أشنع الجرائم الخلقية التى من شأنها أن تودى بالمجتمع ، وأن تسلب أعضاءه رجالا ونساءً ما لكل منهما من خصائص ، وذلك ما جاء فى قوله تعالى :

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، إن الله كان توابا رحيما »(٢) .

وقد اختلف المفسرون فى مواضع من هاتين الآيتين : فاختلفوا فى المقصود من « الفاحشة » هنا ، واختلفوا فى المراد من « اللاتى يأتين » ومن « اللذان يأتيانها » ، وفى العقوبة المقررة فى هذا الشأن ، وهل نسخ حكمها أو لم ينسخ ؟ ونحن نلخص الخلاف فى ذلك ، ونذكر ما هو الراجح

---

(١) الآية ١١ من سورة النساء .
(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة النساء .

من أقوال المختلفين ، باعتبار النظر فى القرآن وما يتفق و بلاغته ودلالته :

١ً — يرى الجمهور أن الحديث فى هاتين الآيتين عن جريمة الزنا ، وأن العقوبة التى كانت على هذه الجريمة فى أول الإسلام تختلف باختلاف الجنسين ، فالنساء يعاقبن إذا ثبتت عليهن جريمة الزنا بعقوبتين :

إحداهما : مأخوذة من قوله تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم . . » الآية ، وهى إمساكهن فى البيوت ، أى حبسهن فيها ، إلى أن يتحقق واحد من أمرين : إما أن يتوفاهن الموت ، وإما أن يجعل الله لهن سبيلا غيره ، وهنا يأتى خلاف آخر فى المراد بهذه السبيل ، فبعضهم يقول : إن المراد بها أن يشرع الله فيهن حكما آخر ، ويشيرون بذلك إلى حكم الزانية والزانى الذى جاء فى سورة النور ، بناء على أن سورة النور نزلت بعد سورة النساء ، وقد رووا فى ذلك حديثاً عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول فيه : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : الثيب تُرجَم والبكر تجلد » ، وبعضهم يرى أن السبيل هى النكاح المغنى عن السفاح ، أى أن يرزقهن الله تعالى بمن يتزوج بهن على ما كان منهن ، فيغفر لهن هذا الماضى الآثم .

والعقوبة الثانية : هى الإيذاء ، ويكون بالتوبيخ والتعيير ، وقيل : بل هذا تعبير عن عقوبة تفويضية للأمة ، وهى المعروفة فى لسان الفقهاء « بالتعزير » ، وقيل : بل المراد الإيذاء الذى حددته فيما بعد سورة النور وهو الجلد ، وهذه العقوبة التى هى الإيذاء ، مأخوذة من الآية الثانية وهى قوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » ، وعلى هذا يكون « اللذان » مقصوداً به « الزانيان » أى الرجل والمرأة ، وتكون عقوبة الرجل الزانى هنا هى الإيذاء خاصة .

وخلاصة هذا الرأى أن الجريمة المقصودة هى الزنا ، وأن العقوبة بالنسبة للمرأة هى الإمساك فى البيوت أى الحبس الى أحد الأمرين المذكورين ، والإيذاء ، أما العقوبة بالنسبة للرجل فهى الإيذاء فقط .

٢ — وقد اختلف الجمهور القائلون بهذا : فمنهم من قال إن هذا الحكم نسخ بما جاء فى سورة النور من قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة »[1] وقيل : لا نسخ ، ويجمع بين العقوبتين ، وقال بعضهم إن عقوبة الإمساك فى البيوت المذكورة فى الآية الأولى نسخت بعقوبة الأذى المذكورة فى الآية الثانية ، وقالت فرقة : بل كان الإيذاء هو الأول ، ثم نسخ بالإمساك ، ولكن التلاوة أخرت وقدمت ... الخ[2] .

٣ — ومن هذا يتبين أن الجمهور مضطرب اضطراباً كبيراً فى تفسير هاتين الآيتين ، وأن بعضهم يرى نسخ ما فيها ، وبعضهم لا يراه ، ثم الذين يرون النسخ يختلفون فى الناسخ ، وأنهم يجعلون الآية الثانية فى الرجال والنساء جميعاً على التغليب ، ويجعلون عقوبة الرجل هنا أقل من عقوبة المرأة ، ويختلفون فى السبيل التى ذكرت فى الآية الأولى .

وهذا مثل واضح من أمثلة الاختلاف والاضطراب التى تجعل الناظر فى القرآن الكريم فى حيرة كما تحدثنا فى مقدمة هذا الكتاب .

رأى أبى مُسْلم وبيانُ رجحانه :

٤ — ولكن الذى يجرد نفسه من عاطفة تقليد الجمهور ، يستطيع أن يجد فى أقوال غيرهم ما هو أقرب إلى القبول ، وأدنى إلى إظهار بلاغة القرآن ، وفهم حكمته التشريعية على وجه يناسب عظمته وهدايته .

(١) الآية ٢ من سورة النور .
(٢) راجع فى هذا كتب التفسير ، ومنها تفسير القرطبى ص ٨٤ ج ٥ .

ونريد بذلك: الوجهَ الذى اختاره أبو مسلم الأصفهانى، ونقله عن مجاهد، وبيانه : أن هاتين الآيتين تتحدثان عن جريمتين خاصتين غير جريمة الزنا، إحداهما تقع بين النساء خاصة، ولا دخل للرجال فيها، وهى الجريمة المعروفة «بالسحاق»، والجريمة الثانية تقع بين الرجال خاصة ولا دخل للنساء فيها، وهى الجريمة التى تعرف «باللواط»، فكلٌّ من الآيتين تتحدث عن واحدة من هاتين الجريمتين بالترتيب، وتسند هذه الجريمة إلى من رتكبها على وجه التحديد، فتقول الآية الأولى: «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم»، وتقول الآية الثانية: «واللذان يأتيانها منكم»، وتضع كل من الآيتين العقوبة المناسبة للجريمة التى تتحدث عنها:

فعقوبة النساء اللاتى يرتكبن هذه الفعلة المنكرة: أن يُمسَكن ويحبَسن فى البيوت كى يبتعدن عن الجوّ الذى يتمكنَّ فيه من الاتصال بنساء غيرهن، إلى أن يتوفاهن الموت فينتهى بذلك أمرهن، أو يجعل الله لهن سبيلا بزوجية يَصْلحن بها، وتنسيهن هذا الداء الوبيل، وتمكنهن من أداء واجبهن الطبيعى فى ظل الزواج، وتعيد إليهن اعتبارهن كإناث خلقهن الله لغير ما انحرفن إليه من فساد عظيم.

أما الرجال «اللذان يأتيانها منكم» فعقوبتهم هى الإيذاء، وهى عقوبة فوضها الشارع لولى الأمر، فله إذا ثبتت تلك الجريمة المنكرة على رجلين أن يؤذيهما، والأذى على درجات، وللقانون المستمد من هذا التفويض أن ينظمه ويحدده كما تقضى بذلك المصلحة، وكما يتناسب مع شيوع هذه الجريمة فى مجتمع، أو قلتها فى مجتمع آخر، فقد يُرى تغليظ العقوبة إذا فشت الجريمة، ردعاً لمرتكبيها ومن يخشى أن يقلدوهم، وقد يرى تحقيقها لقلة مرتكبيها، وأنها لم تصر داء عاماً يخشى على المجتمع من تفشيه.

وبذلك يتبين أن الآيتين فى جريمتين خاصتين غير جريمة الزنا ، وان القرآن على هذا يكون قد استكمل التشريع لأحكام الجرائم الثلاث : الجريمة التى تكون بين رجل وامرأة ، والجريمة التى تكون بين امرأة وامرأة ، والجريمة التى تكون بين رجل ورجل ، فالأولى جاء حكمها فى سورة النور ، والثانية والثالثة جاء حكمهما فى سورة النساء .

وعلى هذا فلا حاجة إلى القول بالنسخ ، ولا إلى ذلك الاضطراب الذى رأينا عليه الجمهور .

٥ — وعلينا أن نبين بعد هذا وجه الحكمة فى تشريع عقوبة لهاتين الجريمتين ، ولم عنيت سورة النساء بهما ، ولم خُصصت سورة النور بالتشريع لجريمة الزنا ؟

وبيان ذلك كله : أن سورة النور تتحدث عن الآداب الطبيعية ، والسلوك المعتاد فى المجتمع ، وتبنى حديثها عما يكون بين الرجال والنساء ، فتذكر الزانية والزانى ، وتذكر الذين يرمون المحصنات ، وتذكر الذين يرمون أزواجهم ، وتذكر الذين جاءوا بالإفك على سيدة شريفة هى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وتذكر أن الخبيثات للخبيثين ، والخبيثين للخبيثات ، وأن الطيبات للطيبين ، والطيبين للطيبات ، وتشرع حكم الاستئذان عند دخول البيوت ، وحكم غض الرجل بصره عن المرأة ، وغض المرأة بصرها عن الرجل . وتذكر أحكام النساء من جهة الزينة وما يجوز إبداؤها منها وما لا يجوز ، وعلى من تبدى المرأة زينتها ، وترشد إلى آداب من يعيشون معاً ، وأنه يجب على بعضهم الاستئذان فى أوقات معينة ، وتذكر حكم القواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا ، إلى غير ذلك .

فجميع ما ذكرته سورة النور متعلق بما يكون بين الرجل والمرأة ، فلذلك

لم يأت الحديث فيها عن جريمة الرجل والرجل ، ولا عن جريمة المرأة والمرأة .

أما مجيء ذلك فى سورة النساء ، فلأنها السورة التى تتحدث عن المقومات الأساسية للمجتمع ، وكل واحدة من هاتين الجريمتين من شأنها أن تفسد رجولة الرجل ، وأن تفسد أنوثة المرأة ، فتجعل الرجل يخسر نفسه ولا يصلح لأن يكون زوجا ورجلا له شخصيته وكماله وسموه على النحو الذى هيأه الله عليه ، وتجعل المرأة تخسر نفسها ، ولا تصلح لأن تكون زوجة كذلك ، وتنفر منهما ، فمن ذا الذى يرضى بأن يتزوج امرأة تكون مريضة بهذا الداء ، ومن هذه التى ترضى بأن تتزوج رجلا يكون ملتوياً عن سنة الرجال ، متطلباً أو متقبلا لهذا اللون من الجريمة والفاحشة المنكرة ؟ ثم متى تقوم المرأة بوظيفتها كأنثى إذا اتجهت هذا الاتجاه ، واكتفت من اللذة بهذا اللون الذى لا يثمر ثمرته ، ومتى يقوم الرجل بوظيفته وهو مكتف بما يرتكبه من شذوذ .

لهذا كانت هاتان الجريمتان أخطر على المجتمع من جريمة الزنا نفسها ، وكانتا أفعل فى هد كيان المجتمع منها ، لأن إحداهما تفسد رجولة الرجل ، والأخرى تفسد أنوثة المرأة ، فتأتى على الصنفين - اللذين يتكون منهما المجتمع - من الأعماق ، وإذن فالسورة التى تهتم بوضع الأسس والقواعد لبناء مجتمع سليم ، من حقها أن تهتم بهذا الجانب الذى هو حماية الرجال من الرجال ، وحماية النساء من النساء .

ويتضمن ما قلناه بيان الحكمة فى هذا التشريع ، وفى ذلك كفاية والحمد لله رب العالمين .

٥ ــ أحكام التوبة

يقول الله تعالى :

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليما حكيما، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبت الآنَ ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتَدنا لهم عذاباً أليما »[1] .

ما هى التوبة :

١ً ــ التوبة فى الأصل : الرجوع فإذا رجع الإنسان إلى نفسه ، وندم على فعل القبيح ، وعزم على ألا يعود ، كان تائباً إلى الله ، أى راجعاً إليه ، وذلك لأنه حين كان مرتكباً للذنب كان منصرفاً عن الله ، آبقا منه .

وللراغب الأصفهانى ــ فى كتابه « المفردات فى غريب القرآن » ـ ضبط جيدٌ لمعنى توبة العبد، إذ يقول : « إن التوب تركُ الذنب على أجمل الوجوه ، وهو أبلغ وجوه الاعتذار ، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه : إما أن يقول المعتذر : لم أفعل ، أو يقول : فعلت لأجل كذا ، أو : فعلتُ وأسأتُ وقد أقلعتُ ، ولا رابع لذلك ، وهذا الأخير هو التوبة »[2] .

وكما يقال للعبد : تاب فهو تائب بهذا المعنى ؛ يقال لله تعالى : تاب على عبده ، بمعنى قبِل توبته .

فتوبة الله على عبـــده : رجوعه عليه ، وكأنها مُضمَّنة معنى العطف على التائب بتقبله ، وقد جرى التعبير فى الشرع على إفادة معنى تجاوُب الله

---

(١) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة النساء . (٢) راجع مادة « توب »

مع عبده حين يقصده ويرجع إليه بأسلوب المشاكلة المعروف عند البلاغيين، ففى الحديث : «من تقرب إلى الله شبراً ؛ تقرب الله إليه ذراعا ، ومن تقرب إليه ذراعا ؛ تقرّب إليه باعا ، ومن أقبل عليه يمشى ؛ أقبل عليه يهرول » ، فالتوبة التى تكون من الله على عبده من هذا الباب ، كأنه يقال للعبد : ارجع إلى الله يرجع إليك ، وفيه إيحاء بطريق المقابلة إلى أن من هجر الله هجره الله .

التوبة رابطة بين الله وعباده :

٢ — والتوبة من العبد ، ومن الرب جل جلاله ، إنما هى ارتباط متبادَل على سنة الرحمة والحكمة من الله ، والترجّى والاسترحام من العبد .

وما دامت هـــذه الرابطة بين العبد وربه قائمة ، فإن الأفراد بخير وإلى خير ، والمجتمع بخير وإلى خير .

وقد بيّنا ـ ونحن بصدد الحديث عن «الآيات المبشرة» ـ أن الإسلام بنى أحكام التعامل بين الله وعباده على أساس من إدراك طبيعة الإنسان وعوامل ضعفه الخِلقى ، وما يحيط به من إغراء وإغواء ، ولذلك جاءت مبادئه فى هذا الجانب ـ كما هو الشأن فى سائر الشريعة ـ متسمة بطابع الرحمة والمعاونة والإرشاد وقبول المعذرة والتشجيع على الإحسان السلبىّ بالإقلاع عن الكبائر ، والإيجابى بفعل الحسنات(١) .

وفى هاتين الآيتين بيان إلهى واضح لقاعدة هذا التعامل ، أو هذا الارتباط ، بين الله وعباده ، فى شأن التوبة ، وقد جاء هذا البيان المحدَّد فى سورة النساء بالذات ، لما ذكرناه مرارا من أنها السورة التى حُدِّدت فيها أوضاع المجتمع الإسلامى ، على وجه تكاد تنفرد به ، ولا شك أن هذا البيان الواضح المركَّز ، لما يقبل من التوبة وما لا يقبل ، هو جزء أساسىّ

(١) راجع ما كتبناه عن « الآيات المبشرة » — ص ٢٠٤ من هذا الكتاب .

ضرورى من المنهاج العام الذى يجب أن يعرفه أفراد المجتمع فيعرفوا به موقفهم ووضعهم من العهد الذى بينهم وبين ربهم ، حتى لا يغتروا برجاء كاذب ، ولا يقعوا فى يأس مثبّط أو مُهلك .

* * *

٣ ـ والمراد « بالتوبة » فى قوله تعالى « إنما التوبة على الله » توبة الله التى يتوبها على عباده ، أى تقبله لتوبتهم ، وكذلك « التوبة » ، فى قوله تعالى « فأولئك يتوب الله عليهم » وقوله تعالى : « وليست التوبة » أما المراد بها فى قوله « يتوبون » وقوله « إنى تبت الآن » فتوبة العباد كما هو ظاهر .

أصناف التائبين وأحكامهم :

(ا) المبادرون من قريب :

والذى يستخلص من الآيتين أن أصناف الناس بالنسبة للتوبة أربعة :

الصنف الأول : « الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » ، وعمل السوء هو عمل ما من شأنه أن يغُم ويُحزن ، سواء أوقعه الإنسان على نفسه ، أو على غيره ، وكل المعاصى من هذا القبيل ، لأن الإنسان بفعلها يوقع نفسه فى الغمّ والحزن إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة ، أو يغم غيره ويحزنه بإساءته إياه ، والجهالة : تطلق بمعنى السفاهة ، التى هى خفة الإنسان فى تصرفاته ، وفعله الأشياء على غير وجهها ، وتطلق بمعنى الجهل الذى هو الخلوّ من العلم ، أو علم الأشياء على خـلاف ما هى عليه ،

وهذا الصنف من الناس هم الذين يعملون السوء « إما لطيش فيهم وتلبية لداع من دواعى الهوى والشهوة ـ وذلك هو السفه ـ وإما لجهل بعواقبه ، أو اعتقاد منهم بأنه ليس سوءاً ، فإذا صدر عمل السوء منهم عن هذا أو ذاك ، ثم تابوا من قريب ، فندموا وأقلعوا ، فإن الله تعالى أوجب على نفسه

تفضلا منه ورحمة . أن يقبل توبتهم ، ويغفر لهم ما فرّط منهم .

وقد اختلف العلماء فى القرب الذى ذكره الله تعالى فى قوله « ثم يتوبون من قريب » فقال بعضهم : مابين الإنسان وبين الموت قريب ، فالتوبة مقبولة إلى ما قبل اليقين بالموت، وقال آخرون : ما دام فى الصحة قبل مرض الموت ، ومنهم من يقول : تقبل حتى عند الغرغرة ، وهى مايحدث للإنسان من الحشرجة حين تخرج روحه .

وهذه الآراء لا تتفق وظاهر الآية ، فإن القرب ضد البعد ، وما ذكروه لا يعدّ قربا فى اللغة ، فكيف يقال عمن يفعل الذنوب ويظل عليها أعواماً طوالا حتى يشارف الموت أو يخالطه، ثم يتوب عند ذلك ، كيف يقال فيه : إنه تاب من قريب . ثم إن الآية الثانية تصرح بأن من جاءه الموت فتاب عند ذلك ، ليس ممن أوجب الله قبول توبتهم .

والذى نرجحه أن المراد المبادرة بالتوبة بعد فترة من الوقت يتم فيها التدبر والاستبصار عادة ، وليست الذنوب كلها على شاكلة واحدة ، ولكن لكل ذنب ظروفه ، فربما اعتبرت التوبة من ذنب قريبة ، إذا كان وقتها هو الزمن المجاور لوقت فعل الذنب ، كمن أساء إلى إنسان بالسب مثلا ، وهو ثائر غضبان ، ثم هدأ وسكن غضبه ، فإنما تحسن التوبة من هذا إذا جاءت قريبة من وقت الإساءة ، لأن سبب الإساءة كان ثورة نفسه ، وقد انتهت هذه الثورة النفسية فلم يعد من حقه أن يؤجل التوبة والاعتذار ، فكلما طاول وتلكأ كان مبعداً ومفرّطا ومُصِرّا ، والإصرار على الذنب بمثابة تجديده .

وقد يظل الإنسان مدة طويلة يعالج فى نفسه ناحية نقص خلق ، فيجاهد بواعثها وتارة يُغلب فى هذه المجاهدة وتارة يَغلب ، حتى يُنتصر ولو بعد

حين ، فهذا يكون تائباً من قريب ولو طال أمد علاجه لنفسه .

والله تعالى يقول فى صفات المتقين : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون[١] » ، فهؤلاء هم الذين يتوبون من الذنب فور وقوعه ، لأنهم أقوياء بالتقوى ، فإذا غلبتهم عوامل الإغواء أو الإغراء ، لم يلبثوا طويلا حتى يتذكروا فتزول عنهم الحجب التى حجبتهم ، فإذا هم مبصرون .

ويقول فى أوصافهم أيضا : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون »[٢] .

فنفى عنهم الإصرار بعد الإبصار ، فمن أصرَّ وتلكأ فقد ابتعدْ ، وكلما زاد بعده اسودَّ قلبه وتمكن الإثم من نفسه ، وكان إلى عدم قبول توبته أقرب ، بل كان هو أبعد من أن يتوب .

وقد ذكر « السوء » هنا مفردا للإيحاء بأن هذا الصنف الذى تقبل توبته حتما هو الذى يعمل السوء فى الحين بعد الحين ، فلتة وهفوة دون استمرار لفعله ، واجتراء ومواظبة عليه ، ولذلك غاير بين التعبير هنا والتعبير فى قوله « وليست التوبة للذين يعملون السيئات » فجمع « السيئات » ليشعر بأن الذين لم يوجب الله على نفسه قبول توبتهم ؛ هم الذين من شأنهم أن يكرروا الذنوب ويُنوّعوها ، وشتان بين من يفلت منه الذّنب مرة بعد مرة دون إصرار عليه ، ومن يصير صدور السيئات ملكة فيه .

---

(١) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران .

(ب) المسوِّفون حتى يحضرهم الموت :

الصنف الثانى : هو المقابل للصنف الأول، وهم الذين يعملون السيئات على معرفة بعواقبها ، ويجترحونها فى إصرار عليها ، وملازمة لها ، كالذى يشرب الخمر وهو يعلم تحريمها ولكنه يواظب عليها مواظبة المصلى على صلاته، وكالذى يلعب القمار ، أو يزنى ، ولا يفكر فى الكف عن عصيانه ، بل يكرره ويقبل عليه ويتخذه عادة يمرن عليها . هذا الصنف فى العادة لا يفكر فى التوبة والإقلاع عن معصيته ، إلا إذا عجز عجزا ماديا عن ارتكاب إثمه ، أو أدركه الموت ، والعجز المادىّ هو مقدمات الموت ، وأحيانا يكون هو المرض المقعد المفضى إلى الموت، فإذا أصابه جعل يردد كلمة التوبة بلسانه ، ولو أنه شُفى من مرضه لعاد سيرته الأولى ، لانطباع السيئات فى قلبه ، وصيرورتها ملكة فى نفسه .

وقد بين الله تعالى أن هؤلاء المجترئين المسوّفين ليس لهم حقّ على الله تعالى فى أن يقبل توبتهم ، فقال جل شأنه « وليست التوبة للذين يعملون السيئات ، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن » فقد دل قوله تعالى « يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت » على أن عملهم السيئات متجدد مستمر متتابع ، وأن انتقالهم من حال عمل السيئات إنما هو إلى حال حضور الموت إياهم ، وأن التوبة من الذنوب التى عملوها لم تسبق ذلك ، بل لم يقولوها إلا « الآن » ، وتلك شبيهة بتوبة فرعون إذ أدركه الفرق فقال آمنت ، فرد الله تعالى عليه إيمانه حينئذ ، لأنه ليس إيمانا عن اختيار وإنما هو إيمان المضطر الذى وقع بين يدى العذاب ، فقال له منكرا عليه: « آلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين » [1] فعصيانه : إباؤه دعوة الحق ،

---

(١) الآية ٩٠ من سورة يونس

ومواظبته على اعتناق الباطل طول حياته . وكونه من المفسدين ، هو إصراره على عمل السيئات وارتكاب الفساد حتى صار مستحقا لأن يُنعَت بالفساد ويشتق له وصف منه فيقال له « مفسد » ويُضَم إلى أشباهه وحزبه ، فيقال « من المفسدين » ، وناهيك بعصابة يكون على رأسها هذا الذى يقتل الأبناء ، ويستحيي النساء ، ومن أفرادها هامان وأمثاله الذين يزينون له الإفساد والظلم وحكم الطغيان والجبروت .

الذين يموتون متلبسين :

الصنف الثالث : هم المذكورون بقوله تعالى : « ولا الذين يموتون وهم كفار » ، وهو عطف مع تكرار « لا » على الذين لم يوجب الله لهم التوبة .

وقد يُسأل هنا : لِمَ ذُكر الذين يموتون وهم كفار ، مع أن الكلام إنما هو فى التوبة ، وما دام المرء قد مات وهو كافر ؛ فأمره مفروغ منه ، إذ الله تعالى لا يتوب على كافر مات على كفره ، بدليل قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[1] .

فالجواب : أنهم قد خرَّجوا ذلك على أحد أمرين :

أولهما أن يقال : أراد الله تعالى أن يجمع بين هؤلاء المجترحين المسوِّفين وبين الكفار الذين لا يغفر لهم الكفر ، ليوحى إلى الناس بهذا الجمع أن كليهما فى الطرد من رحمة الله سواء ، وذلك أن المسوِّفين إلى أن يحضرهم الموت ، قريبون من الذين يموتون وهم كفار ، فليس بين هؤلاء وأولئك إلا فترة خروج الروح .

وهذا الجواب فيه شيء من الضعف ، لأن الله تعالى فرق بين الكافرين

---

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء .

وعصاة المؤمنين ، كما يفهم من قوله « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »
فالكافر لابد أن يحق عليه الوعيد ، أما المؤمن العاصى فإنه لاحق له على الله
فى قبول توبته التى أخرها حتى حضره الموت ، ولكن لا مانع فى الوقت
نفسه من أن يغفر الله له إذا شاء ، فالتسوية بينهما ليست بذاك .

الثانى أن يقال : إن تعبير سورة النساء فى هذا المقام بقوله تعالى
« ولا الذين يموتون وهم كفار » شبيه شبها عكسياً بالتعبير فى سورة
آل عمران « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم
مسلمون »[1] فعنى هذا النهى أن يبتعدوا عن كل ما ينافى الإسلام فى جميع
أوقاتهم حتى إذا أدركهم الموت أدركهم مسلمين طائعين ، لأن الموت
لا يُعرف وقته ، وكثيراً ما يفاجىء الناس وهم متلبسون بمعصية الله واقتراف
كبائر الذنوب .

وقد عهد من الشارع أنه يفسر الإسلام أحياناً بالكف عن كبائر
الذنوب ، فيقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من
لسانه ويده » ويقول : « من غشنا فليس منا » وكذلك يفعل فى شأن الإيمان ،
ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو
مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين
يشربها وهو مؤمن » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « والله لا يؤمن
والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، فقيل من هو يارسول الله ؟ قال الذى
لا يأمن جاره بوائقه »

فالمراد بقوله تعالى : « ولا الذين يموتون وهم كفار » هذا الصنف من
عصاة المؤمنين ، الذين جرى عرف الشارع على أن يصفهم أحيانا بعدم الإيمان ،

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .

إشعارا بمنافاة ما يعملون لمقتضى الإيمان الصحيح ، لأن إيمان اليقين يستدعى الكف عن كبائر الذنوب ، ومن فعل شيئاً من الكبائر فلا بد أن يكون حين فعله متزلزل الإيمان بعاقبة فعله ، فالمراد : أن هؤلاء الذين يأتيهم الموت وهم كفار — أى متلبسون بعمل السيئات الكبرى التى يزايل الإيمان أصحابها حين يرتكبونها — هم أيضاً لاحق لهم على الله فى الغفران والقبول ، وإن كانوا داخلين فيمن جعلهم الله تحت المشيئة بقوله « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » .

وهذا الوجه من وجهى الجواب أقرب وأجود ، لأن الكلام إنما هو فى المؤمنين الذين يذنبون ، والصنف الذى تتحدث الآية عنه ، قريب من الصنف الذى تقدمه ، ولذلك عطف عليه ، فكلاهما يعمل السيئات ويسوّف فى التوبة ، غير أن أحدهما يحضره الموت فيدرك أمره قبل أن تخرج روحه ، ويردد كلمات التوبة ، أما الآخر فيأتيه الموت فجأة فلا يدرك شيئاً حتى هذا الترديد اللفظى للتوبة والاستغفار .

المؤجّلون إلى حين :

الصنف الرابع : هم الذين يعملون السوء بجهالة ولا يتوبون من قريب ولا يسوّفون إلى أن يحضرهم الموت أو مقدماته ، وهؤلاء يؤخذون من مفهوم الكلام ، لا من منطوقه ، ويدل الكلام بالمفهوم أيضاً على أنه لاحق لهم على الله فى قبول توبتهم ، كما يدل على أنهم ليسوا من الفريقين الثالث والرابع ، وأمر معاملتهم مسكوت عنه ، فهو متروك للعدل الإلهى ، ولا شك أن أحوالهم تختلف ، ومدى بعدهم عن التوبة وسوء أعمالهم ، يتفاوت ، فالله تعالى يعامل كلا بما يستحق ، وهو العليم الحكيم .

* * *

٤ — وقد اختلف أهل السنة والمعتزلة فى معنى قوله تعالى فى الآية الأولى: « إنما التوبة على الله » بناء على الاختلاف فى مسألة وجوب الأصلح على الله تعالى، وهل يعد ذلك ملائما أو منافيا لكماله جل شأنه، فقال بعضهم: لا يجب شىء على الله، واضطروا إلى تأويل هذا التعبير بمثل: إنما التوبة عند الله، وقال بعضهم: بل هذا التعبير على ظاهره، ولا مانع من ذلك، فإن الله يجب عليه فعل الصلاح، فالأولون هم أهل السنة، والآخرون هم المعتزلة.

والواقع أنه لا محل لهذا الخلاف، فإن الله تعالى هو الذى أوجب ذلك على نفسه، ولم يوجبه عليه أحد، وإيجاب المختار الحكيم شيئاً على نفسه لا يعد نقصاً فيه، وإنما نفر أهل السنة من ذلك على اعتبار أن وجوب شىء على الله نقص فيه - جل وعلا -، ولكن إذا علمنا أنه هو الذى أوجبه على نفسه مختارا، وعلى مقتضى صفاته من العدل والحكمة والرحمة، لصار الخلاف غير ذى موضوع.

* * *

٦ — أحكام الأسرة

منزلة الأسرة فى المجتمع :

١ — الأسرة هى المجتمع الصغير الذى يتربى فيه الإنسان ، وينشأ من أول عهده بالحياة فى أحضانه ، ينطبع بطابعه ، ويرى الأشياء بعينه ، ويتعرّفها عن طريق أحكامه وميوله واتجاهاته وماله من إيحاء حين يستحسن ما يراه حسنا ، أو يستقبح ما يراه قبيحاً ، إلى غير ذلك .

ولذلك أدرك علماء الاجتماع أن البيت هو اليَنْبُوع الأول الذى يمدّ الأمة بالرجال والنساء ، وأنه إذا كان هـذا الينبُوع طيباً صافيا خاليا من الشوائب المفسدة ، كان إمداده خيرا على الأمة ، وزاداً لها من الأفراد الصالحين الطيبين الذى يصبحون فى مجتمعها الأكبر لبناتِ قوة ، وحلقاتِ تعاون ، ودعاةَ فضيلة . ودعائمَ نظام ، ومصادرَ سعادة ، وإذا كان هذا اليَنبوع مَشُوبا بالشوائب ، قائماً على الفوضى والإهمال ، فإن إمداده يكون شرًّا على الأمة ، وخطراً على مقوّماتها ، ونـكدا ووبالا على مجتمعها .

وهذا المعنى يقرره القرآن الكريم حيث يقول : « والبلدُ الطيّبُ يَخرج نباتُـه بإذن ربه ، والذى خَبُث لا يَخرُج إلا نـكدًا »[1] فهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لكل مَصدر من المصادر التى تمد الناس ، فإذا كان هذا المصدر طيبا كان إمداده طيباً ، وإذا كان خبيثاً كان إمداده خبيثاً ، وقد ضرب الله لنا مثلا آخر بعد أن بين مصائر الكافرين والمؤمنين فقال جل ذكره : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حينٍ بإذن ربها ، ويضربُ الله الأمثالَ للناس لعلهم

---

(١) الآية ٥٨ من سورة الأعراف .

يتذكرون ، ومثلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار ، يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويُضِلُّ الله الظالمين ، ويفعل الله مايشاء ، ألم تر إلى الذينَ بَدَّلوا نعمة الله كفراً وأحلُّوا قومَهم دارَ البَوار ، جهنمَ يصلونها وبئس القرار »(١).

٢ — ولذلك عنى الإسلام عامة ، كتاباً وسنةً وفقهاً وحُكما وقضاءً ، بهـذا اليَنْبُوع الأول من ينابيع المجتمع ، فوضع له عن طريق التشريع والإرشاد والتوجيه مجموعةً من القوانين والنظم هى خيرُ ما أخرج للناس فى هذا الجانب الحيوى الأساسى من شئون الإصلاح الاجتماعى .

وسورةُ النساء قد أخذت من هذا بحظ وافر ، ولاعجبَ ؛ فهى السورة التى تبنى المجتمعَ الإسلامى على أسس الاستقرار والفضيلة والسعادة الكاملة .

وقد قدمنا بعض الأمثلة من توجيهها لأفراد الأسرة إلى المبادئ السليمة والسبل الراشدة (٢) ، وهنا نتحدث عن الأحكام التى شرعتها فى هذا الجانب :

أ — لم تقتصر سورة النسـاء على معالجة شئون الأسرة من ناحية الزوجية ، ولـكنها بدأت من الأساس ، فأمرت بإنصاف اليتامى والسفهاء باعتبارهم أضعف أفراد الأسرة ، وجعلت لهم من المجتمع الأكبر رقيبا يقوم لليتيم بما يعوِّضه عن رعاية الأب ، ويقوم للسفيه بمـا يعوضه عما فقد من الرشد ، ثم أمرت برعاية النساء فى حقوقهن المالية . فأبطلت ما كان عليه الجاهلية من حرمانهن ، وجعلت للنساء نصيبا مفروضاً ممـا ترك الوالدان والأقربون ، فى نص قوى مفيد لأنَّ هذا الحق ثابت للنساء على نحو مستقل ، كثبوته للرجال ، ثم شرعت نظام الميراث كاملا على نحو يقطع

---

(١) الآيات من ٢٤ إلى ٢٩ من سورة إبراهيم .

(٢) راجع « الآيات الموجهة » ص ١٧٥ من هذا الـكتاب .

دابر النزاع ، ويحقق لكل عضو فى الأسرة نصيبا يوازى مسئولياته وما عهد إليه به من شئون نفسه ومجتمعه الصغير ، ومجتمعه الكبير ، وقد تقدم القول فى ذلك فيما مضى من الأحكام .

أحكام الزوجية فى سورة النساء :

جعل الصداق على الرجل دون المرأة :

٢ — أما أحكام الأسرة من ناحية الزوجية ، فإننا نجد أن أول ماعُنيت به السورة من ذلك هو وجوب إعطاء النساء مهرهن نِحْلةً ، وإبطالها بذلك ماكان عليه الجاهلية من أخذ الأولياء صداق من تحت أيديهن من النساء ، أو احتجاز الأزواج لهذا الصداق أو لبعضه دون وفاء به ، تهاونا بحقهن ، وطمعاً فيهن [١].

ولا شك أن تشريع هذا الحكم هو أول خطوة عملية فى إصلاح نفس الزوجة وإشعارها أنها وقد انفصلت عن أسرتها النَّسَبية ، واتجهت إلى تأسيس أسرة زوجية ، قد أعطيت مايساعدها على ذلك ، وقد اعتُرِف لها بحقٍّ مالى تكون فيه آخذةً ، وتَشعر فيه بمبادئ الاستقلال عن الأسرة السابقة ، وأنها لم تنتقل إلى البيت الجديد كسلعة قبض وليها ثمنها أو استولى عليها زوجها دون أن يبذل فى سبيلها .

إن مما يصلح نفسية المرأة أن تشعر بأنها مطلوبة مرغوبٌ فيها ، وأن هناك من يبذل الكثير من ماله رمزا لحاجته إليها ، ورغبته فيها ، وقد جُعِل الصداقُ على الرجل تحقيقاً لهذه الغاية الحسنة ، التى هى تكريم المرأة ، واعتبارُ ما تُزْهَى بها وتعتز بحكم أنوثتها ، وذلك ما لا يوجد فى النظم التى

---

(١) راجع ص ٢٨٤ من هذا الكتاب .

تجعل المرأة باذلة كأنها هى الطالبة للرجل ، فيفرضون عليها أن تدفع من المال ما يسمونه باسم « الدُّوطة » وقد يكلفونها ما لا تستطيع ، وربما ظلت الفتاة سنوات طوالا تَـدَّخر من المال ما تقدمه لمن يخطبها ، وفى ذلك إشعارٌ لها من أول حياتها بأنها محتاجه إلى رجل ، وأنها يجب أن تَـبذل فى سبيل رجل ، ثم يحدث كثيراً أن الرجال فى كل مجتمع يؤثرون من الفتيات من تعطيهم قدراً كبيراً من المال ، وتشعر الفتاة بغضاضة عظيمة من هذا ، كما تشعر بأن زوجيتها الجديدة قائمة على أن تعطى وأن تقدّم مالها كما قدَّمت نفسها ، وشتانَ بين هذه ومن تشعر أنها مطلوبة مكرَّمة مبذولٌ فى سبيلها المالُ والهدايا . فلا شك أن حكم الله فى ذلك هو العَدْل « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »[1] .

حماية الأسرة من الرذيلة :

٣ ـ وعنيت سورة النساء بحماية الأسرة من الرذيلة عن طريق حماية الزوجة والأنثى عامة من جريمة الإناث ، وحماية الزوج والرجل عامة من جريمة الذكران ، وهما الجريمتان اللتان ذكر حكمهما فى قوله تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم . . . » الآيتين .

وقد تحدثنا عن ذلك من قبل[2] .

إبطال عادة إرث النساء :

٤ ـ وعنيت بحماية المرأة من أن تتعرض بعد موت زوجها إلى ظلم ذوى قرباه ، بأن تورث كما يورث المتاع ، طمعاً فيها أو فى فداء تقدمه .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

(٢) ص ٢٩٨ من هذا الكتاب .

وذلك قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » .

وقد كان من عادة العرب فى الجاهلية : أن الرجل إذا مات كان أولياؤه أحقّ بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوّجوها وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها ، وكان الرجل إذا مات جاء وارثه فألقى على امرأته ثوبه ، فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها عن الزواج حتى تموت فيرثها ، ومن ذلك ماحدث لكبيشة بنت معن ابن عاصم ، إذ كانت زوجة لأبى قيس بن الأسلت ، فتوفى عنها فجنح عليها ابنه ـ على عادة العرب فى ميراث النساء ـ فجاءت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالت يا رسول الله لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ! ، وقد كان أهل يثرب فى الجاهلية على هذه العادة ، فكان الرجل منهم إذا مات ، ورث امرأته من يرث ماله ، فكان يعضلها حتى يتزوجها أو يزوجها ممن أراد .

كذلك كانت المرأة فى البيئة العربية الجاهلية ، فأنقذها الله تعالى وكرّمها ، وأعتقها من هذا الاستعباد ، فجعل لها الحق فى نفسها ، وفى مالها ، وأعطاها نصيبا من ميراث زوجها ، فكان ذلك انقلابا عظيما فى تاريخ حقوق النساء .

تحريم عَضْل الزوجات :

٥ ـ وعنيت السورة بحماية الزوجات من أن يعضلهن أزواجهن بغير مبرر

وأصل العضل التضييق والمنع ، وكان الرجل فى الجاهلية ربما تزوج امرأة فلم تعجبه فيعضلها أى يضيّق عليها ، ويمنعها حقوقها الزوجية ، ويذرها كالمعلقة ، لا هى بالمتزوجة ولا بالمطلقة ، حتى تعطيه ما قدم لها من صداق ، أو بعضه ، أو أكثر ، بل وصل ذلك بهم إلى حد أن صار قانونا معمولا

به ، فكان الرجل يكتب بينه وبين من فارقها كارها لها كتابا ، ويشهد عليه الشهود ، يشترط عليها فيه ألا تتزوج إلا بإذنه ، فإذا خطبها خاطب ، فان أعطت زوجها الأول وأرضته أذن لها ، وإلا عضلها أي منعها ورفض خاطبها [١] وفي آية أخرى يقول الله عز وجل: «ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا» [٢] .

ونحن نشاهد في عصرنا آثارا من هذه العادات الجاهلية ، وفينا من إذا كره المرأة ضيق عليها وأساء عشرتها لتفتدى منه بإبرائه من مؤخر صداقها ، ومنهم من لا يكتفى بذلك ، بل يطلب في مقابل طلاقه لمن يكرهها ويمسكها ضرارا ، المال الكثير فداء لها ، وهذا ظلم لا يرضاه الله ، ولا يليق بمن وُضعت في يده أمانة الزوجية ، وكلف بصونها ومراقبة الله فيها .

وقد استثنت الآية من ذلك حالة صدور فاحشة مُبَيِّنة [٣] أي واضحة من الزوجة ، وأباحت بهذا الاستثناء أن يمسك الرجل المرأة حتى تفتدى بمال أو تتنازل عن بعض صداقها كالمؤخر مثلا . والفاحشة المبينة ليست شيئا معينا كالزنا مثلا ، فكل ما يصدر من المرأة مما يؤذى العرض أو الكرامة ، أو يأباه العرف السليم ، فهو فاحشة تستحق المرأة إذا ارتكبته أن يضيّق عليها ، لأنها حينئذ هي المعتدية ، وهي التي أساءت إلى الزوجية ، وخرجت على حدودها ، فإذا آذت المرأة زوجها إيذاء شديدا ، فقد أتت بفاحشة مبينة ، وإذا أساءت إلى أمه إساءة بليغة بدون مبرر فقد أتت بفاحشة مبينة ، وإذا سرقت من ماله سرقة واضحة فكذلك ... وهكذا .

وإنما وصفت الفاحشة بكونها «مبيّنة» لكي لا يتوسع الأزواج ، فيعدّوا

---

(١) ص ٤٥٤ ج ٤ من تفسير المنار .

(٢) الآية ٢٣١ من سورة البقرة .

(٣) يقال بين الشيء أي بان واتضح ، فهو متعد بمعنى اللازم .

الهفوات والأخطاء اليسيرة على زوجاتهم ، فالمفروض أن المرأة تخطىء أحيانا ، ولكنّ هناك فرقا بين خطأ وخطأ ، فلا ينبغى التشدد فى احتساب كل شىء على النساء ، ولكن ينبغى أن تكون الحياة الزوجية قائمة على كثير من التسامح ، فالله تعالى ينصف بهذا كلا من الرجل والمرأة ، فإذا كانت المرأة صالحة قائمة بواجبها غير مفسدة ولا مفحشة ، حرُم على الرجل مضايقتها والتطلع إلى أن يأخذ شيئاً من مالها أو صداقها فداء لها ، وإن كانت المرأة ظالمة مفسدة مفحشة تجعل حياة زوجها شقية ، أو تقرب من ذلك ، فإنها حينئذ تستحق أن تعامل بالتضييق ، وأن تطالَب بتعويض الرجل ما أنفقه أو بعض ما أنفقه ، وكثير من النساء من تتطلع إلى الطلاق لتتزوج بغير زوجها ، فالرجل مظلوم مع مثل هذه الزوجة ، ومن حقه أن يعوّض .

حق كلٍّ من الزوجين على صاحبه :

٦ — وعنيت السورة بالحياة الزوجية من حيث حسن المعاشرة ، فأوجب الله معاشرة النساء بالمعروف ، وبين أن عاطفة الحب أو الكره ليستا دائما إمارة على المستقبل السعيد أو الشقى ، وذلك قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » ، كما عنيت ببيان الأساس الذى يجب أن تقوم عليه حقوق كل من الرجال والنساء ، فبينت أن للرجل على المرأة حق الرياسة ، وعليها أن تطيعه وتحفظ غيبه ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » ، وقوله تعالى: « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

وتتلخص الأحكام التى جاءت بها هذه الآيات فيما يأتى :

(١) على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف .

(٢) على المرأة أن تطيع زوجها وتخضع لرياسته ، وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه فى نفسها وبيت زوجها ، فقد جعلها الله أمينة على ذلك .

(٣) على الرجال والنساء كليهما أن يرضخا لحكم الله فى تهيئة كل منهما على الوضع المناسب للمقصود منه ، فلا يتطلع النساء إلى ماخص الله به الرجال وجعلهم مفضلين فيه ، ولا يتطلع الرجال إلى ماخص الله به النساء وجعلهن مفضلات فيه .

وقد تحدثنا عن ذلك فى الآيات الموجهة ، فمن شاء فليرجع إليه [1] .

أحوال الخلاف بين الزوجين :

(ا) نشوز المرأة وكيف يعالج :

٧ — ورسمت سورة النساء الخطة التى تتبع فى حالة وقوع خلاف بين الزوجين ، وإذا تدبرنا الأقسام التى يكون عليها هذا الخلاف وجدناها ثلاثة ، ووجدنا السورة قد عرضت لكل قسم منها . وأعطت الحكم المناسب له :

فالحالة الأولى : هى حالة الزوجة التى يخشى منها النشوز .

وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها فى قوله تعالى :

« واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » [2] .

---

(١) ص ١٧٥ من هذا الكتاب .

(٢) الآية ٣٤ من سورة النساء .

ومن هنا أخذ الاصطلاح المشهور عن النشوز ، وهو فى الأصل الارتفاع ويراد به هنا أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفر منه ، ولما كان خلاف النساء يرجع غالباً إلى ترفع المرأة وتعاليها عن قبول رياسة زوجها وطاعته ، سمى استعصاؤها عليه نشوزا ، كأنها قد ارتفعت عنه نَشَزاً من الأرض .

وفى الآية معنى يجب أن نلتفت إليه ، وأن نوجه به وجهة الإسلام فى وضع هذه العقوبات بين يدى الأزواج على زوجاتهم ، وخطته فى تنفيذها على سنة التدرج :

ذلك أن الآية تقول « واللاتى تخافون نشوزهن » فلا ترتب الحكم على وقوع النشوز ، ولكن على توقعه ، فخوف وقوع الشىء هو توقع حصوله ، وإنما يكون هذا التوقع أو هذا الخوف من الوقوع إذا ظهر فى أفق الزوجية بوادر تدل على أن المرأة تتجه إلى التخلص من سيطرة الزوج ورياسته ، وتسير فى الطريق المؤدية إلى عصيانه .

ولما كانت الأوائل تدل عادةً على الأواخر ، وكان شأن الخلاف أن يبدأ صغيرا ثم يكبر تدريجيا حتى يصبح جفاءً . مستحكما ، وبغضا ليس من السهل اقتلاعه من القلوب ؛ فإن الله تعالى يرشد إلى المبادرة بالعلاج ، وإلا ينتظرَ الأزواجُ حالة النشوز الفعلىّ ليَبْدءُوا علاجهم [1] ، ولهذا وضعت خطة هذا العلاج متمشية مع المعروف من أطوار الخلاف :

---

(١) وقد يمكن تفسير قوله تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن » على معنى: تخافون استفحاله واشتداد أمره وانتهاءه إلى فساد الزوجية أو شقائها ، وهو معنى قريب فى المآل مما ذكرناه ، لأن مداره على ظهور بوادر يخشى أن تتفاقم ، وهو محتاج إلى تقدير مضاف محذوف ، حيث قيل « واللاتى تخافون نشوزهن » فى موضع واللاتى تخافون استفحال نشوزهن ، ولذلك عولنا على مالا يحتاج إلى تقدير ، وهو ما قررناه .

الخطوة الأولى :

« فعظـــوهن » :

* فالبوادر الأولى الموحية بأن الزوجة سائرة فى طريق المخالفة والمغاضبة والاستعصاء ، يناسبها الخطوة الأولى ، وهى خطوة النصح والإرشاد فى رفق ولين ، وتلك هى المذكورة بقوله تعالى « فعظوهن »

وما أبلغ هذا اللفظ فى الدلالة على المراد ، فإن الوعظ نصح مبنى على التذكير بالخير فيما يرق له القلب ، أو التخويف من عواقب الشر على نحو من التحذير والتبصير ، فالزوج يبادر زوجته فى هذا الطور الأول ، حين يكون الخلاف مستترا ، أو على استحياء ، فينصحها نصحا رقيقا يستعمل فيه لباقته وحصافته ، ويذكرها فيه بذكرياتهما الجميلة ، ويثنى فى تلطف على أخلاقها وأخلاق أسرتها ، ويحذرها شماتة الأعداء ، وأسف الأصدقاء ونحو ذلك دون أن يظهر بمظهر الضعف أو التذلل ، ولا بمظهر التهديد والتوعد .

وهذه الخطوة الأولى من خطوات العلاج الزوجى هى خطوة طبيعية ، وكل زوج وزوجة يعرفان مالها من أثر فى إزالة كثير من أسباب الخلاف ، ومن حسم الشر فى منابعه ، وعدم السماح له بأن يأخذ طريقه إلى جو الأسرة فيفسده ويكدر صفاءه .

وينبغى أن يفهم أن هذه الخطوة الأولى المناسبة للبوادر الأولى ، لا تقف عند بذل هذا الوعظ والنصح مرة واحدة ، فإن الشأن أن هذه المرحلة تطول بعض الوقت ، وأنها تقابل فى الحين بعد الحين بالتذكير وما يناسب كل حالة من النصح والتحذير ، بل قد يكون من أساليب الوعظ والإصلاح أن يتسامح الرجل أحيانا ، وأن يغفر عن قدرة وتمكن ،

لتعرف الزوجة فضله فى ذلك ، وأنه ليس متهوراً مندفعا من أول الأمر ، فإن ذلك يصلح كثيراً من النساء اللواتى لا تصلحهن الشدة والعنف .

الخطوة الثـــانية :

« واهجروهن فى المضاجع » :

* فإذا لم تنجع الخطوة الأولى ؛ فمعنى ذلك أن طورا آخر من أطوار الخلاف أو مقدمة أخرى من مقدمات هذا النشوز المتوقع، قد بدأت تفعل فعلها ، ومن المناسب لذلك أن يظهر الرجل بمظهر الممتعض ، وأن يعبر عن هذا الامتعاض بطريقة صامتة ولكنها بليغة فى صمتها . مؤثرة تأثيراً كثيراً فى المرأة ، فان أكبر ماتعتز به المرأة أن ترى زوجها هائما بها ، شديد الميل إليها ، فإذا وجدت منه مايدل على الانصراف عنها ، وعدم التأثر بأنوثتها ، أحست بأنها بدأت تدخل فى منطقة من الخطر ، وأن عليها ألا تسترسل ، ولذلك أمر الله تعالى بالهجران فى المضاجع ، ليظهر هذا الموقف السلبى من الرجل فى أقصى مداه ، ولتشعر به المرأة واضحا ، وهذا هو السر فى أن التعبير جاء بقوله « واهجروهن فى المضاجع » ولم يأت بمثل : واهجروا مضاجعهن ، لأن هجر المضجع مع كونه هجرا ، إلا أنه على صورة تساعد على تقبله حينا ، والصبر عليه وقتا ما ، ولكن الهجر فى المضجع أشد إفصاحا عن انصراف النفس ، لأنه هجر مع قرب الدواعى وتيسرها .

وبعض الناس يظن أن هذه الخطوة ليست بمجدية ، لأن المرأة مادامت متجهة إلى مخالفة الرجل ، سائرة فى طريق منازعته ، لايهمها أن يبتعد عنها ، بل إن بعض النساء يرين ذلك خيرا لهن ، ولا يعبأن بهذا الأمر ، ولا يبالين كثيرا بأن يحدث أو لا يحدث ، ويزداد هذا الشعور بوجود الخلاف ، فإن الخلاف يجعل المرأة منصرفة عن هذا اللون من المتاع الزوجى الذى

لا يحسن عادة إلا حيث يكون الصفاء وخلو النفس من الأحزان، فكيف يتصور حينئذ أن يكون هـذا علاجا للمرأة فى حالة الخوف من نشوزها وترفعها وامتناعها ؟

وهذا الظن ليس بمقبول ، لأن العبرة بالغالب على طبيعة المرأة ، فإذا كان بعض النساء يرحبن بمثل ذلك فهن ولا شك ناقصات من حيث التكوين الجنسى ، وأولئك قليلات ، والشأن فى العلاج أن يبنى على الحالات الغالبة ، لا على الحالات الشاذة .

ثم إن هذ العلاج ، ليس مقصودا لذاته ، ولكنه مقصود لتتخذ منه الزوجة دليلا على امتعاض الزوج من تصرفها ، فإذا كان الزوج بعد عصيان نصحه ووعظه ، يبدو متلهفاً على زوجته ، ويصلها فى مضجعها متأثرا بدوافع شهوته ، فإنه بذلك يظهر بمظهر غير جاد ، ويجعل الزوجة تشعر فى أعماق نفسها بأنها أقوى منه ، وأكبر تأثيرا عليه ، وأن لديها من المقـــدرة على تطويعه أعظم مما لديه ، وهنا تفسد الخطوة الأولى ، وتضيع هباء ، وبذلك يتبين أن هذه الخطوة الثانية لو أديت على وجهها ، وفى وقتها المناسب لها ، تكون خطوة فعالة ، وأنها على الأقل تكون سنادا طبيعيا للخطوة الأولى ، وإلا كان الرجل متصنعاً فى نصائحه وعظاته ، ممثلا لدور الغاضب أو الآسف ، بينما هو الراغب الطالب .

الخطوة الثالثة :

« واضربوهن » :

* ولكن ينبغى أن يُعلم أيضا أن أسلوب الهجران الزوجى لا يمكن أن يستمر طويلا ، فإن له بمقتضى الطبيعة البشرية مدى لا يحتمل الزوجان أكثر منه ، فهو إما أن يؤدى الغاية منه سريعا ، وإما أن يُعلم أنه هو أيضاً

غير مفيد فى تطويع هذا الإباء ، وتقويم هذا الاعوجاج ، وهنا تأتى الخطوة الثالثة ، لأن الخلاف قد انتقل من طور البوادر الأولى ، وامتحن بالخطوة الثانية فأسفر الامتحان عن ثباته وتمكنه ، وأنه يوشك أن يعصف بالزوجية ، وأن يجر إلى مشكلات الفرقة والشتات ، وقد يكون فى هذه الأسرة أولاد ، وقد تحدث خصومات تجر إلى خصومات ، وكوارث تجر إلى كوارث ، وهكذا كما هو شأن الطلاق الذى هو عند الله أبغض الحلال ، لما يحمّله الناسَ من أثقال .

رد على وهم :

وهذه الخطوة الثالثة هى تأديب المرأة بالضرب ، وبعض المولعين بنقد الإسلام يستفظعون هذا اللونَ من العقوبة ، ويعتبرونه توحشا ، ويقولون إنه إنما يصلح للقرون الأولى ، لا للعصور المدنية والحضارة ، ولكنهم فى هذا النقد غير منصفين ، وقد أثرت عليهم فيه عوامل خاصة بالبيئة التى طغى فيها النساء حتى أصبحن هن الحاكمات على الرجال ، والمتحكمات فى شئون الأسرة ، فقد درج هؤلاء على المبالغة فى تدليل المرأة ، وإسباغ ألوان من الاحترام عليها ، حتى أفسدوا ذوقها وأذواق من يتصلون بها ، فإن لكل شىء حداً والإسلام لا ينكر على المرأة كرامتها ، ولكنه يقف بها عند حدّها الذى رسمه لها ملاحظاً فيه دورها فى المجتمع ، ووظيفتها التى تتناسب وطبيعتها وحاجة الناس إليها ، وهذا الدور يقتضى أن تكون تحت قوامة الزوج ، لما بيناه من أن ذلك هو الموافق للطبيعة ، ولما اكتسب كل من الرجل والمرأة من صفات خِلقية وخُلقية ، فهل ترى الإسلام يقرر ذلك ويجعله مبدأ من مبادئه ، ويرتب عليه سائر أحكامه ، ثم لا يحيطه بما يكفل تنفيذه واستقراره والخضوع له ؟ وهل تراه يترك المرأة تنساق على هذا

النحو الذى وصفناه فى المراحل الثلاث ، إلى إفساد زوجية ، وتشريد أبناء وبنات ، وتحطيم قلب ، وتخريب بيت ، وجر لألوان من المشكلات ، كل ذلك فى سبيل أن نعفيها من لطمة أو صفعة من زوجها ؟ وأىّ ذلك أخف على المجتمع ضررا ، بل عليها هى وعلى زوجها وأولادها ؟ أحدوث ذلك كله ، أم الحيلولة دونه بهذا اللون من التأديب ؟

ثم إن هذا الضرب المأذون فيه إنما هو الضرب الخفيف ، فقد وصفته السنة بأنه « غير مبرّح » وقد ألف الناس أن يؤدبوا بمثله أبناءهم وبناتهم ، صغارا وكبارا ، فلا يكون ذلك وحشية ولا إهانة ، وإنما هم صوروه كذلك لأنهم ضخموه ، ثم نقدوه لأنهم ضخموا إحساس المرأة به ، ولو رجعوا إلى الطبيعة لدلتهم على أن تمتع من له الرياسة بلون يكون له حقّ العقوبة به حين لا يجدى غيره ، ويصلح به ما يخشى فساده ، هو أمر ضرورى لمصلحة الرئيس والمرءوس كليهما ، ففى بعض الأحيان يجب علينا أن نحمى أبناءنا وأحبابنا من أنفسهم ومن مصير سيء ينتظرهم ، وهم عنه غافلون .

وما هذا النقد وأمثاله إلا انسياق مع الأوهام ، ومحاولة يقصد بها بعض الناس أن يثبتوا لأنفسهم صفات التهذيب والتمدن ، ولو على حساب الطبيعة والواقع وما تصلح عليه الحياة .

* * *

هذه هى الخطوات الثلاث التى يخطوها الأزواج فى إصلاح الزوجات اللاتى يخافون نشوزهن .

وقد أرشدت الآية الكريمة ، إلى أنه لا يجوز أن يُنتقل من خطوة إلى خطوة إلا إذا لم تنجع الخطوة السابقة ، وذلك هو قوله تعالى بعد ذكر

هذه الخطوات : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » ، ومعنى ذلك أن المرأة إذا فاءت بالنصح والوعظ إلى رشدها ، وأخذت فى طريق الطاعة والتزام الوضع الزوجي الذى وضعه الله ، فإنه لا يجوز للزوج أن يبغى السبيل الثانية ، أو يقفز إلى السبيل الثالثة ، وإلا كان ظالما متجنيا متعرضا لعقوبة الله إذا ظهر أنه أساء استعمال هذه السلطة ، التى جعلها فى يده للإصلاح بالمعروف ، لا للتحكم ، ولا للإذلال . وما أبلغ ماذيلت الآية به فى ذلك حيث تقول « إن الله كان علياً كبيراً » أى فهو أعلى منكم سلطانا ، وأكبر قدرة ، فلو تجاوزتم حدودكم فيمن جعل الله تحت أيديكم ، فإن الله أقدر على عقوبتكم ، وسلطانه أعلى من سلطانكم .

(ب) نشوز الرجل وكيف يعالج :

وهذه هى « الحالة الثانية » من أحوال الخلاف بين الزوجين ، وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها فى قوله تعالى :

« وإن امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفسُ الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ، ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما ، وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سَعته ، وكان الله واسعاً حكيما »[1] .

١ — تقدم تفسير النشوز ، وهو بمعناه الذى ذكر فى المرأة مقصود هنا ، فقد يجنح الرجل إلى لون من ألوان الترفع على المرأة والاستكبار ، وقد عطف على هذا شيء آخر هو الإعراض ، وهو ميل الرجل عن

---

(١) الآيات من ١٢٨ إلى ١٣٠ من سورة النساء .

المرأة ، لا لتكبر منه أو ترفع ، ولكن لسبب آخر ، قد يكون كراهية لها مبعث طبيعي يرجع إلى نقص فيها ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى الزوج نفسه ، واعتلال ذوقه ، وعدم اتفاق أخلاقه مع أخلاقه ، فليست المرأة دائماً هي العلة في عدم التوافق ، بل قد يرجع ذلك إلى الرجل .

فإن امرأة خافت من بعلها أحد هذين ، أي توقعته وبدرت البوادر الدالة عليه ، فلا جناح عليهما أن يتفاهما فيتصالحا على وجه من الوجوه ، ومعنى ذلك أن الله تعالى يريد من الزوجين أن يحاولا حل مشكلتهما بنفسهما دون أن يُدخلا بينهما أحداً ، فإن ذلك أقرب إلى أن يصلا إلى هذا الحل لو اتجها إلى سر الكراهية اتجاها مباشراً ، وكان الإخلاص لهما رائداً ، فإذا لم توصلهما هذه الخطوة إلى حل المشكلة ، فليس في الكلام ما يمنع من أن يستعينا ببعض أقاربهما أو أصدقائهما ، لأن الآية تقول : « فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً » ، وفي قراءة : « أن يصَّالحا » أي يتصالحا ، وإحداث الصلح أو التصالح يكون بأحدى الطريقتين ، إما بالتفاهم المباشر ، وإما بتوسيط من يعينهما على ذلك .

وهذا الصلح أو التصالح يكون بأن يتنازل أو يتقدم أحدهما لصاحبه بما يرضيه عن طيب نفس ، فقد يرضى المرأة أن يحتفظ بها الزوج الذي يكرهها ، على أن يقوم بحقوقها المعيشية في بيته ، أو في بيت يُعده لها خاصة ، وترى ذلك خيراً لها من أن تُطلق ، أو تبتعد عن أولادها ، أو تتعرض لكراهية زوجها نشوزاً أو إعراضاً ، فإذا رضيت بذلك فهو حل صالح بشرط أن تكون مطمئنة إليه ، عارفة أن ذلك خير لها ، وإذن فقد تنازلت هي عن بعض حقها ، ورضي الزوج بأن يبقيها ويقوم بجميع نفقاتها مع كونها غير موافقة له .

وقد يتصالحان على الطلاق بعوض، فيعطيها الرجل مالا ومتاعا، أو تتنازل هى له عن شىء من مالها أو من صداقها ، فلا جناح عليهما فى ذلك إذا تراضيا عليه .

٢ ً ــ وفى الآية الأولى بعد بيان هذا الحكم إرشاد للزوجين كليهما بأن يؤثرا الصلح بينهما على وجه من الوجوه ، دون أن يترافعا أو يتخاصما فإن العادة جرت بأن نفور الرجل من المرأة يكون لأسباب ـ فى الغالب ـ من النوع الحساس ، والتخاصم فى مثل هذه الحالة يكون عَرْضاً لأسرار الأسر فى صورة صادقة أو كاذبة على القاضى أو من يقوم مقامه ، وقد يؤدى الموقف إلى كثير من المشكلات بين أقارب الزوج والزوجة ، فربما تعرض الزوجُ فى سبيل عرض مشكلته إلى ما يسىء الزوجة فى نفسها ، ويسىء أقاربها تبعاً لذلك ، فيغضبون ويفكرون فى الانتقام من الزوج ، وربما تعصب للزوج أيضاً أقاربه ، فيتسع مجال النزاع ، ولهذا أرشد الله كلا من الزوجين إلى ما هو خير وأولى بهما ، وهو التفاهم بينهما والتراضى ، فقال : « والصلح خير ».

ولعل فى هذا ما يوحى بأن الشارع لا ينظر بعين الرضا إلى ما يدعو إليه بعض الناس فى عصرنا من التزام أن يكون الطلاق أمام القضاء ، وألا يأذن به القاضى إلا إذا كان له أسباب تبرره .

والحق أن هذه دعوة منافية للمصلحة ، وأنه لو استجيب لها لجرّت على المجتمع كثيرا من الوبال ، وحسبنا أن المرأة التى يُحكم لزوجها بطلاقها ستكون بعد هذا الحكم منظورا إليها من الناس بنظرات الشك والتظنن ، فلا تكاد تجد من يقبل عليها من الأزواج .

ولا يصح أن يعترض على ذلك بأن الإسلام يبيح للمرأة أن تطلب

الطلاق من زوجها للضرر ، وبأنها فى سبيل إثبات هذا الضرر كثيرا ما أفاضت وتعرضت لأسرار، وأن الأزواج يلاقون من ذلك الشيء الكثير فلا يضرهم ولا يجعل الناس ينظرون إليهم نظرات التظنن أو الاحتقار - نقول: لا يصح أن يُعترض بذلك ، لأن هذا قياس مع الفارق كما يقولون ، فإن وضع المرأة فى المجتمع يجعل شرفها وأمرها كله عرضة للتأثر السريع ، ولا كذلك الرجل .

٣ً — ثم حذرتهما الآية من العقبات النفسية التى قد تحول بينهما وبين إتمام هذا الصلح ، فالعادة جرت بأن الصلح يحتاج إلى تقابل من الطرفين وتلاق فى منتصف الطريق ، فهذا يضحى بعض التضحية ، والآخر يبادله تضحيته بمثلها أو بأكثر منها ، ولكن النفوس يحضرها الشحُّ والضنّ فليس من اليسير أن تبذل أو أن تتنازل، فعلى الزوجين أن يقاوما فى نفسيهما هذه الموانع النفسية ، وعلى الرجل فى ذلك القسط الأوفر ، فإنه بحكم وضعه من أول الأمر هو الطرف الباذل ، ثم هو الذى نشز أو أعرض أو اتجه إلى هذا النشوز أو الإعراض، فبدرت منه بوادره، فمن حق الزوجة عليه أن يرضيها ، وألا ينسى مكانتها منه ، وماضيها معه ، ولذلك يقول الله عز وجل : « وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » ، فالخطاب للأزواج ، وهو ترغيب لهم فى أن يتناولوا هذا الأمر تناولا حسنا يخفف وقعه على الزوجات ، وتحذير لهم من أن يخرجوا فيه عن حدود التقوى والخوف من الله ، فيشتدوا حيث لا موجب للشدة ، أو يسرفوا فى الادعاء على الزوجات ، أو يجمدوا عن بذل ما يصلح نفوسهن ، ويبعث فيها الرضا والقبول .

٤ً — ولما كان أكثر ما يبعث الكراهية نشوزا أو إعراضا فى قلب الرجل ، هو اتجاهه إلى زوجة أخرى ، فإن الآية الثانية جاءت بإرشاد

مبنى على هذا الفرض : ذلك أن من المحال على الرجل أن يعدل بين امرأتين لأن العدل ميزان يقتضى أن يكون هناك تكافؤ تام بين طرفين ، فإذا استطاع الرجل أن يحقق هذا التكافؤ بين الزوجتين فيما يعد من مظاهر السعادة الزوجية ، كالنفقة ، والكسوة ، والمبيت ، والبشاشة ، وحسن المعاملة ... فإنه لا يستطيع أن يحقق هذا التكافؤ ، أو هذا التوازن فى الميل القلبى والمحبة الزوجية ، التى من شأن المرأة أن تحس بها بمقتضى غريزة الأنثى ، فالله تعالى لا يتحدث عن غير المستطاع ، فإنه لا تكليف إلا فى حدود الاستطاعة ، ولكنه يقرر أولا هذه الطبيعة ، ليكون تقريرها تمهيدها لما يأتى بعدها ، ثم ينهى عن أن يميل الرجال كل الميل عن زوجاتهم إذا كرهوهن ، فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرأة كالمعلقة ، فلا هى بزوجة تنال حقوقها الزوجية كاملة ، ولا هى بمطلقة تلتمس السعادة الزوجية فى تجربة أخرى ، ولا شك أن الإنسان يستطيع أن يعالج نفسه فى هذا الشأن ، فيصل إلى تلطيف حدته العاطفية ، ويخفى جانباً كبيراً من ميله النفسى ، وذلك بأن يجبر نقصه العاطفى بالتلطف فى المعاشرة ، والتحايل بمختلف أساليب الرقة واللباقة ، لكيلا يجرح شعور المرأة ، فهذا فى الحقيقة نهى عن الاسترسال فى عاطفة البغض ، وعن تغذيتها بما يقويها ويجعل الزوج يميل كل الميل عن زوجته فيؤذيها .

وقد جاء ختام هذه الآية أيضاً ترغيباً للرجال فى الإصلاح ومحاولة كل ما يؤدى إليه ، وتحذيراً من الخروج على أمر الله بالظلم والتمادى فى الإساءة ، وذلك ما يؤخذ من قوله تعالى : « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما » ، أى فهو يغفر لكم ما عسى أن يكون من انسياق أحياناً مع دواعى الميل القلبى ، إذا كنتم تجاهدون ذلك حسب استطاعتكم ، رحمة بكم .

خطأ مشهور :

وبعض الناس يركب من هذه الجملة والجملة التى جاءت فى آية التعدد قياساً ، فيقول : إن الله تعالى نهى الرجال عن التعدد إذا خافوا العدل ، ثم قرر أن العدل بين النساء مستحيل على الرجال ، فالنتيجة أن التعدد منهى عنه .

وهذا شبيه بما يسمى فى علم المنطق « بالسفسطة » ومثله كمثل أن يشار إلى رسم مصور لفرس ، ثم يقال : هذا فرس ، وكل فرس صاهل ، فهذا صاهل ، وإنما جاء الكذب فى النتيجة من أن « الفرس » فى القضية الصغرى ، غير الفرس فى القضية الكبرى ، فإن الذى فى الورق ليس فرساً ، وإنما هو صورة فرس ، والذى يصهل ليس من أفراده الذى فى الورق ، ولكن الذى فى الخارج ، حيوانا متحركا ذا حياة .

وكذلك هنا : فخوف العدل فى قوله « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » هو خوف الرجل من عدم القيام بحقوق الزوجات على سنة التوازن الدقيق ، والتكافؤ التام ، وهذا إنما يتصور ملاحظته فى التكليف إذا فسر بالعدل فيما يملك الزوج من النفقة وتوابعها ، ومن مقاومة الميل التام عن إحدى الزوجتين لتلطيف حدته ، وإلا كان إدخاله فى نطاق التكليف واشتراطه فى إباحة الحكم عبثاً ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ـ أما العدل فى قوله جل شأنه « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، فهو المساواة فى الميل القلبى والحب ، أى توزيع العاطفة القلبية على الزوجات بالقسطاس المستقيم ، وذلك هو المحال المنفى بحرف « لن » ، والدليل على ذلك أنه أتبع بقوله تعالى : « فلا تميلوا كل الميل » أى لا أكلفكم العدل المطلق فى ذلك فهو محال ، وليس من شأنى أن أكلفكم محالا : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » [1] ولكن أكلفكم

---

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

ما هو فى وسعكم ، وذلك هو عدم الاسترسال فى الميل وتغذيته بما يقويه ويجعله ميلا تاما ، وبهذا يتبين أن العدل المشترط هو العدل فيما يملك الرجال ، وأن العدل المنفى هو العدل الذى لا يستطاع .

وإنما أوضحنا هذا مع اشتهاره فى كتب التفسير ، ومع دلالة الروايات المروية فى أسباب النزول عليه ، لأننا أردنا أن يعلمه الذين تعودوا أن يثيروا هذا الاحتجاج بمن لا يقرءون كتب التفسير ، ولا يتيسر لهم فهم أسلوبها .

٥ — وقد جاءت الآية الثالثة بعد ذلك بالخطوة الأخيرة ، حين يتعذر الصلح ، ولا يكون هناك إلا التفرق بين الزوجين ، والتماس كل منهما حياة أهدأ ، فى ظل زوجية جديدة ، وهذا هو قوله تعالى : «وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً» .

ومما ينبغى الالتفات إليه ، أن سورة النساء فى هذا كله ، وفى غيره من أحكام الزوجية ، لم تذكر الانفصال الزوجى إلا فى هذه الآية ، وهى آخر آية عرضت فيها السورة لشأن زوجى ، ثم هى لم تذكر طريقة الطلاق ، ولا أحكامه وتفاصيله ، كما جاء فى سورة البقرة مثلا ، وذلك لأنها السورة التى تبنى نظام المجتمع ، فهى تشرع كل ما يتصل بهذا البناء ، أما إذا انتهى الأمر إلى أن يتفرق كل من الزوجين عن صاحبه ، فهذا ماتمر به السورة مرا وما تقرنه بفتح باب الأمل فى أن يغنى الله كلا من سعته ، حتى لا يتحطم فرد من المجتمع لهذه المصيبة إذا نزلت به ، وحتى يدرك من يقع له ذلك ، أن هذا هو مصلحته ، وفيه الخير المرجو له ، فإن الرجاء فى استقبال حياة جديدة ، خير من العيش فى حياة كلها كراهية ونزاع ، ولذلك تذكر الآية فى ختامها ما يبعث الأمل ، وهو وصفه تعالى بأنه كان — ومايزال — «واسعاً» ، وتذكر أيضاً ما يدل على أن الافتراق فى مثل هذه الحالة هو عين الحكمة ، وذلك هو وصفه تعالى بقوله «حكيما» .

وإذن فهذا أيضاً بناءٌ فى المجتمع أو هو عصمة من أن تنهار نفوس هى لبنات فى بناء المجتمع، أما تفاصيل هذا الافتراق وأساليبه وأحكامه التشريعية، فقد تركته سورة النساء لغيرها .

(ح) حالة الشقاق بين الزوجين :

وتلك هى الحالة الثالثة من حالات الخلاف بين الزوجين ، وقد جاء حكمها فى قوله تعالى :

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حَكَمًا من أهله وحَكَمًا من أهلها، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا » [1] .

قد تقدم أن الحالة الأولى هى حالة الخوف من نشوز الزوجة ، وأن الحالة الثانية هى حالة الخوف من نشوز الزوج أو إعراضه ، وأن التشريع لهاتين الحالتين انبنى على اعتبار كل منهما مشكلة تحل عن طريق أحد الزوجين وما يتوسل به إلى إصلاح الآخر من تأديب أو تصالح ، أما هذه الحالة فهى حالة الشقاق الذى يُخاف أن يكون بين الزوجين ، على المعنى الذى ذكرناه فى نظيريه ، من أن المراد بالخوف توقع الحصول بسبب ما يبدر من بوادر تؤذن بذلك ، وقد جاء التعبير عن هذا الخلاف بأسلوب إضافة الشقاق إلى « بينهما » ، وذلك قوله تعالى « شقاق بينهما » فقد أضيف الشقاق إلى الظرف ، وقالوا إنه إما بمعنى : شقاقا بينَهما ، أو بمعنى أن البَين جعل كأنه يحدث منه مُشاقة .

والتفسير الثانى هو الأقوى ، لأنه لا يريد أن يقول : إن خفتم شقاقا ما فابعثوا حكما . . الخ ؛ فإن الشقاق اليسير يُترك للزوجين ولا يحتاج الأمر فيه إلى بعث حَكَمين ، وإنما المراد هو خوف أن يصبح الشقاق هو قاعدة

---

(١) الآية ٣٥ من سورة النساء .

التعامل بين الزوجين ، وهذا يفيده جعل البَين نفسه مصدراً للشقاق ، كأن مجرد النسبة القائمة بينهما أصبح هو بذاته مثار الشقاق والنزاع ، وهذا موقف إن دلت الدلائل على أنه قريب الوقوع ، كان على الأمة أو على ولاة الأمر فيها ، أن يتداركوه قبل أن يكون ، وأن يعالجوه بأن يبعثوا حكماً من أهل الزوج ، وحكماً من أهل الزوجة ، كي يدرسا أمر الزوجين ، والصعاب التى توشك أن تعصف بما بينهما ، ويحاولا تذليلها ، وإصلاح ذات البين إذا أمكنهما ذلك ، وإنما جعل الحكمان من أهلهما لأن أهل الزوج والزوجة هم أقرب الناس إليهما ، والأمر فى نجاح هذه الزوجية أو فشلها ، ذو أثر فيهم على نحو ما ، وهم أدنى إلى الإخلاص فى حل مشكلة الزوجين ، وكل طرف منهما يمثل واحداً من الزوجين ، ويتحدث باسمه دون أن يكون الحديث صادراً من الزوجين ، ففى ذلك ابتعاد عن أسباب التوتر والمراء والمعاتبة التى قد تفسد مشروع الصلح إذا خرجت عن حدها ، وكثيرا ماتخرج .

وهذه الصورة من صور الخلاف ، تأتى فى المرتبة الوجودية عادة بعد حالة نشوز المرأة ، واستنفاد كل الوسائل من الرجل فى سبيل إصلاحها ، ومعنى ذلك أن كل العقوبات لم تفد تقويم النشوز ، وأن الأمر بعد ذلك قد دخل فى دور عناد وشقاق ، كما جاء فى آية أخرى تقول : « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله » [1] وعدمُ إقامة الزوجين حدودَ الله ، تبدو فى إخراجهما الزوجية عن كونها مودة ورحمة وسكنا ، على ما جاء فى قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [2] .

---

(١) الآية ٢٢٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢١ من سورة الروم.

ولهذا جاءت بها السورة بعد حالة نشوز المرأة ، وبعد بيان خطوات العلاج ، فهى تفرض أن هذا كله لم ينجع ، وأن الأمر صائر إلى شقاق ذات البين .

هذا وقد بينا فى « الآيات الموجهة » ما يدل عليه قوله تعالى : « إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » من توجيه عملى واعتقادى ، فارجع إليه [1] .

المحرمات من النساء
وبيان الحكمة فى تحريمهن :

٣ — وكما انفردت « سورة النساء » بكثير من أحكام المجتمع ، ولاسيما أحكام الأسرة والزوجية ، على ما بينا ، انفردت ببيان أمر هام له صلته الوثيقة بطبيعة الحياة الزوجية ، وما يجب من توفير أسباب القرار والتوطد لها ، وإبعاد الأوضاع التى من شأنها أن تتعارض معها . وذلك هو ماجاءت به من بيان مفصل للمحرّمات من النساء :

أ — ابتدأ هذا البيان بالنهى عن نكاح ما نكح الآباء على ما كان يفعله أهل الجاهلية ، وذلك قوله تعالى :

« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » [2] .

وقد وصف الله هذا النكاح بأوصاف ثلاثة ، وفى ذلك يقول الإمام الرازى فى تفسيره لهذه الآية :

---

(١) ص ١٨٤ من هذا الكتاب .
(٢) الآية ٢٢ من سورة النساء .

« مراتب القبح ثلاث : القبح العقلى ، والقبح الشرعى ، والقبح العادىّ » ، وقد وصف الله سبحانه هذا النكاح بكل ذلك : فقوله سبحانه « فاحشة » إشارة إلى مرتبة قبحه العقلى ، وقوله تعالى « ومقتا » إشارة إلى مرتبة قبحه الشرعى ، وقوله « وساء سبيلا » إشارة إلى مرتبة قبحه العادى . » اهـ .

ولا شك أن توارد رجل وابنه على امرأة واحدة ، أمر ممقوت تنفر منه الفطر المستقيمة ، وتمجه الأذواق السليمة ، وفيه مع ذلك إخلال بما ينبغى من احترام ذكرى الآباء ، وإشعارٌ للمرأة بأنها كالمتاع الذى ينتقل بالميراث من الوالد إلى ولده ، وبأن هذه الزوجية الجديدة لم تقم عن رغبة وقصد ، وإنما هى عن مصادفة ليس لأحد الزوجين دخل فيها ، فكل ذلك من شأنه أن يجعل هذا الاقتران كريها فاحشا ، وأن تكون سبيله سبيلا سيئة لا تنتهى إلى خير لا فى المعيشة الزوجية ، ولا فى السلالة والذرية .

وقد دلت الروايات التى رويت فى ذلك على أن تزوج الأبناء ما نكح آباؤهم كان معروفاً مألوفاً عند العرب ، وأن هذه السيرة كانت فى الأنصار، كما كانت فى قريش ، وذكروا بعض من تزوجوا بنساء آبائهم ، ومنهم عمرو ابن أمية ، فقد تزوج امرأة أبيه بعد موته ، فولدت له ولدين هما « مسافر » و « أبو مُعَيط » ، وكان لها من أمية ـ زوجها الذى مات ـ أولادٌ منهم « أبو العِيص » فكان بنو أمية إخوةَ مسافر وأبى معيط ، وأعمامَهما فى وقت واحد ، وقد ذكر القرطبى هذا فى تفسيره للآية ، وعدّ أحوالا مشابهة من هذا النكاح ، وذكر أنه استمر حتى نزل التحريم فى هذه السورة (١).

وقوله تعالى : « إلا ما قد سلف » استثناء يراد به أن يَطمَئن الذين فعلوا ذلك من قبل على أنهم غير مؤاخذين بما فعلوا ، وفيه إيحاء بأنه كان

---

(١) ص ١٠٤ ج ٥ من تفسير القرطبى

ينبغى أن يجتنب لكونه فاحشة تدركها العقول، وتنفر منها النفوس الكريمة، لولا أن الله تعالى لا يؤاخذ الناس إلا بعد التكليف والتشريع.

٢ — ثم جاءت السورة ببقية المحرمات فى قوله تعالى:

«حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم، وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، إن الله كان غفوراً رحيما، والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم»(١)

وقد تكفلت كتب الفقه والتفسير ببيان المحرمات تفصيلا، وما يدل عليه النص منها وما يلحق به استنباطا أو بالسنة، فلا نطيل بذكره، غير أن هنا أمرين ينبغى أن ننبه إليهما:

أحدهما: أن سرّ هذا التحريم يرجع إجمالا إلى أن للزوجية أحكاما ومقتضيات تنافى مالهذه القرابات والصلات من أحكام ومقتضيات، فلو أبيح نكاح هؤلاء النساء لاصطدمت الحقوق المتعارضة، واللوازم المتنافرة، على وجه يقلق البيوت والمجتمعات، ويؤدى إلى قطع ما أمر الله به من الصلات.

فالأم مثلا لها حقوق على ولدها: أن يحسن إليها، ويبالغ فى برها وإكرامها، فإذا اتخذها زوجة له كان عليها هى أن تخضع له وأن تتقبل قوامته عليها كما هو شأن الزوجة مع الزوج، وإذا خاف منها نشوزا فإن له أن يقوّمها بما شرع الله له، ومنه الضرب إذا لم يصلحها ما قبله

(١) الآيتان ٢٣، ٢٤ من سورة النساء.

من العقوبات ، فكيف يضرب الولد أمه ، وكيف يسىء إليها وهى التى حملته وهنا على وهن ، وأوصاه الله ورسوله بإكرامها وبرّها ، هذا إلى ماهو غنى عن البيان من نفور الإنسان من هذا اللون من المتاع ، فهى بهيمية أىّ بهيمية أن يتمتع الرجل بأمه ، ومثل هذا يقال فى درجات القرابة الأخرى ، فالخالة لها ما للأم ، والعمة لها ما للأب ، والأخت وبنتها وبنت الأخ ، وابنة الإنسان التى هى قطعة منه ، كل هؤلاء تستقبح الأذواق نكاحهن وافتراشهن ، ولا يمكن أن يُتصور فى هذا الوضع لو أبيح إلا المفارقات والصعاب وضعف النسل ، وسوء المنقلب .

ومثل هذا أيضاً يقال فى نكاح من حرّمن من جهة الرضاع ، فإن المرضع أمٌ فى الكرامة ولها حق الأم فى وجوب الرعاية ، وليس من شأن الإنسان أن يلتمس منها ما يلتمسه الرجل بالزوجية .

وهكذا يقال فى الأخت الرضاعية التى اشتركت مع أخيها فى ثدى امرأة واحدة ، فمن المناسب أن تعامل معاملة الأخت من النسب .

ولا يخفى كذلك ما فى تحريم التزوج من الربيبة التى عوملت معاملة البنت ، وما فى تحريم التزوج من أم الزوجة ، وما فى تحريم الجمع بين الأختين ، وما فى تحريم حلائل الأبناء الذين من الأصلاب ، فسر ذلك التحريم هو صيانة العلاقات من أن تفسد ، فكيف نتصوّر أن يجمع الرجل بين أخت وأختها ، أو بين أمّ وبنتها مع أن المرأة عادة تغار حتى من الغريبة عنها ، ولو أن ذلك أبيح للرجل لتشككت المرأة فى أختها ، وفى أمها ، ولأدركها نوع من الغيرة الشديدة فانقطعت بذلك صلاتها من النسب . وتعرضت بذلك الأسر إلى خطر شديد .

ثم كيف نتصور أن يباح للرجل أن يتزوج بحليلة ابنه ، وهل ذلك

إلا كتزوج الابن بزوجة أبيه ، إن فى كليهما لخطراً على العلاقة بين الابن والأب ؛ ليس من الحكمة تعريض المجتمع له .

الثانى : أن الله تعالى يقول : « والمحصنات من النساء إلا ماملكت أيمانكم » والمراد تحريم النساء ذوات الأزواج ، فإن المحصنة تطلق بمعنى العفيفة والحرة والمتزوجة ، وكل ذلك لمناعتها ، فالتعبير كأنه مأخوذ من الحصن وهو المكان المنيع ، ولا يمكن حمله على العفيفات هنا ، لأنه حينئذ يكون تحريما لأن يتزوج الرجل من المرأة العفيفة ، ولا يمكن كذلك أن يحمل على الحرائر ، فلم يبق إلا أن يحمل على المعنى الثالث ، وهو المتزوجات . وقد استثنى الله تعالى من هذا الحكم صنفاً هو ما ذكره بقوله « إلا ما ملكت أيمانكم » وقد فسر هذا بتفسيرات أحقها بالقبول رأى الجمهور ، وهو أن المراد بهن السبايا اللاتى كان المسلمون يأخذونهن فى الحرب ، ويرون تزوجهن فقد أقرت الآية ذلك ، واعتبرت زوجيتهن السابقة على السبى منحلة ، وقد اختلف العلماء : هل ذلك عام فى السبايا ولو سبى معهن أزواجهن ، أو هو خاص بمن سبيت من النساء دون زوجها ، على أنه ليس فى هذا ما يمنع من أن يرد المسلمون السبايا إذا رأوا مصلحة فى ذلك ، وأن يعاهدوا محاربيهم عليه ، كما أنه ليس فى الكلام ما يدل على أكثر من إقرار هذا الفعل على ما كانوا يفعلونه ، وقد تقدم بيان أسلوب القرآن فى ذلك (١) .

* * *

الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها :

٤ — وجاء فى السورة بعد ذلك من الآيات المقررة لأحكام الزوجية قوله تعالى :

---

(١) راجع ص ٢٨١ من هذا الكتاب .

« وأحل لكم ما وراء ذلك أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليما حكيما ، ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض ، فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ، فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم »[1].

١ً — وقد وقع بين المذاهب خلاف هام فى موضعين من الآية الأولى من هاتين الآيتين :

أحدهما : قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » ، حيث اختلف الشيعة الإمامية مع السنة فى تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها ، فقالت الشيعة بإباحته لأن الله تعالى ذكر المحرمات تفصيلا ، ولم يذكر منها ذلك ، ثم أتى بإباحة عامة لما وراء ما ذكر ، فدخل فى هذه الإباحة زواج المرأة على عمتها أو خالتها ، وقالت السنة : ثبت ذلك فى المروى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد روى مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يجمع بين المرأة وعمتها ، ولا بين المرأة وخالتها » ، قالوا : وما ثبت بالسنة كما ثبت بالكتاب ، وقال بعضهم : بل هذا التحريم متلق من الآية نفسها لأن الله تعالى حرم الجمع بين الأختين ، والجمع بين المرأة وعمتها ، أو بين المرأة وخالتها ، فى معنى الجمع بين الأختين .

ولا شك أن العلة التى قضت بتحريم الجمع بين الأختين هى تعريض الصلة

(١) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة النساء .

الأخوية لما لا تحتمله من المضارة ، وهذا يوجد أيضا فى الصلة بين العمة وابنة أخيها ، والخالة وابنة أختها، وقد اعتبرت الآية صلة الخالة وصلة العمة فى حرمة التزوج ، وفى ذلك إشارة إلى اعتبارهما فى الجمع .

نكاح المتعة :

الموضع الثانى : قوله تعالى : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » حيث اختلف السنة مع الشيعة فى أن فى الآية دليلا على حل نكاح المتعة وهو النكاح إلى أجل مؤقت ، وهل نسخ ذلك أو لم ينسخ ، والمسألة مما وقع فيه الاختلاف بين الطائفتين ، بل بين الصحابة أنفسهم ، وقد اشتهر أن عمر بن الخطاب نهى الناس عن المتعة فى خلافته ، فانتهوا ، فتمسك السنة بذلك وقالوا : إجماع من الصحابة على قبول هذا النهى من عمر ، ولو عرفوا أنها مباحة لما وافقوه على تحريمها ، وتمسك به الشيعة فقالوا : إن عمر قال - كما فى الرواية المشهورة عنه - : « متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة الحج ، ومتعة النساء » قالوا : فأضاف النهى إلى نفسه لضرب من الرأى ، فلو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عنهما ، أو أباحهما فى وقت مخصوص دون غيره ، لأضاف عمر التحريم إلى رسول الله دون نفسه .

وفى الموضوع جدال ، بل نضال كبير بين الطائفتين ، وهناك قدر متفق عليه ، وهو أن ذلك كان مباحاً ، وعمله بعض الصحابة على عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن الخلاف الذى بقى هو : هل نسخ الحكم على عهد الرسول أو لم ينسخ .

أما الآية فهى بالاتفاق محتملة ، وكل من الفريقين يقرر أن ظاهرها مؤيد لما يقول به .

الزواج والبيئة الصالحة :

٢ — والآية الثانية من هاتين الآيتين تقرر حكم الزواج من الفتيات المملوكات لمن لم يستطع للمحصنات أى للحرائر طولا ، وليس بيننا الآن فتيات مملوكات ، ولكنّ فى هذا إرشاداً للأزواج أن يختاروا زوجاتهم ممن عرفن بالعفة والحصانة ، وقد كان المعروف فى العرب أن وسط الفتيات أى الإماء ، ليس هو وسط التحصن والتعفف فى العادة التى كانوا عليها ، بل كان من الفتيات من تخادن ، أى تتخذ لها خدنا أى صاحبا يتمتع بها سرا ، ومنهن من تسافح الرجال ويسافحونها ، ومنهن من كنّ يحترفن البغاء ، فاشترط الله تعالى فى الزواج من الإماء شروطا ، يراد بها تحقيق مصلحة الزوج فى أن يختار مؤمنة ذات حصانة وعفاف ، وليست من المسافحات أو المتخذات الأخدان أى الأخلاء العُشّاق ، ومراعاةُ حق سيدها فى الإذن ، وحقها فى المهر ، وجعل ذلك رخصة لمن خشى العنت ، أى خاف على نفسه الضرر الشديد إذا لم يتزوج منهن ، ومن ذلك أن يخشى على نفسه الزنا بها أو بغيرها ، وقد بين الله تعالى مع كل هذه الشروط أن الصبر ومقاومة الرغبة فى ذلك خير من التعرض لمثل هذه الزوجية .

ولهذا إيحاؤه وتوجيهه لشباب المجتمع ، فإن الله تعالى يرشدنا بذلك إلى أن نختار الزوجات من البيئات الصالحة التى تغلب فيها العفة والحصانة ، وألا ننسى الاحتياط والحذر ، إذا اضطررنا إلى أن نتزوج من بيئات يغلب عليها التحلل وعدم الحفاظ ، حتى لا نندفع دون تبصر .

وفى هذا أيضاً توجيه للنساء أن يتكملن ، وأن يعتصمن بأخلاق الشرف والتصون والعفة .

٧ — قاعدة التعامل المالى

يقول الله تعالى فى سورة النساء :

« يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » (١) .

وكلامنا فى هذه الآية يرجع إلى ما يأتى :

التعامل المالى شأن أساسىّ :

١ — إن التعامل المالى شأنٌ أساسىٌّ من شئون المجتمع ، فلا يمكننا أن نتصوّر مجتمعاً لا تبادل فيه ولا تعامل ، لأن الإنسان ـ كما يقولون ـ مَدنىٌّ بالطبع ، واحتياجه إلى غيره نتيجة حتمية لنقصه فهو يكمل هذا النقص بالتعاون مع الآخرين ، وما التبادل إلا أسلوبٌ من أساليب التعاون ، ولو تصوّرنا بطلان التعاون والتبادل ، لكان كل فرد من أفراد المجتمع كأنه يعيش وحده فى فلاة من الأرض ، أو جبل منقطع ، ولكان عليه أن يقوم بنفسه بقضاء جميع حاجاته، ولا يمكن أن يتسع وقته ، ولا أن تحيط قدرته ، ولا أن تتنوع مواهبه ، إلى الحدّ الذى يجعله قائماً بذلك على الوجه الذى يحفظ حياته ، فضلا عن الوجه الذى يحقق سعادته .

الإباحة الأصلية وقانون « الاستيلاء » :

٢ — والأصل فى الموجودات أنها ملك عام لا يختص به أحد ، فهى مخلوقة للناس ، مسخّرة لهم ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (٢) « والأنعامَ خلقها لكم » (٣) « أنزل من السماء ماء

---

(١) الآية ٢٩ من سورة النساء .
(٢) الآية ٢٩ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٥ من سورة النحل .

لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ،[١] «وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه »[٢] .

فقد عمّم الله تعالى فيمن يَملِك فقال « لكم » مخاطباً كل الناس ، وعمّم فيما يملك فقال « مافى الأرض » ، « وما ذرأ لكم فى الأرض » .

لكن الناس لو تُركوا وأنفسهم ، لحاز كل منهم ما يشاء دون قانون حاكم ؛ لتفانَوْا أو اضطربوا اضطرابا شـــديدا ، فكلٌّ من استطاع أن يحوز شيئا بقوّته الجسمية ، أو بما وُهب من سعة حيلة ، فإنه يحوزه ويُغلب عليه ، ويستبد به دون ضابط ، ولهذا كان من ألزم الأشياء للمجتمع أن يكون له قانون عام ينضبط به « الاستيلاء » الذى يسمى بعد استقرار أمره « بالملك » أو « بالاختصاص » .

وهذا القانون إما أن يُبنى على السبق فى الحوز ، فمن سَبَق إلى شىء حازه ـ وهو قانون طبيعى ، لكنه إنما يصلح حين تكون الأشياء ساذجة كأرض فى فلاة ، أوطير فى بحيرة ، أو وحوش أو ظباء أو نحو ذلك ، مما لا تزاحم ولا تسابق عليه ، أو عليه تسابق فى حدود لا تؤدى إلى نزاع أو فساد ـ وإما أن يُبنى على مقابل يبذله من يريد الاختصاص به ، من مال يدفعه ، أو جهد يقوم به ، كصنعة الصانع أو عمل الأجير .

الصناعة والتجارة :

ومن الواضح أن صنعة الصانع مادام قادرا عليها ، وما دام المجتمع فى حاجة إليها ، مِن شأنها أن تُدِرّ على صاحبها ربحا فى صورة مّا ،

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٣ من سورة النحل .

يستطيع أن يتخذه مقابلا للمبادلة عليه ، وقضاء حاجاته بواسطته ، فالصانع من شأنه أن يحوّل بصنعته مالا قيمة له ، إلى شيء له قيمة ، أو ماله قيمة صغيرة إلى ماله قيمة أكبر منها ، واعتماده فى هذا على صنعته ومواهبه ، وقد يحتاج إلى ما يعينه من آلة ، أو أيد مساعدة ، فيحتاج إلى مال يسخره فى ذلك .

وعلى هذا فصنعة الصانع قد تكون جهدا صرفا ، وقد تكون جهدا مؤيدا بمال .

أما التجارة فإنها مزيج من المال والعمل معا ، فلا تكون مالا فقط ، وإلا كانت احتكارا ، ولا تكون عملا فقط وإلا كانت صناعة أو إجارة .

وقد عُرّفت التجارةُ فى اللغة بأنها التصرف فى رأس المال طلبا للربح ، وهى قائمة على اللباقة والحذق ، ولذلك يذكر ابنُ الاعرابى اللغوى أنه يقال : فلان تاجرٌ بكذا ، أى حاذقٌ به ، عارفٌ الوجهَ المكتسب منه [1].

والتصرف فى رأس المال بالتجارة يكون على وجوه ، منها أن صاحب المال يسافر ، أو يجتلب الأشياء من مواطنها ، أو يستصنعها لدى الصناع ، أو نحو ذلك ، وينفق فى سبيل هذا الاجتلاب أو هذا الاستصناع بعض ماله ، وبعض جهده ، وبعض حيلته وتدبيره ، حتى إذا بادل غيره بما اجتلب أو استصنع ، توافر له فرقٌ هو ما نسميه ربحا وكسباً ، فينمو هذا الفرق على حسب النشاط ، أو يضعف بضعفه .

الإسلام يقيم التعامل المالى على أساس التقابل الطبيعى :

٣ — وقد عنيت سورة النساء بوضع قاعدة التعامل المالى ، على أساس التقابل الطبيعى بين ما يأخذ الفرد وما يعطى ، سواء أكان هذا التقابل

---

(١) مفردات الراغب ، مادة (تجارة) .

عن طريق جهد صرف ـ وهو محض الصناعة أو الإجارة ـ أو عن طريق جهد ومال متعاونَين ـ وهو التجارة المالية أو الاستصناع ـ

وجاءت هذه القاعدة فى عبارة موجزة ، شأنَ القواعد العامة المتركزة ، حتى انها لم تتجاوز بعض آية من الآيات القصيرة فى هذه السورة ، وذلك هو ما صدّرنا به هذا الفصل من قوله جل شأنه : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » .

ولكى ندرك هذه القاعدة ونعرف مدى عمومها وطبيعتها وما فيها من تيسير على المجتمع ، وتحقيق للصلاح والعدل فيه ؛ يحسن بنا أن نعرف النقط الآتية :

١ً — عبرت الآية عن الأخذ والامتلاك بالأكل ، فقالت « لا تأكلوا أموالكم » والسرّ فى هذا أن الأكل هو العلة الطبيعية الأولى للامتلاك والحوز ، وهو أهم ما يقصد إليه الحىُّ من الأشياء ، إما مباشرة ، وإما بالواسطة، فكلُّ شىء يملك ، فإنما يُملك ليُؤكل أو ليؤدّىَ إلى ما يُؤكل ، ولم يُنظر فى هذا إلى ما يُلبس أو يسكن مثلا ، اعتدادا بأهم الحاجيات الحيوية ، وهى الأكل .

أموال الأفراد ذات اعتبار عام :

٢ً — والتعبير فى هذه الآية مؤذن بأن الأموال لها اعتبار عام فى نظر المشرّع ، وذلك هو الوضع الطبيعى الذى تحدثنا عنه حين قلنا إن الأصل فى الموجودات أنها للناس جميعاً ، واستشهدنا على ذلك بمثل قوله تعالى : « خلق لكم مافى الأرض جميعا » .

وهذا الاعتبار من شأنه أن يبقى هذا الطابع العام للموجودات ، وأن يخرجها من الدائرة الخاصة إلى الدائرة العامة ، فلا يقال : إن هذه أموال

خاصة بأهلها وهم أصحاب الشأن فيها ، ولكن ينظر إليها على أنها ملك للأمة ، وإن كانت ملكا لأفراد منها .

وهذا يتفق وأصول الاقتصاد السليمة ، فإن ثروة الأمة ليست هى فقط ما تملكه الدولة فى خزائنها ، وما تختص به على وجه من الوجوه ، ولكن الثروة الحقيقية للأمة هى المال العام المتداول بين أفرادها ، والمتحرك فى مختلف ألوان النشاط والتثمير .

وإذا خرجت الأموال عن خصوصها الواقعى ، إلى هذا العموم الاعتبارى ، كان للأمة أن تتدخل فى تنظيمها ووضع القواعد التى تصلحها وتحفظها كثروة عامة تجعل الأمة فى مقابل غيرها من الأمم ، أمة غنية قوية ذات وضع اقتصادى متين ، ثم كان للأمة أن تقدر ما يتصل بهذه الأموال وقواعد تثميرها وإصلاحها من الضرورات والحاجات مقيسا إلى الأمة نفسها ، لا إلى الأفراد فحسب .

والقرآن الكريم يوحى بهذا الاعتبار العام فى كثير من نواحى التشريع ، فهو يخاطب المجموع لا كل فرد من أفراده ، فيقول مثلا : « ولكم فى القصاص حياة » [1] فيخاطب بذلك مجموع الأمة التى يؤدى القصاص إلى تقليل حوادث القتل العمد فيها ، فالحياة نسبت للمجموع العام، لا لفرد معين ، لأن القصاص إذا نظر إليه نظرة فردية كان نقصا لفرد ، وإخراجا له من الحياة إلى الموت .

ومثل ذلك يقال فى قوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم » [2] ، فإذا فسرت الآية بالنهى عن قتل الإنسان غيره ، فقد جُعل ذلك قتلا لأنفس المخاطبين ، وذلك إنما يصح إذا اعتُبرت نفسُ الفرد نفسا للمجتمع ، ويأتى المعنى نفسه

---

(١) الآية ١٢٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٩ من سورة النساء .

إذا فسرت الآية بالنهى عن قتل الإنسان نفسه ـ وهو ما نعرفه بالانتحار ـ فإن الله تعالى إذ ينهى الإنسان عن قتل نفسه ، يعتبر هذه النفس نفسا للمجتمع العام ــ وهكذا .

٣ ــ والتعبير بالظرف وهو « بينكم » فى قوله تعالى : « لا تأكلوا أموالكم بينكم » دال على أن الكلام فى الأموال التى تجول وتتحرك فى وجوه التثمير ، أو التى تتولد من الصناعات أو الجهود ، فكل ذلك أموالٌ بين المجتمع ، وهى موضوع التشريع فى هذه الآية .

ما هو الباطل فى قاعدة التعامل :

٤ ــ والباطل ضدّ الحق ، ولما كان الحقّ هو الثابت المستقل الذى له وجود طبيعىّ فإن الباطل هو مالا ثبوت له ، وما ليس له وجود طبيعى فى الواقع ، ومن تصاريف هذه المادة قولهم : فلان بَطَّال ، أى ذو بطالة ، فهو لا يقوم بعمل يبذل فيه جهدا ، وقولهم : « بَطَلَ دمُه » إذا قُتِل ولم يحصل له ثأر ولا دية [١] .

فقوله تعالى « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » معناه : لا تستحلوا امتلاك الأموال الدائرة فيكم بغير مقابل .

وإذن فكل مال من الأموال التى يتعامل عليها الناس فيما بينهم ، لا يصح امتلاكه إلا بمقابل ، فإذا لم يكن له مقابل كان محرما ، وهذا يشمل تحريم الربا ، والغش ، والغصب . . الخ ، لأنها كلها امتلاكات لا مقابل لها من عمل أو سعى .

---

(١) مفردات الراغب : مادة (بطل) .

على أى معنى استثنيت التجارة :

٥ ــ وقد استثنى الله تعالى من هذا النهى صورة واحدة ، فقال « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » وقد اختلف فى هذا الاستثناء ، فقيل : هو استثناء منقطع ، وعليه أكثر المفسرين ، وقيل انه متصل .

فعلى الأول يكون المعنى : لكن كون الأموال تجارة هو المبيح لأكلها ، ولما كان ظاهر هذا أنه تحريم لجميع أنواع المال ما عدا التجارة قالوا : إن الله حرم أولا ما يؤخذ من الأموال عامة كالهدية والهبة ، ثم نسخ هذا التحريم بما جاء فى سورة النور من قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم »[1]

وعلى الثانى يكون المعنى : لا يحل لكم أكل الأموال بغير مقابل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، فيحل لكم ذلك ، وقد فسر هذا بأن التجارة تبادل عوض بعوض ، ولا يمكن أن يكون التقابل تاما كاملا فيها ، فلا نستطيع أن نحكم بأن هذه السلعة ثمنها هو كذا قطعا ، بالميزان الدقيق المطابق للواقع ، فالشأن أن تزيد السلعة بعض الزيادة على الثمن أو العكس ، وكل تجارة فيها هذا الفرق عادة ، فهذا الفرق حلال ولا يدخل فى التحريم المقرر بالجملة السابقة على الاستثناء .

وقد اختار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده هذا الوجه الأخير وأيده وأبطل الوجه الأول الذى يقتضى أن جميع الكسب كان محرما أولا ثم نسخ

---

(١) الآية ٦٠ من سورة النور .

ذلك ، وقال : « إن هذا افتراء على الدين لا أصل له ، ولا يعقل أن تكون الهبة محرمة فى وقت من الأوقات ، ولا ما فى معناها كإقراء الضيف »(١) .

رأى إصلاحى جديد :

٦ — وأنا أوافق الأستاذ الإمام رضى الله عنه فى رفضه القول المؤدى إلى تحريم الهبة ونحوها فى وقت ما ، وإلى أن الآية منسوخة بما جاء فى سورة النور .

ولكنى أعرض رأيا فى الاستثناء يخالف رأيه بعض المخالفة : وذلك أن الاستثناء متصل كما يقول ، فالله تعالى ينهى نهيا عاما عن أكل الأموال بلا مقابل ، ثم يستثنى المال الذى يربح من التجارة ، فإذا قلنا — كما يقول الشيخ عبده — إن المقصود ما يكون بين السلعة وثمنها من فرق ، وإن الله تعالى أتى بالاستثناء ليبيح أكل هذا الفرق ، فإن هذا يتضمن اعتبار هذا الفرق باطلا أى لا مقابل له ، وقد بينا من قبل أن التجارة مزيج من المال والعمل ، فالثمن الذى يدفع فى سلعة ما ، بعضه مقابل لرأس المال ، وبعضه مقابل للعمل والسعى وما لصاحب المال من حركة اجتلاب أو استصناع ، فكيف إذن يقال إن الربح الذى ربحه التاجر هو فى ذاته باطل ، أى لا مقابل له ، ثم استثنى من الحظر العام عن طريق التسامح والعفو ؟

وإذن فلا بد أن يكون الحديث فى هذا الاستثناء عن مال لا يكون له مقابل من عمل أو سعى ، حتى يكون فردا من أفراد الباطل المستثنى منه ، وحتى يمكن أن يقال : إنه عفو وترخيص ، فما هو هذا المال ؟ إنه فى نظرى هو الربح الذى يأخذه صاحب المال ممن يعهد إليه بماله ليتجر فيه على سبيل المضاربة ونحوها من الشركات التى تقوم على أساس أن يدفع أحد طرفيها

(١) ص ٤٢ ج ٥ من تفسير المنار .

مالا وليس له عمل ، ويقوم الطرف الآخر بالعمل ، فيكون لصاحب رأس المال جزء من الربح ، فهو قد أخذه فى مقابل ماله دون أن يقدّم أى عمل وكان حقه أن يُمنع لأنه حين أخذ ماله الأصلى قد أخذ جميع حقه ، فما زاد عن ذلك فهو باطل أى لا مقابل له ، فاستثنى الله هذه الحالة لأن مدار الاجتماع فى العادة قائم عليها ، فإن فى المجتمع من له مال ، وليس قادرا على العمل ، إما لعجزه ، أو لضعف تصرفه ، أو لعدم تفرغه ، وفى المجتمع من هو قوى على العمل ، حسنُ التصرف ، ذو مواهب تجارية أو نحوها ، متمكن من التفرغ . والحياة تعاون ، ومن أبرز مظاهر التعاون أن ينضم كل هذا إلى ذاك فيجبر نقصه ويتكون من مجموعهما فردٌ كامل يستطيع أن يحقق مفهوم التجارة الذى هو مال وعمل معاً ، وبذلك يفيد كلاهما ، ويفيد المجتمع من ورائهما .

وهنا نسأل : هل قيّد اللهُ هذا النوع من التعاون الذى هو التجارة وشركة المضاربة ونحوها من الشركات الصناعية بالقيود والشروط التى قيدها بها الفقهاء ، واشترطوها فيها ؟

والجواب : أن الله تعالى لم يقيد هذا إلا بقيد واحد هو قوله جل شأنه «عن تراض منكم» ، والتراضى معروف واضح ، وكل إنسان يستطيع أن يقدّر مصلحته فى نوع التعامل ، وهل هو خير له ، أو شرّ ، وهل هو راض عنه أو ليس براض ، وذلك يشمل الطرفين المتعاملين : صاحب المال ، وصاحب العمل .

وبذلك يستطيع أهل الفقه والذكر فى الشريعة وفى شئون الاقتصاد أن ينظروا فيما يتخذ أساساً لتعامل بين رأس المال والعمل يتحقق به التراضى ويتعارف عليه الناس فى المجتمع ، ولو خرجوا عن شروط مُتَشدّدى الفقهاء

التى كان كثير منها تطبيقاً لعرف تغير ، أو لأدلة لا عموم لها ، أو لما فهموه من أن كذا فيه غبن ، وكذا فيه غرر ،وكذا رخصة يُقتصر فيها على ماورد ، إلى غير ذلك مما كانت نتيجته إثقالَ وجوه التصرفات بالشروط والقيود ، وإظهارَ الشريعة بمظهر العاجز عن مسايرة الأوضاع الاقتصادية التى لاتخرج عن دائرة قوله تعالى « عن تراض منكم » .

نتيجة البحث :

والنتيجة التى نستخلصها من هذا ذات نقط :

* أن الله تعالى يجعل قاعدة التعامل العامة فى المجتمع هى التبادل الذى يقوم على التعادل والتقابل .

* وأنه يستثنى من هذا العموم حالة التعامل على وجه التجارة - التى هى مال وعمل - فيبيح أن يكون هناك ربح لا مقابل له ، من عمل أو مال .

* وأنه لا يقيد الإباحة فى هذا إلا بقيد واحد هو أن يكون التعامل عن تراض من المتعاملين .

* وأن ما وراء ذلك من القيود والشروط يجب أن يكون موضع النظر والدرس من جديد .

٨ — أركان الإيمان

والعقيدة الصحيحة

١ — لا يمكن أن يكون مجتمعٌ من المجتمعات مؤلفاً من صنف واحد من الناس، هم جميعاً على شاكلة واحدة فى التفكير، وعلى مبدأ واحد فى العقيدة الدينية، ولكن المجتمعات الطبيعية هى التى تكون مَوطناً متسعاً لكل منهج من مناهج التفكير، ويكون لها من المرونة والسماحة ما يجعلها صالحة لأن يجد فيها كلٌ ذى عقيدة مجالا حراً يزاول فيه نشاطه العقلى، ويتجه فيه اتجاهه الروحى دون مصادرة.

ولكن هــذا لا يمنع تألُّف المجتمعات من كثرة متفاهمة متلاقية تجمعها روابط فكرية وعَقَدِيَّة، وقلة تعيش بجانب هذه الكثرة وتحت ظلالها آمنة مطمئنة، بل هذا هو الأصلُ فى المجتمعات، فإن الفرق بين مجتمع ومجتمع هو أن الكثرة فى هذا المجتمع متفاهمة متلاقية على نوع معين من العقائد والأفكار والأهداف، والكثرة فى مجتمع آخر متلاقية على نوع آخر وأفكار وأهداف أخرى.

ثم إنه لا عيب على الكثرة فى مجتمع ما إذا هى تطلبت السيادة لأفكارها ومناهجها وعقائدها، ولم تسمح فى هذا الجانب بأن يُعبَث بها، ويُجتَرأ عليها، وإنما يعيبها أن يُخرجها ذلك إلى لون من ألوان العصبية العنيفة التى تنتهى بها إلى اضطهاد ما يخالف فكرتها، أو محاولة الإرغام على عقيدتها.

والمجتمع الإسلامى فى المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كان مجتمعاً طابَعُه العام هو العقائد والمبادىء والأفكار التى جاء

بها الإسلام ، وكانت الكثرة الكاثرة فيه للمسلمين ، والقوة الفعلية المؤثرة المدبرة ، أو بعبارة أخرى : الهيئة الحاكمة للمسلمين ، ولكنه كان مع ذلك مجتمعاً مشتركا يضم فريقاً كبيراً من اليهود لهم دينهم وتقاليدهم وأحياؤهم وعشائرهم ، ويضم أفرادا من النصارى ، وإن لم يكونوا على مثل ما كان عليه اليهود من الكثرة والنفوذ والمداخلة للمسلمين ، وكان هذا المجتمع متمتعاً بالحرية الفكرية إلى درجة أنه كان موطن نضال وجدال بين المسلمين وأهل الكتاب من يهود أو نصارى ، وأن الإسلام كان يلاقى من هذا النضال ألوانا من الصعاب يحتملها فى صبر وثبات .

وكان على الإسلام أن يضع السياسة التوجيهية لهذا المجتمع ، وأن تكون له - باعتباره دين الكثرة - سلطة التنظيم والتقنين ، وهذا هو ماحدث فعلا ، إذ كان التشريع لهذا المجتمع مصدره الكتاب والسنة وولاة أمر المسلمين .

وكان على الإسلام فى جانب العقيدة أن يبين دعوته وأن يعلن على الناس عقيدته ، وأن يجعلها بذلك واضحة معروفة ، فإن الحقائق إذا ظهرت ووضحت كانت هى الداعية إلى نفسها ، والمدافعة عن نفسها ، وإنما يضرّها أن تكون غامضة غير واضحة ، أو أن يكون هناك من يرجف عليها ، ويضع بين العقول وبينها حجبا تحول دون اكتشافها ومعرفتها .

لذلك نرى سورة النساء فى هذا الجانب تبين موقف الإسلام بيانا واضحا يجد فيه كل فرد من أفراد المجتمع دعوة موجهة إليه يتدبرها فى نفسه ويُجيل فيها عقله ، ويحدّد أمامها موقفه حرّاً مختارا .

١ - فجاء فيها قوله تعالى :

« يأيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نَزّل على رسوله ، والكتابِ الذى أنزَل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته

وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »[1] .

فهذه الآية خطاب موجه إلى جماعة المسلمين ، والمراد بها تقرير أصول الإيمان الصحيح ، والعقيدة الكاملة ، وهى الأصول التى جاءت بها كل رسالة إلٰهية ، فليست خاصة بالمسلمين على عهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذن فمع كونها موجهة إلى جماعة المسلمين ، هى حقائق وأصول يعرفها أهل الأديان السابقة ، ويرون فى تقرير القرآن لها قوة وإخلاصاً واعترافا بالواقع الصحيح فى غير مواربة أو تلكؤ ، ولو كانت دعوة هذا الدين شخصية أو جزئية أو لها هدف غير بيان الحقيقة فى ذاتها ؛ لما كان لها أن تقرر أن الإيمان الصحيح لا يتم إلا بالإيمان برسل الله جميعاً ، وبكتب الله جميعا ، وإذن فما الذى يدعو إلى عدم الإيمان بهذه الدعوة ، وما الذى جاء فيها من جديد لا يعرفه أهل الأديان الأخرى ؟

جاءت هذه الآية بأصول الإيمان فى كل دين ، وهى :

(١) الإيمان بالله ، وذلك يقتضى الإيمان بوجوده وبجميع صفاته التى ترجع إلى أنه تعالى موصوف بكل كمال ، منزه عن كل نقصان ، وأن جميع ما فى الكون ، ومن فى الكون ، خاضع لألوهيته ، مستند إلى فضله فى إيجاده وإمداده .

(٢) الإيمان برسوله ، وقد يُفسَّر هذا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو المتبادر من التعبير بقوله « ورسوله » فإنه هو الرسول الحاضر المعهود للمخاطبين ، وقد يُفسَّر بأنه جميع الرسل ومن بينهم سيدهم وخاتمهم ، على سنة المفرد المضاف الذى يعم ، فالمراد على هذا آمنوا بالله ورُسُله ، ولكنه عبّر بالمفرد فقال « ورسوله » ليفيد أن جميع الرسالات تمحضت

(١) الآية ١٣٦ من سورة النساء .

فى رسالة الرسول الأخير ، وأن الرسالات وإن تعددت فى العصور إنما هى رسالة واحدة لا تختلف فى الأصول ، وأن من آمن برسالة الرسول الأخير فقد آمن بالرسالات كلها ، وقد يؤيد هذا التفسير الذى هو جعل قوله « ورسوله » عاما على سنة المفرد المضاف : أن الآية بعد ذلك تقول : « ومن يكفر بالله ورسله » وإذن فالمطلوب أولا هو الإيمان بالله ورسله ، ثم إنها تتحدث عن الكتاب الذى نُـزّل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، أى الكتب السابقة على القرآن ، وقد ذكرت بلفظ المفرد والمراد كل كتاب سماوى إيذانا بأنها كلها من حيث ماجاءت به من الحقائق ، وما رمت إليه من الهداية ، بمنزلة كتاب واحد ، فهناك تشابه فى المعنى والأسلوب ، بين قوله « آمنوا بالله ورسوله » وقوله « والكتاب الذى أنـزَل من قبل » من جهة أن كلا منهما يراد به العموم ، وعُبر عنه بلفظ المفرد لإفادة المعنى الذى ذكرناه .

(٣) الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، لا فرق بين كتاب وكتاب ، فكل هذه الكتب من عند الله ، فلا يصح فى العقول أن يُؤْمَنَ ببعضها ويُكفَرَ ببعض ، فإذا قال اليهود : لا نؤمن إلا بالتوراة ، فهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وإذا قال المسيحيون : لا نؤمن إلا بالإنجيل ، فهم كذلك ، بل هم حينئذ لا يكونون مؤمنين بالتوراة ولا بالإنجيل ، لأن التوراة والإنجيل يأمران بالإيمان بمحمد وما جاء به محمد ، ولا يعقل أن يكون لهما موقف من الرسالة المحمدية غير ذلك ، فإن رسل الله ، وكتب الله مصدرها واحد وهو الله ، وهى كلها متعاونة على بيان حقيقة واحدة ودعوة الناس فى كل عصر إليها ، وهذا هو معنى أخذ الميثاق على النبيين أن يكون لا حقهم وسابقهم على غاية واحدة وعهد واحد ، هو عهد الله

وميثاقه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده [١] » ، « شَرَعَ لكم من الدين ما وَصَّى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى [٢] » ، « وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيين لَمَا آتيتُكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمِنُنَّ به ولتَنْصُرُنَّه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين [٣] » .

فإن قيل : إن المسلمين أيضاً لا يؤمنون إلا بما يقرره القرآن ، فالجواب : أنهم يؤمنون بجميع الكتب السماوية كالقرآن ، وكل ما فى الأمر أنهم يتحرَّون الحقيقة والصحة ، ولا سبيل إلى معرفة صحة شىء مما جاءت به الكتب السماوية إلا عن طريق القرآن ، لأنه هو الكتاب الوحيد الذى نُقِل متواترا من أول عهد الرسول الذى جاء به إلى الآن ، وإلى ما شاء الله ، أما غيره من الكتب فقد عَدَا عليها الضياع ، وعَدَا عليها التحريف ، ولم تفز بمثل ما فاز به القرآن من حفظٍ وعناية ، ولذلك يتخذ المسلمون منهجا ثابتا فى شأن الكتب السابقة ، يقوم على الإيمان بها ، والرجوع إلى القرآن فيما قرره عنها ، وذلك منهج منطقى ، فلو أن المسلمين اعترفوا بما يرويه أهل التوراة والإنجيل ، مع اعتقادهم المطابق لحكم التاريخ بأن هذين الكتابين لم يُرْوَيا من طريق تفيد اليقين ، ومع تقرير كتابهم القرآن ما يتعارض مع الموجود من نصوصهما ، لو أن المسلمين فعلوا ذلك لكانوا مخالفين للمنطق ، ولكانوا مكذبين لكتابهم .

(٤) الإيمانُ بعالم الغيب الذى ذكر منه فى هذه الآية بعضُ ما فيه ،

---

(١) الآية ١٦٣ من سورة النساء .
(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٨١ من سورة آل عمران .

وهم ملائكة الله على ما وصفهم به الله ، فى كتابه المفيد لليقين ، وفيما يطمئن القلب إلى وروده حقا عن رسوله الأمين ، أما ما وراء ذلك من التفاصيل التى لم ترد عن أحد هذين الطريقين ، فإنها ليست من العقائد الصحيحة التى يجب الإيمان بها .

(٥) الإيمان باليوم الآخر وبكل ما جاء عنه فى كتاب الله وفى السنة على ماذكرنا : من الجنة ، والنار ، والوزن ، والحســـاب ، وغير ذلك ، كما ماجاء دون تفصيل لما لم يُفَصَّل ، ولا زيادة ولا نقص ، فهذا هو المنهج السليم فى شئون الغيب والآخرة ، لأنه لا مجال للعقل إثباتاً أو نفيا فى ذلك ، وما دمنا نؤمن بالله ، فيجب أن نؤمن بكل ما صح مجيئه عن الله ، على الصورة التى جاء بها ، فمن زاد عليها ، أو نقص منها ، فقد جاء بشىء من عنده .

٢ — وجاءت السورة أيضا فى جانب الإيمان والعقيدة الصحيحة بقوله تعالى :

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيما »[1] .

وهذه الآيات تعقد موازنة بين المؤمنين ، ونوع معين من الكافرين غير المفرقين بين رسول ورسول .

فى الآيتين الأوليين ذكر الله عز وجل أن من الناس فريقا يكفرون بالله ورسله ، فليس فى قلوبهم أصل الإيمان بهما ، وقد انطوت نفوسهم على معنى

(١) الآيات من ١٥٠ إلى ١٥٢ من سورة النساء .

يراود بعض النفوس ، وهو الذى كان يراود مشركى العرب من قبل ، حيث يظنون أن رسالة البشر بالمعنى الذى تقرره الأديان غير جائزة عقلا ، ولذلك يقولون نحن نؤمن بالله ولا نكفر به ، لكننا لا نقبل أن يقال لنا إن هناك رسلا بعثهم الله من البشر ، وإنما الرسل مُدَّعُون ، وفى العصر الحاضر يحاول الذين يعتنقون هذه العقيدة أن يتخلصوا من مظهر التكذيب ، أو بعبارة أخرى : يحاولون أن يهذبوا التكذيب بما يلائم النفاق الاجتماعى - إن صح هذا التعبير - فبدلا من أن يقولوا : إن هؤلاء الرسل مُدَّعون كاذبون كما كان يقول المشركون ، نراهم يفضلون أن يقولوا : إن هؤلاء الذين يقولون إنهم رسل الله أفرادٌ من العباقرة فكروا كثيرا فى شئون أقوامهم ، وفى الله تعالى ، فامتلأت قلوبهم إيمانا بأنهم مرسولون من الله برسالات إصلاحية ، وأن عليهم أن يخلصوا أتم الإخلاص لهذه الرسالات ، وهذا الإيمان نابع من قلوبهم ، وهم فيه مخلصون صادقون على حسب تصوّرهم ، وليس لنا أن نتهمهم بالكذب ، لأنهم لم يقصدوا كذبا ، ولكن الأمر فى واقعه أنه لا يمكن لأحد أن يتصل بالله ، ولا أن يأخذ عن الله ، وأن الله لا يرسل رسلا من الناس .

هكذا يقولون : فهم يكذبون الرسل فى الحقيقة ، ولكنهم ليسوا فى سذاجة كفار قريش مثلا ، الذين كانوا يعلنون هذا التكذيب صريحا جريئا ساذجا ، لذلك يستعملون أسلوب المخادعة ، فيضعون تكذيبهم فى غلاف يخفى منظره السىء ، ليسهل تقبُّله على الناشئة ومن فى حكمهم ، ولئلا يقال عنهم إنهم يطعنون فى أشخاص الأنبياء والرسل ، ويتهمونهم صراحة بالكذب وتضليل البشر ، ولكى يظهروا فى الوقت نفسه بمظهر التعمق العلمى ، وفلسفة الواقع المسلَّم من العامة على نحو

يتفق والقوانين العلمية كما يزعمون (١) .

هؤلاء هم الذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، فيقولون نحن مؤمنون بالله ، ومؤمنون بأن الرسل أشخاص نبغاء عباقرة مخلصون فى أنفسهم، ولكن ليس معنى ذلك أنهم مرسلون حقا من الله .

وإذن فقد فرقوا بين الله وسله فى الإيمان ، ولذلك تفسر الآية هذه التفرقة بما يفيد هذا فتقول « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض » فهذا يصلح لأن يكون بيانا لتفريقهم بين الله ورسله ، ولقولهم نؤمن بالله ، ولا نؤمن بأن له رسالات إلى البشر ، وكذلك يفهم هذا المعنى من قول الآية بعد ذلك : « ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا » وهو سبيل التوسط فى نظرهم أوفى زعمهم بين من يجحَد الله ومن يؤمن بأنه موجود وله رسل يرسلهم ، فيقولون : نحن نؤمن بالله ولا نؤمن برسالات يبعث بها البشر ، فنحن على سبيل وسط بين هؤلاء وهؤلاء .

وقد بين الله تعالى أن هؤلاء كاذبون فى ادعائهم الإيمان بالله جل شأنه فلو آمنوا بالله حقا لآمنوا بأن إرسال الرسل شأن من شئون الحكيم الرحيم، ولتدبروا فى دعوات هؤلاء الرسل وما جاءوا به من الإعجاز والدلائل الدالة على صدقهم ، كل بحسب زمانه ، ولكنهم إنما يتخذون ذلك سبيلا إلى المخادعة والتستر وراء إيمانهم المزعوم بالله ، ولذلك تصرح الآية - بعد أن ذكرت زعمهم ، وبينت ما يقولونه وما يريدونه - بواقع أمرهم فتقول : « أولئك هم الكافرون حقا » فتؤكد هذا الحكم بأسلوب الجملة المعرفة الطرفين ، مع ضمير الفصل ، ومع كلمة « حقا » التى تشير إلى جملة مؤكدة أخرى تقديرها

---

(١) تحدثنا عن هـذا الموضوع فى كتابنا « سورة الأنعام والأهداف الأولى للاسلام » حديثا جامعا بينا فيه شبه المشركين للوحى ورددنا عليها - ص ٢٦ - ٤٠ .

حَقٌّ ذلك حقا ، أى ثبت ذلك ثبوتاً لا يقبل الشك ، ثم تصرح الآية بأن جزاءهم هو جزاء الكافرين فتقول : « وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » .

أما الآية الثالثة من هذه الآيات ، فتذكر الذين آمنوا بالله ورسله ، فى مقابل الذين كفروا بالله ورسله ، وتذكر عدم تفريقهم بين أحد منهم ، فى مقابل تفريق الكافرين بين الله ورسله ، وتذكر وعد الله تعالى بإيتائهم أجورهم ، وتشير بآخر جملة فيها إلى أن الله تعالى سيعاملهم أيضاً بمقتضى غفرانه ورحمته،فيعفو عما عسى أن يكون منهم بعد الإيمان الصحيح من ذنوب فَرَطت : « وكان الله غفوراً رحيما » .

وبهذا يتبين أنه ليس فى هذه الآيات تكرار مع الآية السابقة التى تقول « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » ، وأن المعنى فى كلٍّ جديدٌ ، فالآية الأولى أمرٌ بالإيمان بالله وبجميع رسله ، وبجميع كتبه ، وتحذيرٌ من التفريق بين رسول ورسول ، وكتاب وكتاب ، أما الآيات الثلاث الأخرى ، فهى حديث تحذيرى عن فلسفة أخرى هى فلسفة المفرّقين بين الله ورسله ، لا المفرقين بين رسول ورسول ، كما جرى عليه أكثر المفسرين .

٣ ــ وجاءت السورة فى هذا الجانب أيضا : جانب بيان أركان الإيمان والعقيدة الصحيحة بآيات تناقش فيها اليهود بمناسبة ما سألوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتى به تحدياً له ، وذلك هو قوله تعالى : « يسألك أهل الكتاب أن تُنزِّل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ، فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا » إلى قوله تعالى : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاةَ ، والمؤتون الزكاةَ ، والمؤمنون

بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما »(١) .

وقد تضمنت هذه الآيات تقرير عدة حقائق ، هى :

(١) أن اليهود قوم متعنتون ، وأنهم متجرئون على الله إلى حد أنهم يطلبون رؤية الله جهرة ، وأنهم فى هذا ظالمون .

(٢) وأنه بلغ من أمرهم فى تاريخهم أن اتخذوا العجل إلهاً يعبدونه ، ولا شك أن هذا ينافى رسالة موسى التى أرسله الله إليهم بها ، ولذلك تقول الآية المسجلة لهذا عليهم : « وآتينا موسى سلطانا مبينا » .

(٣) أن لليهود تاريخا فى العصيان ونقض المواثيق والكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء بغير حق ، والعناد والمكابرة ، واتهام مريم البتول بالبهتان ، والاعتقاد بصلب المسيح . إلى غير ذلك من الأعمال والعقائد المنافية لأصول الإيمان ، التى جاءهم موسى بالبينات الواضحات فيها .

(٤) أن منهم فريقا راسخين فى العلم يعرفون الحقائق الصحيحة ويدينون بالإيمان بما أنزل إلى محمد وما أنزل من قبله . وأن هؤلاء سيؤتون كسائر المؤمنين أجراً عظيما .

٤ ـ وجاءت السورة فى هذا الجانب أيضاً ببيان وجَّهته إلى النصارى ، يقرر أن الحقيقة والعقيدة الصحيحة تنافى ماهم عليه ، وأنهم فى دينهم غالون ، وأن الله إله واحد ، وما المسيح بن مريم إلا عبد من عباده وكلمة ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وأنه تعالى منزه عن أن يكون له ولد ، وله مافى السموات ومافى الأرض ، وأنه لا عيسى ولا الملائكة المقربون يستنكفون عن عبادته أو يستكبرون .

وبذلك حددت السورة أيضاً موقف الإسلام والدعوة المحمدية

---

(١) الآيات من ١٥٣ إلى ١٦٢ من سورة النساء .

من العقيدة المسيحية ، وناشدت أهلها أن يعودوا إلى أنفسهم ، ويتدبروا ما يليق بالله وما لا يليق ، ليدركوا ماهم عليه ، وينتهوا خيرا لأنفسهم .

وقد جاء ذلك كله فى قوله تعالى :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بنُ مريمَ رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، فآمنوا بالله ورسُله ، ولا تقولوا ثلاثة انتهوُا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أنْ يكونَ له ولدٌ ، له مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا ، لن يستنكف المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكةُ المقربون ، ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبرْ فسيحشرُهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا »[1] .

* * *

وبهذا كله اتضحت الحقائق ، وأُعلِنت العقيدةُ الإسلامية الصحيحة ، وزُيِّفت العقائد الباطلة ، والأوهام الفاسدة ، ومن ثَمَّ اتجهت السورةُ إلى الناس جميعاً بهذه الدعوة العامة إلى الإيمان الصحيح ، والنور المبين ، والرحمة والفضل والصراط المستقيم ، وذلك قوله عز وجل :

« يأيها الناس قد جاءكم برهانٌ من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما »[2] .

---

(١) الآيات من ١٧١ إلى ١٧٣ من سورة النساء .
(٢) الآية ١٤٧ من سورة النساء .

أما بعد :

فهذا ما اتسع المجال له فى هذا الكتاب عن :

« المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء »

أحمد الله تعالى إذ وفقنى إليه ، وأستغفره مما عسى أن يكون قد وقع فيه من خطأ أو تقصير ، فالإنسان خَطَّاء ، وجهدُه محدود ، ولكنّ نية المرء خيرٌ من عمله ، وما أردت إلا الخير والإصلاح ، والله على ما أقول شهيد ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

* * *

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ، رسول الله إلى العالمين أجمعين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الهداة الراشدين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ؟

فهرس

مقـــدمة : ٥ — ١٦

لكل سورة من سور القرآن هدف معين ، وروح خاص ـ دراسة سور القرآن على هذا الأساس أجدى من الدراسات الحرفية ـ الدراسات الحرفية أشبه بتطبيقات على علوم اللغة العربية ـ القرآن يفسر بعضه بعضا ـ القرآن حاكم لا محكوم عليه ولا ينبغى محاولة إخضاعه للأفكار القديمة أو الحديثة ـ السنة النبوية ومنزلتها من القرآن الكريم ـ التفسير بالمأثور ـ التيارات الإلحادية وكيف تقاوم ـ هذا هو منهجنا . . .

تمهيـــد : ١٧ — ٤٤

سورة النساء وترتيب القرآن ١٧ ـ تحقيق أن هذه السورة مدنية ٢٣ ـ اسم السورة وعنـــاية القرآن بالنساء ٢٧ ـ عرض إجمالى للسورة ٢٩ ـ أقسام البحث ٤٢ ـ

القسم الأول

المبـــادىء والتوجيهات

المجتمع الإسلامى مجتمع طبيعى

١ ـ المساواة بين الناس : ٤٧ — ٦٧

العالم والنظام الطبقى ٥٠ ـ المرأة فى العالم القديم ٥٤ ـ التفرقة بالجنس أو النوع مخالفة للنواميس الكونية ٥٦ ـ آية النساء الأولى تقرر المساواة الكاملة : تحليل علمى للآية ٥٧ ـ النتائج التى أسفر عنها هذا التحليل ٦٠ ـ التفاوت الطبيعى بين الرجل والمرأة ٦٠ ـ مبدأ المساواة فى غير آية النساء ٦٢ ـ السنة المطهرة ومبدأ المساواة ٦٥ الصحابة ومبدأ المساواة ٦٦ ـ

٢ — الإيمان بالله وحده إلهاً ومُشرِّعاً : ٦٨ — ٨٣

قضية التوحيد على نحو جديد ٦٨ - التوحيد عملا بعد التوحيد علماً ٦٩ - أهداف التشريع الإسلامى ٧٠ - الإذعان شرط فى الإيمان ٧١ - ظاهرتان من ظواهر القرآن :

١ — تذييل الآيات بالصفات ٧٣ -

٢ — التنقل والتوزيع ترويحاً للقلوب ٧٥ - آيات تجمع بين الظاهرتين ٧٨ - الشرك ألوان ٧٩ - يأهل التثليث انتهوا خيراً لكم ٨٣ -

٣ — العدل فى الحكم والقضاء والشهادة : ٨٤ — ٩٧

العدل فى سورة النساء ٨٤ - آيتان جامعتان ٨٧ - على « القوّاميّة لله » تبنى عظمة الأمة ٨٩ - القسط صمام الأمن ٩١ - العدل ميزان ، لا يتأثر بالحب ولا بالشنآن ٩١ - البغض فى الله لا يبرر الانحراف عن العدل ٩٢ - قضية فيها درس وعبرة ٩٣ - الرسول إنما يقضى بما يتبين له ٩٥ -

٤ — التضامن الاجتماعى العام : ٩٨ — ١٢٤

توحيد الله والإحسان إلى الناس ٩٨ - صور الإحسان ٩٩ - النهى عن مظاهر « الارستقراطية » ١٠١ - الجود بالمال ١٠٥ - السنة والتضامن الاجتماعى ١٠٦ - الجود بالنفس - القتال مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعى - قيمته ، وأهدافه ، وآدابه ١٠٩ - المرجفون على المجتمعات ١١٢ - المسئولية الشخصية ١١٤ - طاعة الرسول والرجوع إلى أولى الأمر ١١٧ - القتل العمد من أعظم الجرائم ١١٨ - حرمة القتل تأولا واحتجاجاً بالنوايا - تغليظ الكفارة على قاتل الخطأ ، والعقوبة الأخروية على قاتل العمد ١١٩ - الهجرة فى سبيل الله ١٢٢ -

٥ — الآيات المحذِّرة : ١٢٥ — ١٧٤

أنواع المنافقين وأساليب نفاقهم :

(١) المخذلون ١٢٥ - الحرب بالشبه والأضاليل ١٢٧ - نقد رواية ١٢٨ -

تزلزل أهل النفاق ١٣٢ - بواعث النفاق ١٣٣ من مظاهر النفاق الاستهزاء بالدين ١٣٤ - وجوب مقاطعة المستهزئين بآيات الله ١٣٤ - تحقيق في قول بالنسخ ١٣٦ - المنافقون انتهازيون ١٣٧ - تحقيق المراد بقوله تعالى « ولا يذكرون الله إلا قليلا » ١٣٨ .

(٢) اليهود ١٤٠ - موقفهم من الدعوة الإسلامية وموقفها منهم : نضال الدعوة مع المشركين فى مكة ١٤٢ - الأمل فى التعاون مع اليهود باعتبارهم أهل كتاب ١٤٤ - تبادل المودة بين المسلمين واليهود أول العهد بيثرب ١٤٥ - انطواء اليهود على المخاتلة وبدء فتنهم ١٤٦ - حرب الإرجاف والجدل واهتمام القرآن بهذه الحرب ١٤٧ - تحقيق المراد بكونهم « أوتوا نصيباً من الكتاب » ١٥٣ - إنذار لليهود ١٥٩ - بيان المراد مما جاء فى القرآن من تفضيل اليهود على العالمين ١٦١ - الفضل والخيرية وخضوعهما للسنن الكونية ١٦٤ - يهودي معاصر ينقد موقفاً لليهود ١٦٦ .

(٣) المتخلفون عن الهجرة وأصنافهم ١٦٨ .

٦ - الآيات الموجهة : ١٧٥ - ٢٠٣

تمهيد ببيان فكرتنا عن « الآيات الموجهة » ١٧٥ - عشرون مثالا مشروحة للآيات الموجهة فى سورة النساء فى نواح اجتماعية هامة ١٧٧ - أربعون مثالا أخرى ٢٠٠ .

٧ - الآيات المبشرة : ٢٠٤ - ٢٤٠

تمهيد ببيان فكرتنا عن « الآيات المبشرة فى سورة النساء » وأن رسالة الإسلام فى المجتمع رسالة رحمة وتبشير وتيسير ٢٠٤ - النتيجة : حق الإنسان فى أن يخطىء ، وفى أن يعفى عنه ٢١٢ - دراسة للآيات المبشرات فى سورة النساء : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » ٢١٥ - عمر بن الخطاب وجماعة من المصريين المتزمتين ٢١٦ - ما هى الكبائر ٢١٨ - « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » ٢٢٠ - لاحظ للكافر من ثواب الآخرة ٢٢٢ - سر التفرقة فى هذا بين المؤمن والكافر ٢٢٤ - الإحسان فوق العدل ٢٢٦ - معنى مضاعفة

العذاب للمجرمين وتبديل السيئات حسنات للمؤمنين ٢٢٧ «إن الله لا يغفر أن يُشرَك به» ٢٣١ - الشرك حجاب ٢٣٢ - «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك» - تمويه المتحاكمين إلى الطاغوت ٢٣٤ - كيف تدفع هذا التمويه ٢٣٦ - «ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله» تجاوب الرحمة الإلهية مع التائبين ٢٣٨ - الخلاصة : آيات التبشير تفتح سبعة أبواب للرجاء ٢٣٩ .

القسم الثانى

أهم الأحكام التى تضمنتها سورة النساء

١ ـ أحكام اليتامى : ـ تمهيد ٢٤٣ ـ ٢٦٢

(١) حفظ أموال اليتامى ٢٤٦ .

(٢) إصلاح أموال اليتامى والسفهاء ٢٥٠ .

(٣) الإنفاق على اليتامى والسفهاء ٢٥٣ .

(٤) بم نُصلح اليتامى ، ومتى ندفع إليهم أموالهم ٢٥٥ .

(٥) إن تسامُ النوايا الطيبة فى شئون اليتامى ٢٥٨ .

(٦) الإشهاد على اليتامى عنـــد دفع أموالهم إليهم ٢٨٠ - ضريبة التركات ٢٦١ .

٢ ـ تعدد الزوجات : ٢٦٢ ـ ٢٨٥

بحث ينتهى إلى رأى جديد فى هذا الشأن الاجتماعى الهام ، وفى حكم التسرّى بالمملوكات ، ويبين أن القرآن الكريم ليس فيه أمر بالرّق ولا بالتسرّى ، وأن للإسلام خطة مرسومة لتصفية الرق .

٣ ـ أحكام المواريث : ٢٨٦ ـ ٢٩٨

الامتلاك والتوارث حقان مشروعان ٢٨٧ - إنكار هذا المبدأ الطبيعى مفسد للفرد والمجتمع ٢٨٨ - موازنة بين الإسلام وغيره فى أهم تفاصيل الميراث ٢٩٢ -

٤ ــ جريمتان فاحشتان : ٢٩٨ ــ ٣٠٣

تحقيق يثبت خلاف ما يثبته جمهور المفسرين فى المراد من آيتى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » ، « واللذان يأتيانها منكم » .

٥ ــ أحكام التوبة : ٣٠٤ ــ ٣١٣

معنى التوبة ، وممن تقبل ، ومتى تقبل .

٦ ــ أحكام الأسرة : ٣١٤ ــ ٣٤٤

أحكام الزوجية : جعل الصداق على الرجل دون المرأة ٣١٦ - حماية الأسرة من الرذيلة وإبطال عادات الجاهلية ٣١٧ - حق كل من الزوجين على صاحبه ٣٢٠ - أحوال الخلاف بين الزوجين : الحالة الأولى : نشوز المرأة وكيف يعالج مع بيان وجهة نظر الإسلام فى العقوبات التى جعلت للرجال على النساء ٣٢١ - الحالة الثانية : نشوز الرجل وكيف يعالج ٣٢٨

الحالة الثالثة : حالة الشقاق بين الزوجين وكيف تعالج ٣٣٥ - المحرمات من النساء وبيان الحكمة فى تحريمهن ٣٣٧ - الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ٣٤١ نكاح المتعة ٣٤٣ الزواج والبيئة الصالحة ٣٤٤ -

٧ ــ قاعدة التعامل المالى : ٣٤٥ - ٣٥٤

التعامل المالى شأن أساسى ٣٤٥ - الصناعة والتجارة ٣٤٦ - الإسلام يقيم التعامل المالى على أساس التقابل الطبيعى ٣٤٧ - أموال الأفراد ذات اعتبار عام ٣٤٨ - ما هو الباطل فى قاعدة التعامل ٣٥٠ - على أى معنى استثنيت التجارة فى الآية التى قررت قاعدة التعامل ٣٥١ - رأى إصلاحى جديد ٣٥٢ - نتيجة هذا البحث ٣٥٤ .

٨ ــ أركان الإيمان والعقيدة الصحيحة : ٣٥٥ ــ ٣٦٦

بحث يبين أن سورة النساء حددت عقيدة الإسلام ، وبينت أركان الإيمان ، وخاطبت بالرسالة الإسلامية جميع الناس .

تنبيــــه

وقعت بعض الأخطاء المطبعية ، وكلها من النوع الذى لا يخفى على فطنة القارىء ، وسبحان من له الكمال وحده ؟

